الأعمال الفكرية

مكتبة الأسرة
٢٠٠٠

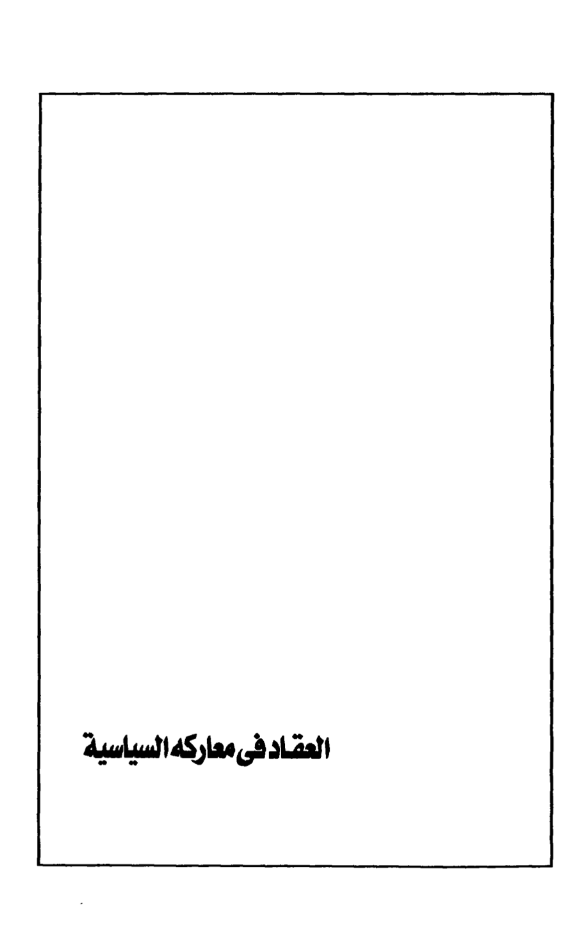
مهرجان القراءة للجميع
عشر سنوات
2000

سامح كريم

العقاد
فى معاركه السياسية



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



العقاد في معاركه السياسية

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: سفر الرؤيا

التقنية: ألوان زيتية على سيلوتكس

المقاس: ١٢٠×٩٠ سم

أحمد مصطفى (١٩٤٤ -)

فنان تشكيلى مصرى صاحب اتجاه فنى متميز، نزح إلى لندن فى أوائل السبعينات: وهناك كرس فنه للتجريب، فخاض طويلا فى عالم فن الحروفية، واختص بمعالجة الحروف العربية من خلال منظور إسلامى.

أما اللوحة المنشورة على الغلاف، فيرجع تاريخها إلى نهاية الستينات، وهى توضح اتجاه الفنان.

صلاح زكى

العقاد فى معاركه السياسية

سـامح كُـريّم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

العقاد فى معاركه السياسية

سامح كُرَيِّم

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

مقـــدمـــة

لا وقت لمقدمة طويلة .. حيث أريد لقاء القراء مع الكتاب وموضوعه ..

لكن اذا كان لا بد من تقديم لكل كتاب .. بـه يستدل القارىء علـى هدف الكتاب ومنهجه .. فدعوني أضع هذا في كلمات سريعة .

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا .. يريد أن يقول ببساطـة ووضوح .. كلمة مؤداها .. ان حرية الانسان في هذا القرن .. قرن التحولات الكبرى .. تعاني أزمـة حقيقية .

واذا كان لكل شيء سبب .. فلأزمة الحرية اكثر مـن سبب .. لكـن سببها الاول والمباشر والأهم .. هـو أن كل نظام من النظم .. التـي سادت وتسود في أي مكان من العالم .. ينظر الى ان الحرية ليست كحق لكل انسان ولدته امه ، وانما بوصفها أداة عليهـا ان تخدم هذا النظام وأغراضه .. في حين كان الأجدر بهذا النظام أو غيره ان يرى الحرية بمثابـة القيمة الأم التـي يجب ان تدور في فلكهـا جميع القيم والنظم والمبادىء والاتجاهات .

وتلك كانت ازمة العقاد الحقيقية ومحنة حياته التي استمرت منذ ان كان

صبيا منبهرا بما حوله الى أن أصبح مفكرا متأملا .. هـو يريـد ان يعيش مستمتعا بحقه في الحريـة خاصة وأن وسيلته في العيش هي صناعـة الكلمة .. وهذه الكلمة حين تكون صادقـة لا تنمو الا فـي بيئة تتنسم الحريـة .. وفي المقابل نجد غيره لا يريـد لـه ان يتمتع .. لا بل حتـى لا يفكـر فـي الاستمتاع بهـذا الحق .

ومن هنا .. من منطقة الارادة وكبت هذه الارادة بل ووأدها .. حدث الخلاف بـل والتصادم المنتظر .. وكان لا بـد ان يخوض مع هؤلاء الذيـن يرفضون حريته عشرات المعارك السياسية الأمر الذي انتهى بـه الى السجن في يوم من الايـام .

نقول خاض العقاد من اجل تمسكه بحريته كانسان عشرات المعارك على فترات مختلفة .. فالطرف الآخر في المعركة واحد .. هو شخصية الحاكـم بأمره .. ذلـك الذي يتولى السلطة .. ولا يقتنع بأن النـاس لا يستعبدون بعـد أن ولدتهم امهاتهم احرارا ..

لكن كثرة المعارك ووقوعهـا في أزمنة مختلفـة . تضع امـام الدارس الكثير من الصعوبات والعقبات . لقد أصبح من الصعب حصر هـذه المعارك ، والاصعب ان توضع في اطار أو منهج معين يصنفهـا .

وأصبح السؤال المطروح بعد تأمل : كيف يمكـن تقديم هـذه المعارك بصورة مفيدة .. ترقى الى قيمتها التاريخية ؟

هل نتتبعها تاريخيا فيكون عملنا هو عمل المسجل لا أكثر ولا أقل ؟ لكن هذه الطريقة ان كانت تحمل الكثير من الصدق والدقة الا انها لا تخـلو مـن عيوب .. لعل أبرزهـا ما قد يحدث من تكرار .

هل نصنف هذه المعارك حسب أماكـن النشر التي سجلتها فمثلا تكـون هناك معارك سجلتها « الجريدة » واخرى في « الدستور » وثالثة في « البلاغ » الى آخر هذه الطريقة التي ربما تتميز بسهولة البحث بالنسبة للدارس الا انها

ايضا لا تخلو من تقصير وهو تشعب المعركة الواحدة في أكثر من موضع صحفي .

هل نجمع وثائق هذه المعارك ونضعها امام أعيننا ومن ذلك نقوم بعملية التبويب والتصنيف بعد الاختبار والفرز .

ربما تكون لهذه الطريقة ميزات كبيرة فهي تجعلنا نتثبت أولا من الوقائع بالقدر الذي يجعل التاريخ امامنا كتابا مفتوحا .. نقرؤه ونتأمله ونتدبره وبعد ذلك نوزعه على الصفحات ونصنفه .

وقد نميل الى هذا المنهج .. الذي توسلنا به دراستنا المعارك الادبية للعقاد في كتابنا « العقاد في معاركه الادبية والفكرية ».

وعلى ضوء ما تقدم يمكن تقسيم معارك العقاد الى أربعة اقسام كل قسم يحمل ملامح وسمات .. تختلف عن ملامح وسمات القسم التالي له .. ولكنها في مجموعها تحاول جاهدة أن تخدم الفكرة الاساسية من نشر الكتاب وهي تقديم معارك العقاد السياسية . فالقسم الاول مثلا يعد تمهيدا لمواقف العقاد في المعارك السياسية وفيه تجيب صفحاته على سؤال : ما هو تفسير هذه المواقف ؟ والصفحات تجيب على هذا السؤال حين تقدم ثلاثة تفسيرات هي التفسير السياسي والآخر الاجتماعي والثالث الفكري .

ننتقل بعد ذلك الى القسم التالي من الكتاب وهو الخاص بمواقف العقاد من بعض المفاهيم السياسية ممثلة في صيغ الاحزاب والثورات والمذاهب الاجتماعية والاحداث الوطنية والنظم العنصرية والحركات الدينية وهذه جميعا تكون ستة فصول من هذا الكتاب .

وتسارع الخطى .. فنحن على موعد مع العقاد وهؤلاء الذين خاض معهم اعنف المعارك السياسية ..تلك التي بدأت بمعركته مع الخديوي عباس حلمي الثاني وفيها اتخذ هذا الخديوي موقفا من العقاد الذي مس ذاته التي لا تمس في عرف الملوك والسلاطين ، وكان العقاد اول صحفي مصري تتخذ

السلطة منه موقفا بسبب كتاباته المناهضة لسياستها ، ونصاحب العقاد في معاركه الى الملك فؤاد وابنه الملك فاروق •• ونمر على باشوات العهد السابق ورؤساء وزرائه واحزابه حتى تقوم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهنا نتوقف لحظات حيث نستمع الى السؤال الهام : وما هو موقف العقاد من قائد هذه الثورة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ؟

هذا السؤال والاجابة عليه تتضمنها الصفحات التالية •

يبقى القسم الرابع والاخير •• ويضم بعض الوثائق التاريخية التي نرى فائدتها للقارىء والدارس والباحث حيث فيها يشتم رائحة الماضي • ونختار من هذه الوثائق اثنتين هامتين ربما يتكلف القارىء مجهودا للحصول عليهما •

الوثيقة الاولى هي نص محاكمة العقاد عام ١٩٣٠ مع دفاع مكرم عبيد عنه ••

والوثيقة الثانية هي نص المقال الذي كان قد كتبه العقاد تعليقا على كتاب فلسفة الثورة في الميزان للرئيس الراحل جمال عبدالناصر ••

والآن هل هناك ما يمكن أن يقال ؟ لو كان هناك ما يقال •• فان قراءة العقاد ومواقفه في هذه المعارك السياسية العنيفة •• تجعلنا نخرج بيقين لا ريب فيه هو : « ان تحرصوا على الموت تكتب لكم الحياة »

فكم كان العقاد حريصا على هذا الموت بصموده امام الاستبداد والطغيان الا أنه كتبت له الحياة والخلود حتى بعد الموت •

القاهرة ــ ٣١ مارس ١٩٧٩   سامح كريم

القسم الاول

هذه المواقف .. ما تفسيرها ؟

١ ــ التفسير السياسي

٢ ــ التفسير الاجتماعي

٣ ــ التفسير الفكري

هـــذه المواقف .. ما تفسيرهـا ؟

الدارس لشخصية العقاد والمتابع لسيرة حياته .. تستوقفه مواقفه الكثيرة .. الامر الذي يجعله يتفق مع نفسه بأن من صفات هذا الرجـل صفة لعلهـا تقول انه رجل خلق هكذا للمواقف .. فهـو لا يكاد يفرغ من موقف حتـى يبدأ في اتخاذ موقف جديد .. لعله اشد واعنف من الموقف السابق . أو بانـه لا يكـاد يفرغ من الانتهاء من معركة حتى يبدأ في الدخول في معركة اخرى .. ولا تقل المعركة الثانية حدة وعنفا عن الاولى .. بل وتتضاعف الحدة والعنف في المعركة الثالثة التي تراوده .

رجل هكذا .. حياته هي مواقفه ومواقفه هي حياته .. ربما اغرتنا هذه الصفة التي قلما تتوافر فى شخصيات هذا العصر .. بان ندرس سيرة حياته من خلال مواقفه .. على غير المعتاد فـي الدراسة . فالمعتاد في الدراسة عادة هـو ان ندرس سيرة الشخصيـة موضوع البحث وبعـد ذلـك نستخرج المواقف العظيمة التي تتسم بهـا سيرة هذه الشخصية (١) .

بالنسبة للعقاد الامر يختلف ، فمواقفه هي التي تنير الطريق أمـام الدارس

(١) راجع العقاد في معاركه ـ الادبية والفكرية ـ سامح كريم

او الباحث لمعرفة سمات شخصيته •• ومن هنـا يجـد السؤال ـ الذي يلـح دائما ـ تبريرا لوجوده • هذا السؤال الذي يطـرح نفسه امـام الباحث او الدارس او حتى المتابع لسيرة حياة العقاد والسؤال هو : ما هـو التفسير العلمي لمواقف العقاد الكثيرة ؟ ولماذا يختلف العقاد عن ابناء جيله الرواد الافذاذ فـي هذا الجانب بالذات ؟ وماذا تعني هذه المواقف بالنسبة لدراسة هذه الفترة ـ التي عاشهـا العقاد ـ من تاريخ مصر الحديث ؟ هل يمكن ـ بلا مبالغـة او تهويل ـ دراسـة جانب من هذا التاريخ من خلال تلك المواقف ؟•

سؤال كبير عـن تفسير المواقف يتفرع عنه العديـد مـن التساؤلات •• التي نطمح في الاجابة عليها •• وللاجابة نجد انفسنا امـام تفسيرات منهـا السياسي ومنها الاجتمـاعي ومنها الفكري •• وكل تفسير يقدم لنـا جانبا من ملامح شخصيـة العقاد ذلـك الموقف الخالد ، او العقـاد ذلـك المقاتـل الصنديد،او العقاد عملاق الفكر،او العقاد هرقل زمانه •• الى آخره من الصفات والنعوت التي اتسمت بهـا شخصية العقاد واصبحت من حقه بلا منازع •

لهذا فالامر يستتبع دراسـة هذه التفسيرات • ولنبدأ بالتفسير السياسي لهـذه المواقف •

التفسير السياسي :

لا شك ان الاحداث الجسام التي مرت بمصر في اواخـر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين •• تركت بصماتهـا على شخصية العقاد • الامر الذي يمكن معه القول بأن هذه الاحداث استطاعت ـ بشكل او بآخر ـ ان تصنع من العقاد ذلـك الموقف الصامد الذي عرفه وانبهر بـه جيل العشرينات ومـا بعده من اجيـال •••

ففي السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر •• او في الوقت الذي كانت فيه مصر تعيش احزانهـا نتيجة الهزيمة التي منيت بهـا في الثورة العرابية ولد العقاد •• ولد في ظل هذه الاحزان التي أعقبت هزيمة العرابيين وبداية الاحتلال

البريطاني لمصر ..

فهذه الثورة التي قامت في الاصل لتحقق للبلاد حريتها السياسية قد انتهت بفقدان هذه الحرية ، ولم يكـن اخفاق هذه الثورة هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام في النفوس ، بـل اضيف اليها تلـك الحوادث التي تعاقبت على البلاد في سنوات الاحتلال الاولى .. فكـانت ايضا بواعث لليأس والقنوط . ففي هذه السنوات شهدت البلاد ـ بشكل سافر ـ التواء السياسة الانجليزيـة ونقضهـا لكل الوعود ، وشهدت فوق ذلـك كله استسلام بعض رجال السياسـة المصرية .. لارادة المعتمد البريطاني . فكـان أقواهم نفوذا هو اقربهم بهذا المعتمد اتصالا . والغريب والعجيب ان مصر فـي هذه الفترة كانت تعتبر ـ من الوجهة القانونية ـ ولاية عثمانية .. لكنهـا مـن الوجهـة العمليـة كانت مستعمرة انجليزية .. تعمل بريطانيا العظمى ـ وكانت ايامهـا امبراطورية لا تغيب عنهـا الشمس ـ على توطيد مركزها داخل البلاد وخارجها في العالم .. فقد صورت لمن في الداخل ومن في الخارج ان مصر تمـر بأزمـة ماليـة طاحنة .. وان تواجدهـا .. كقوة عظمى يحقق الخلاص من هذه الازمة. ولكي تصل بريطانيـا الى مـا تريد .. كـان عليهـا ان تعمـل على الانفـراد بالسيطرة على ماليـة البلاد . فعملت على الغاء المراقبة الثنائيـة بينها وبيـن فرنسا .. هذه الثنائية التي قامت نتيجة لديـون مصر ابان حكم اسماعيل .. ورغم اعتراض فرنسا بعد تعيين المستشار المالي الانجليزي .. وكان أول اجراء يتخذه هو ان يضيف الى ديون مصر تسعة ملايين جنيه كقرض يدفـع نصفـه كتعويض للتخريب الذي حدث في الاسكندرية اثنـاء الثورة العرابية ..

وابتدع كرومر المعتمد البريطاني في مصر وسائل جديدة مـن شأنهـا زيادة الديون .. حتى يبرر تواجـد الاحتلال بمصر .. وظهور بريطانيا فـي صورة المنقذ من حالة الافلاس التي تقع فيهـا البلاد . ولكي ترسخ بريطانيـا قدمهـا في مصر اكثر واكثر .. تمكنت من حمل فرنسا ـ بمقتضى الاتفـاق الودي سنة ١٩٠٤ على ترك اليد المطلقة لها في مصر . مقابل سكوت انجلترا على تصرفات فرنسا في مراكش ، وكانت فرنسا اول الدول الاوربية المعارضة لاحتلال انجلترا لمصر من الوجهـة القانونيـة الدولية . ولكن منذ هذه الاتفاقيـة بدأ

يتضاءل شأن المسألة المصرية في اوروبا . حيث سلمت الدول الاوروبية بالامر الواقع . خاصة وان انجلترا كانت تبرر وجودها في مصر بضرورة توطيد الامن .

وخلف هذا القناع ارتكبت انجلترا المآسي والجرائم في حق مصر وشعبها .. فالجيش المصري جيش هزيل يرأسه ضباط انجليز ليكون أداة مسخرة في يد الاحتلال . والبوليس يتكون من افراد يرأسهم ضابط انجليزي لكل مديرية مفتش عام .. واصبح مألوفا ان يكون هناك في كل جانب من الجوانب الحيوية مستشار انجليزي . فهذا المستشار الانجليزي للنواحي المالية ، والآخر للنواحي القضائية ، والثالث للنواحي التعليمية وزاد عدد الموظفين الانجليز من المائة في بداية الاحتلال ، الى الآلاف في عام ١٩١٩ . وفي الوقت نفسه قل نصيب المصريين في الوظائف الكبيرة .. واصبحت الوزارة برئيسها تأتمر بأمر الانجليز منذ رسالة وزير خارجية بريطانيا الى مصر عام ١٨٨٤ والتي جاء فيها بالحرف الواحد : « ما دام الاحتلال البريطاني قائما في مصر فلا بد من اتباع النصائح التي ترسلها حكومة جلالة الملكة الى الخديوي . ويجب على الوزراء والمديرين المصريين ان يكونوا على بينة من ان الحكومة البريطانية تصر على اتباع السياسة التي تراها .. ومن الضروري ان يتخلى عن منصبه كل وزير او مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة . واذا اقتضى الامر استبدال أحد الوزراء فهناك من المصريين من هم على استعداد لتنفيذ هذه الاوامر التي قد يصدرها اليهم الخديوي بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة ! »

وكان سند الاستعمار البريطاني فئة من كبار ملاك الارض الزراعية .. هؤلاء الذين زاد عددهم وتضاعف بفضل اللوائح العقارية التي أقرتها سلطات الاحتلال .

وهكذا بلغت المهانة في الحكم بمصر ان يكون المعتمد البريطاني على رأس البلاد . ومن ورائه عدد ضخم من الموظفين الانجليز الذين يتمتعون بالامتيازات .. تلك التي كانت تخول لهم قتل المصري دون جريمة يرتكبها ، وحيازة اكبر

الارباح دون حساب ، وتهريب الاموال الى الخارج دون اي رقابة .

ولم يكن غريبا والامر كذلك .. ان تتحطم الصناعات التي كانت قائمة بمصر قبل الاحتلال .. لتخلي السبيل للسلع البريطانية .. مما جعل اصحاب هذه الصناعات يهجرونها لانهم لا يستطيعون الاستمرار في ظل هذه الضرائب الباهظة التي تفرض عليهم بين آونة واخرى .. وهذا ما عبر عنه « رود ردشتين » في كتابه المسألة المصرية حيث ذكر في عام ١٩١٠ ان الانجليز في الثماني والعشرين سنة التي حكموا فيها مصر . لم يكتفوا بعدم انشائهم ولو صناعة واحدة فحسب بل حطموا بالفعل ما من شأنه ان يعود ببعض التقدم الصناعي .. وفتح الاستعمار ابواب الجمارك المصرية للسلع الاجنبية .. وقرر ملنر بان السوق المصرية هامة لتصريف البضائع الانجليزية بسبب المنافسة المتزايدة لهذه البضائع في التجارة الدولية .

ولم يكتف الاستعمار بتحطيم هذه الصناعات المصرية القليلة بل حاربها ايضا بالوسائل الفكرية ، ايضا حين كان يلقن التلاميذ في المدارس ان مصر بلد زراعي ولا يمكن ان تقوم فيها صناعة بسبب عدم وجود الفحم والحديد .

وقد اعترف كرومر بنتيجة سياسته هذه في تقرير له يقول فيه : « من يقارن الحالة الراهنة بالحالة التي كانت منذ خمسة عشر عاما ، يرى فرقا ضخما فالشوارع التي كانت مكتظة بدكاكين ارباب الصناعات والحرف من غزالين وصباغين وصانعي الاحذية قد اصبحت مزدحمة بالمقاهي والدكاكين المليئة بالبضائع الاوروبية . اما الصانع المصري فقد تضاءلت حاله وانحطت كفاءته وفسد لديه الذوق الفني الذي طالما اخرج قبل ذلك المعجزات بمفاخر الصناعة .. »

واذا كانت قد نشأت بعض مرافق عامة في عهد الاحتلال فكانت لا مفر منها كشركات المياه والنور لتحقيق الرفاهية للاجانب المقيمين في مصر ، أو بعض الصناعات التي كان لا بد منها لمصلحة المستعمر نفسه كالمحالج

والمكابس . كما ان السكك الحديدية التي انشأها الاحتلال انشئت اساسا لخدمة نقل القطن الى الموانىء . لا لتسهيل النقل والتجارة الداخلية . والملاحظ ان شبكة السكك الحديدية . لا زالت الى يومنا هذا قاصرة على الوادي الضيق للنيل بشكل يوازي مجرى النهر مجتهدة ان تربط البلاد بموانىء التصدير . فليست هناك شبكة في عرض البلاد تربط الريف بالمدن . واجتهد الاحتلال ان تكون كل الشركات التي انشأها او سمح بها شركات اجنبية. واصبح النشاط الاقتصادي في يد العناصر الاجنبية فيما عدا الاعمال البسيطة بينما انكمش المصريون في نطاق الزراعة . وقد اراد الاحتلال ان تكون مصر مزرعة قطنية تمد مصانعه في « لانكشير » بالقطن المصري بأرخص الاسعار . فزادت المساحة المزروعة قطنا . وبينما كانت مصر تصدر الى الخارج الكثير من المواد الغذائية اصبحت تستورد هذه المواد .

ولا تقل سيطرة الاحتلال البريطاني بعد الثورة العرابية على التعليم من سيطرته على بقية الجوانب التي ذكرناها .. وليس أدل على ذلك من ان نسبة ما انفق على التعليم في الخمس والعشرين سنة الاولى من عهد الاحتلال لم يتجاوز ١./ من ميزانية الحكومة ولم تزد هذه النسبة اكثر من ٣./ والغيت المجانية وزادت مصروفات المدارس الثانوية .. حتى صعب على ابناء الطبقة المتوسطة الالتحاق بها ، ولعلنا نستشعر سيطرة الاحتلال البريطاني على التعليم من عبارة احد المسئولين البريطانيين وهو السير فالنتين حيث يقول : « لو اخذنا اي مقياس نحكم به على النظام التعليمي الذي وضع للشباب المصري تحت الحكم البريطاني فان هذا النظام لم يسع الى خلاص الدولة او تحريرها وكان دون مراء اسوأ مفاسدها . »

هذا هو حكم احد رجال الانتداب البريطاني في مصر بعد الاحتلال بسبع سنوات اي في عام ١٨٨٩ وهي السنة التي ولد فيها العقاد . ثم تمر اربعة عهود (اربعون سنة) من الحكم البريطاني لتكون نسبة الامية ٩٢./ بين الذكور ، و ٩٨./ بين الاناث .

ويدافع رجال الاحتلال عن هذا الوضع التعليمي السيىء بحجج ومبررات

.. وفي مقدمة هؤلاء المدافعين اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » ودنلوب المستشار التعليمي بمصر في تقريره المشهور واللورد ملنر في كتابه « انجلترا في مصر » وهؤلاء يبررون السياسة البريطانية في التعليم بأن الباشوات في مصر كانوا هم الذين يعوقون التقدم والحركة التعليمية .

والذي لا اختلاف عليه ان كلا من الباشوات والبريطانيين قد تحالفا في عرقلة التقدم التعليمي بالصورة التي كان يتوقعها المرء في الدفعة التي اخذها منذ ايام اسماعيل واوائل عهد توفيق . وكان هدف التعليم في عهد الاحتلال هو الموافقة على الاوضاع السياسية التي قامت . ومعنى هذا في نظر الانكليز اقرار الامن وجعل النظام مستتبا من حيث لا تقوم في نفوس المصريين قائمة لعناصر التذمر والسخط . ولذلك كان التعليم في عهد الاحتلال وبدايته تابعا لوزارة الداخلية . ولا شك ان هذه التبعية تدل دلالة واضحة على ما كان يطلب من المدارس ومن المعلمين !

فتبعية التعليم لوزارة الداخلية كان هدفه الاول اعتبار التعليم اداة من ادوات حفظ النظام كقوة البوليس مثلا ـ والهدف الثاني تخريج الموظفين الطيعين للادارة وكان تخريجهم بقدر محدود ، اي ان المدارس ـ الابتدائية والثانوية والعالية كانت تفتح وتوصد ابوابها حسب الحاجة . وقد انعكست هذه المسألة في نظام الامتحانات التي كانت تزداد في صعوبتها وسهولتها حسب الحاجة الى تخريج الموظفين . كما انعكس ايضا في قيمة المصروفات زيادة او نقصا حسب الحاجة ايضا .

لا بد ان العقاد سمع فيما كان يسمع في صباه عن احاديث وحكايات حول الثورة العرابية والاحتلال البريطاني لمصر .. بل وقد عايش نتائج هزيمة هذه الثورة وبداية الاحتلال البريطاني تلميذا في المدارس .. وموظفا لفترة قصيرة وصحفيا وكاتبا فيما بعد سخر قلمه للدفاع عن قضايا بلده . يضاف الى هزيمة الثورة العرابية وبداية الاحتلال البريطاني لمصر في تفسيرنا السياسي لتكوين مواقف العقاد ظهور طلائع الدكتاتورية في العصر الحاضر .. وهو ما رأيناه في كتابات العقاد السياسية والفكرية فمما استدعى منه التأمل والتفكير

ثم اتخاذ الموقف ظهور الزعامات المطلقة على مدى واسع وصور خلابة واستعلاؤها واستفحال شأنها وضمور المبادىء والنظريات وتراجعها للانشغال بعبادة الزعيم والتفاني في طاعته والاذعان التام لكلمته • وككثير من امم الحضارة اصبحت تستمد وحيها في العهد الاخير من الافراد • وتنهل من معين شخصياتهم وتأتمر بأوامرهم ، وترسم خطواتهم واكثرهم ينعمون بسلطة لم يحظ بمثلها أكاسرة الفرس او اباطرة الرومان في الازمنة القديمة ولم ينهلها قياصرة الروس او سلاطين العثمانيين في العهود المتأخرة وقد برز اكثر هؤلاء الزعماء من الخفاء في صور غامضة وظروف ملتبسة يكاد يبدو فيها اثر الاسطورة وظل الخرافة ويعد لهذه الزعامات اثر كبير في تكوين التاريخ الحديث وتشكيل الحوادث وتزجية الامم ••

وفي مقدمة هؤلاء الزعماء هتلر زعيم المانيا النازية ، وموسوليني زعيم ايطاليا الفاشية •

هذه الطلائع الدكتاتورية شدت انتباه العقاد الى التأمل والتفكير • وكونت عنده موقفا التزم به حتى نهاية حياته • وهو الصمود ضد هذه الاشكال من الديكتاتوريات سواء في خارج مصر كما في موقفه من هتلر وموسوليني (١) او في داخلها كما سنرى في مواقفه من السياسيين المصريين الذين يشتم منهم رائحة الطغيان والتسلط والدكتاتورية •

يضاف الى ما تقدم قوة الدعوة القلمية في النصف الاول من القرن العشرين والتي تأثر بها العقاد اكبر تأثير ومارسها فيما بعد •• والتي ذكرها في كتابه « حياة قلم » بأنها قد بلغت في القاهرة مبلغا لا يدانيه ما بلغته في اي عاصمة من عواصم المشرق أو المغرب •

ويحدثنا العقاد عن هذه الدعوة فيذكر ان القاهرة كانت مركزا لكل دعوة تهتم بها دول العالم ذوات المطامع في الشرقين الادنى والاقصى ومركزا لكل دعوة يديرها دعاة الجامعة الاسلامية ودعاة الوحدة العربية ودعاة تركيا الفتاة

---

(١) راجع ـ هتلر في الميزان ـ العقاد

ودعاة الاصلاح في ايران وأواسط اسيا ، ودعاة الحركات الوطنية في مصر نفسها وفي سائر الاقطار الافريقية من شمالها في بلاد المغرب الى جنوبها في بلاد السواحل وزنجبار •

وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى ارواحهم وابدانهم • ولا تمهلهم ان يتجاهلوها او يغفلوا طرفة عين عن اخطارها وعواقبها • وقد حدث كما يذكر العقاد ان حركة في القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد في الاستانة،وان رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه واهانه اثنان من وزرائه • فقتل الثلاثة جميعا وقال قاتلوهم انهم قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد جمال الدين•

كانت هذه الحقيقة من وقائع الحال ، ومن طرائفها المروية ان السلطان عبد الحميد كان ينام في يلدز وعيناه في شارع محمد علي بالقاهرة واتفق يوما ان ابراهيم المويلحي صاحب صحيفة مصباح الشرق دخل مكتب المؤيد ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه الى سقف الحجرة : « قادر انت يارب ان تسقط هذا السقف على من تحته فيستريح السلطان عبد الحميد ، ورد عليه الشيخ محمد عبده وكان من رواد هذه الحجرة قائلا : نعم •• لو تقدمت انت خطوتين » •

ويذكر العقاد مؤكدا قوة الدعوة القلمية بأن القاهرة تهيأت لتواجه هذه القوة لامتيازها بين عواصم الشرق بمركزها التاريخي ومركزها الحديث ولم تتهيأ لها مدينة اخرى على مثالها من الآستانة عاصمة الخلافة الى مادونها من عواصم الولايات والحكومات ولم تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادفة ولا لعلة من العلل العارضة •

فالآستانة هي عاصمة الخلافة ومركزها وهي بهذه الصفة تعتبر اهم المراكز في العالم الاسلامي وعالم السياسة الشرقية على اجماله •• ولكن قيام الدعوات القلمية او اللسانية فيها امر كان لا يخطر على بال الدعاة لشدة الحجر فيها على الاقلام والالسنة وحظر الاجتماع فيها وتأليف الجماعات للمقاصد السياسية ،

وعواصم الشرق الأدنى مهمة بشهرتهاومواقعها ، ولكنها لم تكـن قط مركـزا يتلقى منه العالم الشرقي دعوة عامة على نطاق واسع ، وحكمها حكـم الآستانة في حرية الدعوة والاجتماع .

أما القاهرة فقد كانت منذ بنيت في ايام الفاطميين مركز داعي الدعاة واستاذ الاساتذة في فنون الدعوة بالقول والاشارة . ثم اصبحـت مركـز الاعـلان الاقتصادي والسياسي في الحقبة التي اشتدت فيها المنافسـة بيـن اصحـاب التجارة عن طريق البحر الاحمر واصحاب التجارة عـن طريـق رأس الرجـاء الصالح . ثم جعلها الخديوي اسماعيل قطعة من اوروبا بمحاكمها المختـلطة وامتيازاتها الاجنبية واشتباك المصالح المتعارضة فيها بين الدول وتلاطم التيارات حولها من داخل البلاد العثمانية في شؤون الحكم او شؤون الثقافة .

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتماع فتمت فيها معدات هـذه الدعوة القلمية وترادف عندها نمط الدعوة القديم ونمط الدعوة الحديث .

ويقول العقاد : « ولا تنسى سحر الكلمة المطبوعة في جدتهـا قبـل ان تبتذلها كثرة التداول وتدخلها الالفة في عداد اليوميات الرتيبة التـي تنتظـر في اوقاتها ولا تحتاج الى لهفة في الانتظار .

وان تعجب لسر من اسرار تلك الدعوة في نفاذها وبعد مداها فما اعجب البون الشاسع بين ضخامة اثرها وضآلة وسائلها . وانظر الى البـون الشاسع مثلا في صحيفة كصحيفة العروة الوثقى او ابو نضارة او الطائف او الآستانة »

ويستطرد الى ان يقول : « ولكن هل تراه يذهلني عن هذه القوة الهائلـة وانا احسها حولي كالدوامة المدوية في لجة البحر الموار بالامواج والرياح .

ان الف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من الضمائر قـداسـة الدين . وان الف دجال باسم الصحافة لا يمسحون قداسة الكلمة الحيـة بين الناس .. انهم يحتاجون الى الكلمة حاجتهم الى العمل في ساعة اليقظة مـن سباتهم الطويل ..

ان الصحف التي تستغل مخاوف الملوك وفضائح الدول لا تستطيع ان تملأ الجو من اعلاه الى ادناه . ولا ان تستوعبه بجميع زواياه فاذا وجدت هذه الصحف فهي الشفاعة المقبولة او غير المقبولة لوجود طبقات في الجو الصحفي الى جانبها تنزل من الملك الى الوزير الى الرئيس الصغير ومن الرؤساء الى عمد القرى ومشايخ الحارات ومن هؤلاء الى ما دون ذلك من طبقات ذلك الجو الفسيح » .

وبدافع الوضع السياسي لمصر بعد احتلالها ، وبايمان بقوة القلم ينشأ لدى العقاد العديد من المواقف التي تفرضها الاحداث .. فها هي بريطانيا تفرض حمايتها على مصر عام ١٩١٤ .. وهو حدث جلل في تاريخ مصر .. ولا بد ان العقاد دقق في كلمة « حماية » ولا بد انه علم انها نظام مرن تتفاوت معانيه بين سيطرة قوية لدولة اجنبية او نفوذ سياسي لهذه الدولة لقاء الدفاع عن دولة اخرى تحميها .. وهذا من شأنه ان يصنع موقفا عند العقاد مما رأيناه في اعتراضه على صيغة الحماية شكلا ومضمونا .

وهاهي الحرب العالمية الاولى تشتعل وتتحمل مصر ــ دون ذنب ــ نصيبا في هذه الحرب .. ويصاب شعبها في ارزاقه وامواله ويسخر في الاشغال والعمليات العسكرية وتشغل سلطات الاحتلال المرافق العامة كالسكك الحديدية وغيرها ، وتحول مباني المدارس الى مستشفيات ويتكبد الفلاحون خسارة فادحة بسبب التحكم في اسعار القطن . ذلك المحصول الرئيسي والوحيد بعد احتكار الاحتلال لمنتجاته ويرى المصري نفسه غريبا في وطنه .. ويرى بلاده وقد تحولت الى معسكر كبير حشدت فيه اخلاط من البشر كمحاربين تابعين للامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس،ويرى نفسه مسخرا لخدمة هذا المعسكر، وينتهي في تفكيره الى ان بلاده اصبحت قاعدة للغزو والتسلط .

ولا تستمر استكانة الشعب طويلا .. فقد غضب حين علم ان بريطانيا تلعب باقداره وانها لم تمنحه الذي وعدت به فكانت انتفاضته عقب الحرب العالمية الاولى كرد فعل لما لحقه في وطنه وكرامته.متخذا من اعتقال سعد زغلول ورفاقه سببا لهذه الثورة مع ان السبب يرجع الى عوامل ابعد من ذلك واعمق.

ويدرك العقاد كغيره ان ثورة ١٩١٩ انتهت بتصريحات شكلية حول الجلاء والاستقلال ويدرك في نفس الوقت ان اكتفاء الحركة الوطنية بهذه الشكليات فيه اكبر نكسة للحركة الوطنية نفسها .. فالبلاد نتيجة لهذه السياسة لا بد وان تسير في حالة خضوع كلي للاستعمار واعوانه . الى فترة يعطل فيها الدستور ويضيق على الحريات ولا تستخدم الديمقراطية وتصبح هـذه جميعـا مجرد مسميات ولافتات ليس لها معنى او مضمون .. وحتى المعارك الانتخابيـة تقوم ولا تؤدي الى شيء من التغيير او التبديل في حياة الناس ومن ناحية اخـرى فان الخلاف السياسي بين سعد زغلول وعدلي يكن اخذ يسيطر على حياة البلاد السياسية ويجرف المسائل المصرية في غمار المنازعات والخصومات الشخصية، ويطبع الاحزاب بطابع المهاترات اللفظية التي لا تستند الى فكرة . ويزداد هذا الخلاف بين الاثنين حين يتمسك كل منهما بحقه في رئاسة وفد المفاوضـات. فسعد زغلول يرى انه احق كزعيم للشعب وعدلي يكن يرى انه الاحق كرئيس للحكومة .. ويذهب الاخير .. وتفشل مهمته وازاء فشل المفاوضات تـرى بريطانيا ان تصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وفي اطار هذا التصريح يؤلف عبد الخالق ثروت وزارته الاولى في مارس عام ١٩٢٢ ويقلد اسماعيل صدقي وزارة الداخلية بعد ان نال الانكليز سلطات واسعة تطلق يده اطلاقا تاما في مكافحة الحركة الوطنية . لقد كان الانكليز حتى تأليف وزارة عبد الخالق ثروت ينفذون سياسة البطش بأيديهم اما بعد تأليفها وتقليد اسماعيل صدقي وزارة الداخلية. فقد تركوا الامر في ايدي الحكومة المصرية . فاندفعت تكافح الحركة الوطنية بأيد مصرية وقوات مصرية .. وتزداد الامور تفاقما بعد ان يغيب قطبان كبيران في السياسة المصرية هما عدلي يكن الذي تقاعد وحل محله محمد محمود رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين،وسعد زغلول الذي مات عام١٩٢٧وحل محله مصطفى النحاس رئيسا لحزب الوفد وازداد تنكر الملك فؤاد والانكليـز للديمقراطـية المصرية بعد اختفاء هذين القطبين الكبيريـن . فطرد الملـك وزارة النحـاس الائتلافية ، واسند الوزارة لزعيم الاقلية محمد محمود فاقام دكتاتورية اليـد الحديدية في عامي ١٩٢٨ـــ١٩٢٩ فعطل دستور ١٩٢٣ كما عطل البرلمان واعلن انه سيحكم البلاد بيد من حديد وفشلت التجربة بسبب اضطراب الحالة فـي البلاد وعاد الوفد الى الحكم بشهور قليلة انتهت بطرد وزارة النحاس في عام

١٩٣٠ بسبب صدامها مع الملك والانكليز فاقام الملك فؤاد دكتاتورية اسماعيل صدقي الاولى فالغى دستور ١٩٢٣ جملة • وفرض على البلاد دستورا جديدا سحب فيه مبدأ الانتخاب على درجتين وثارت البلاد احتجاجا على الغاء دستور ١٩٢٣ •

هذه الازمة السياسية الشاملة التي اجتاحت مصر في عشرينات وثلاثينات هذا القرن جعلت الكثيرين من الادباء والمفكرين وفي مقدمتهم العقاد ـ كما يذهب بعض دارسي الادب ومؤرخيه ـ يميلون الى النقد والادب وما يدور حولهما من معارك • ولعل ما يؤكد هذا القول ان اكثر واقوى المعارك السياسية التي خاضها العقاد • ترجع الى هذه الفترة بالذات •• فلم تكن هزيمة التيار الوطني باحتلال الانكليز لمصر لتصرف المصريين وخاصة المفكرين منهم عن المضي في التيار العارم الذي بدأ يغزو عقولهم ونفوسهم وضمائرهم •

لهذا ولغيره من الاسباب •• يمكن القول بأن مواقف العقاد لها ما يبررها سياسيا •

التفسير الاجتماعي :

والسؤال هنا : هل للوسط الاجتماعي اثر في كثرة مواقف العقاد ؟

وللاجابة عن ذلك نعود الى سيرة العقاد •• لنستأنس ببعض ما فيها من احداث تكشف لنا عما يبرر مواقف العقاد اجتماعيا •• ففي بعض القصص التي يحكيها العقاد في سيرته ما يكفي من الدلالات ، ففي طفولته تروقه لعبة الجيوش •• وهي اللعبة المفضلة عند الاطفال في اواخر القرن التاسع عشر • ويذكر العقاد ان دروب مدينة اسوان وحيشان مدارسها •• حولها الاطفال في لعبتهم هذه الى ميادين قتال لا ينتهي بين جيش مصر وجيش السودان وجيش الدراويش وجيش الترك وجيش الانكليز •

والاطفال الذين لا يزيد عمرهم عن العشر سنوات يوزعون انفسهم بين قادة وجنود •

ومركز العقاد في هذه اللعبة ـ كما يذكر ـ في كتابه حياة قلم : «كنت قائد الجيش المصري الذي يطلب المبارزة من الاعداء ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية اليزنية المشهورة في ملاحم شعراء الربابة فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسي على حسب المقام ..

وكان زملاؤنا ـ او اعداؤنا ـ يستعينون في تحضير هذه الحماسيات بشعراء الربابة الذين امتلأت بهم قهوات البلدة في ايام الحملة السودانية واغنوها عن المسارح وملاعب البهلوانات والقراقوزات لازدحام المدينة بالجنود والباعة من ابناء الصعيد ـ طلاب هذا الضرب من القصص والاناشيد ومن لم يجد من الطلاب بغيته عند شاعر الربابة طلبها في بيت هنا او قطعة هناك من كتب المحفوظات او روايات التمثيل وفيها الكثير من مواقف الفخر والحماسة او مواقف التخويف والتهويل .

وكنت قد جربت نظم الشعر في بعض المقاصد المدرسية فشجعتني التجربة على نظم الاناشيد الحماسية لميدان المبارزة واردت ان اثبت للسامعين انني صاحب تلك الاناشيد فالتزمت في نظمها ان اذكر اسمي كاملا في كل قطعة منها وانتصرت بها انتصارا اعظم من انتصار القتال اذ اوشكت المناوشة كلها ان تنحصر في الاستماع الى قصائد الفخر والحماسة بغير قتال .

هذه القصة التي يرويها العقاد .. فيذكر فيها ان تفضيله للعبة الجيوش تخفي وراءها اكثر من دلالة فهو حين يختار من الوان اللعب .. فانه يختار اللعبة التي فيها قتال ومعارك ، كر وفر ، هجوم وانسحاب وهكذا .

وهو حين يكون في هذه المعارك فان مركزه هو مركز القائد الذي يدير هذه المعارك ويقودها من نصر الى نصر .

وهو حين يستخدم السلاح .. فان السلاح المشروع بالنسبة لـه ، او المتاح هو سلاح الكلمة سواء تلك التي يطلبها من شاعر الربابة او التي يقوم هو بصياغتها في صورة اناشيد يعتز بها ويحاول جاهدا نسبتها اليه حين يشملها اسمه .. حتى يؤكد انتسابها له .

فلو ان انسانا تابع الطفل عباس العقاد في هذه اللعبة لتنبأ له بنفس المستقبل الذي وصل اليه العقاد بعد ذلك . الكاتب الجبار الذي يقود المعارك السياسية او الادبية او الفكرية .

نصاحب العقاد في سيرته لنجده يقول في موضع آخر : « ومما يحضرني من ذكرياتي فيما دون العاشرة انني رفضت كل الرفض ان البس البنطلون القصير يوم دخلت المدرسة في نحو السابعة من عمري وانني رفضت اشد الرفض ان اجيب نداء المعلم حين دعاني باسم عباس حلمي جريا على تقاليد ذلك العهد التي بقيت الى الآن في اسماء المعاصرين . فلم يكن احد من التلاميذ يدعى باسم ابيه ولكنهم كانوا يلقبون بالقاب حلمي وصبري ولطفي وحسني وشكري وماشاكلها على حسب المطابقة لاسماء المشهورين او الموافقة لجرس اللقب ورنينه في الاسماع فبقيت واحدا من قليلين يذكرون باسماء آبائهم بين ابناء الجيل . ولولا اصراري على رفض اللقب المستعار لكان اسمي اليوم عباس حلمي محمود ..

وفي هذه العبارة ما فيها من دلالات فالطفل الذي كان عمره دون العاشرة لا يقبل ان يلبس البنطلون القصير كما يفعل اترابه في المدرسة .. فهو يرى نفسه اكبر من هذه السن ويرى نفسه ايضا متميزا عن غيره من الاطفال بالنضج الذي لا يتماشى معه البنطلون القصير .. لا يهم ان يكون مظهره شاذا بين اترابه ما دام هو مقتنعا بذلك المظهر اقتناعا كاملا ومن هذه القصة يتنبأ له من كان يراه في هذه السن بمستقبل غير عادي .

ونفس العبارة ايضا تحمل سمة من سمات العقاد التي عرفناها بعد ذلك هي سمة التمرد والثورة .. فهو لا يقبل ان ينتسب الى الخديوي .. ويفضل بل ويفخر بأنه كان هو الوحيد الذي نسب الى ابيه وفي كتاب آخر يؤكد انه ما سمي بهذا الاسم تيمنا باسم الخديوي ولكن تيمنا باسم واحد من آل الرسول ويؤكد ذلك ان بقية اسماء اخوته كانت تيمنا باسماء آل النبي عليه الصلاة والسلام .

والعقاد الجاد الصارم الذي لا يفضل المزاح كما عرفناه .. نراه ايضا

هكذا في طفولته • لا يدخل في معرض فيه مزاح ولا يفضل سلوكا من اترابه يشتم فيه مزاحا وهو يذكر ذلك صراحة في سيرته عندما يقول : والى اليـوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا في الاسرة كلمة الامهات التي كـن يرددنها لاطفالهـن كلما اصابهم ما يسوءهم من التورط في المزاح معي وراء الحـد الـذي اسيغه فاذا ذهبوا الى امهاتهم يشكون ما اصابهم كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب : « امزح مع من شئت يا بني •• ولكن كل الناس ولا عباس » •

ومثال آخر نجده في الجد والوقار يرويه لنا العقاد في كتابه «انا» حين كان صبيا فيما دون الثامنة من عمره ويسلك سلوك الاطفال حين يجلسـون في المنزل بين القريبات والجارات من النساء فكان والده يصيح بـه غاضبـا ويقول ما يذكره العقاد في كتابه «انا» حيث يقول على لسان ابيه : « عباس •• ماذا تصنع هنا بين النساء ؟ تعال معي فاجلس بين امثالك • يتساءل العقاد قائلا : ومن هم امثالي ؟ شيوخ فيما بين الاربعين والسبعين كانوا يسـمرون معه في المندرة ويقضون الوقت في احاديث الشيوخ عن السياسـة تارة وعـن قضايا الاسر الكبيرة تارة اخرى • وقلما يمزحون او يتفكهون الا ثابوا الـى وقارهم كالمعتذرين وكانت السهرة تنقضي على احسن حال اذا حضرها شيـخ متحذلق معلوم فيه بعض الغفلة •• فيناوشونه بالاسئلة المحرجـة والدعابـات المتناقضة •• ثم يعودون الى ما كانوا فيه •

ويقدم العقاد دلالة هذه القصة بالنسبة لتكوين شخصيته بعد ذلك حيث يذكر ان هذه الجلسات التي كان يدعوه اليها والده كان لها كل الفائدة حيث جعلته يأتي من التوقر قبل سن الوقار • وهو ما نلمحه بعد ذلك في اسلوبـه وسلوك حياته الجدية والوقار وهو ما يستشعره ايضا في مواقفه •

وعن ابيه ورث العقاد مالا لا يغنيه ولكنه استفاد منه ما لا يقدر بمال•• كان والد العقاد يحتقر المال حيث يطلب بما يسوء في الضمير او يسيء الى الانسان فهو غير مستعد ان يبيع هذا الضمير بأي مبلغ من المال ولا ان يستبيح لنفسه القيام بعمل لا يرضاه في مقابل اي مبلغ من المال ولا يسيغ لنفسه سلوكا يرى فيه امتهانا لهذه النفس ويكون المقابل هو المال •• ان هذا الرجل المتواضع

الحال .. يحتقر المال الذي يأتي عن غير الطريق المشروع .. والعقاد يقــول عنه : ومن تقديراته في احتقار المال الذي يكسب عن طريق الاساءة الى النــاس انه زجر اخي الكبير زجرا شديدا حين علم انــه ينــوي التبليغ عـــن بعض المتهمين في قضية جعلت للمبلغ فيها مكافأة قدرها خمسون جنيها او مائــة لا اذكر على التحقيق .

كذلك ورث العقاد عن ابيه الاعتزاز بالكرامة ويقول عن ابيه في هــذا الصدد : ولم يكــن يغضب لشيء كما يغضب لكرامته وسمعــة اسمه ومن ذاك انه كان له حمار ينتقل عليه من قرية الى قرية حين كان معاونا للادارة . فلمــا استقر بالمدينة باعه لبعض المكارين وكان الحمار مشهورا بالسرعة وهــدوء الحركة . فكان المستأجرون يطلبونه ويقولون للمكاري هات حمار العقــاد ثم اختصروا كعادتهم فأصبحوا يطلبونه فيقولون هات العقاد ــ هات العقــاد .. فلما سمع بذلك عاد فاشتراه وقبل المغالاة في ثمنه على غير حاجة اليه واستبقاه يعلفه ويتحمل ضجته حتى اشتراه من ينقله الى قرية بعيدة لا يستخدمه فيهــا بالكراء » . فلا عجب اذا رأينا في العقاد ما كان يتسم به من الجديــة والكرامة تلك التي نلمحها في معاركه ومواقفه .

وعن والدته ورث العقاد حب الصمت والاعتكاف وكان الناس يحسبون هذا الصمت والاعتكاف عن كبرياء ورثته هي عن ابيها وكانوا يقولون انهــا نفخة اتراك .

ويؤكد العقاد في سيرة حياته بانها لم تكن نفخة اتراك كما توهم البعض .. بل كانت طبيعة تورث وخلقة بغير تكلف، وكثيرا ما كان العقاد يدفع عن نفسه تهمة التكبر بأنه ليس كذلك .. انه مطبوع على العزلة والانطواء على النفس في احسن الاحوال واسوئها على السواء . ولا حيلة له في ذلك لان اسبابــه عميقة يرجع بعضها الى الوراثة . وبعضها الى الطفولة الباكرة وبعضها الــى تجارب الدنيا التي لا تنسى ..

كذلك ورث عن هذه الام قوة الايمان وقد خاض اعنف المعارك وليــس

له من سلاح الا قوة ايمانه ويرى ان هذا السلاح ان توافر فهـو من اخطـر اسلحة النصر في المعارك •• سوف نرى كم من المعارك تلك التي دخلها العقاد فيها خصومه اكثر منه قوة واعظم تأثيرا •• ومـع ذلك لـم يتهيب ولـم يخش شيئا وانما دخلها بقوة ايمانه وبصدق عزيمته •

ولا تقل استفادة العقاد من اساتذته عن استفادته من والديه •• في بناء شخصيته على النحو الذي نراه •• وفي مقدمة هؤلاء الاساتذة اثنـان احدهما افاده وهو قاصد والآخر افاده عن غير قصد •

يذكر لنا ان الذي افاده بقصد هو الشيخ محمـد فخرالديـن ، الـذي استحدث اسلوبا جديدا في كتابة الانشاء بعد ان كانت صيغا محفوظة كخطب المنابر وكتب الدواوين ، فكان الشيخ يبغض الصيغ المحفوظـة ويمنح احسن الدرجات لصاحب الموضوع المبتكر واقل الدرجات لصاحب الموضوع المقتبس من نماذج الكتب ، وان كان هذا ابلغ من ذاك وافضل منه في لفظه ومعناه •

ويذكر العقاد في معرض الحديث عن تأثير استاذه الشيخ محمد فخـر الدين مجالا آخر من التأثير حيث يقول : « وكان درسه في التاريخ درسا في الوطنية •• فعرفنا تاريخ مصر ونحن احوج ما نكون الى شعـور الغيرة علـى الوطن والاعتزاز بتاريخه لان سلطان الاحتلال الاجنبي كان قد بلغ يومئـذ غاية مداه » ••

واما الاستاذ الآخر والذي لم يذكر العقاد اسمه في مذكراته فهو استاذ الرياضة والذي افاده عن غير قصد •• وذلك حيـن سمـع احـد الاوليـاء الصالحين ينصح العقاد بالاهتمام باللغة الانكليزية عندئذ ذكر الاستاذ تلميذه العقاد بنصيحة هذا الرجل الصالح : « تذكر نصيحة الشيخ يا فلان » •

ودرس آخر استفاده العقاد من استاذ آخر قصته انه قد عرضت فـي بعض الحصص مسألة حسابية عجز الاستاذ عن حلها خلال وقت الحصـة • فحاول العقاد حلها في البيت الى ان نجح في ذلك وعاد في اليوم التالي ليخبر

استاذه بأنه قد حلها .. وكان رد الاستاذ عليه : لقد اضعت وقتك على غير طائل لانها مسألة لن تعرض لكم في امتحان ، ويعلق العقاد على ذلك قائلا : « كانت هذه صدفة خليقة ان تكسرني كسرا لو ان اجتهادي كان محل شك عندي او عند الاستاذ او عند الزملاء . اما وهو حقيقة لا شك فيها . فان الصدمة لم تكسرني بل نفعتني اكبر نفع حمدته في حياتي .. وصح قول نيتشه ان الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه ايا كان القائلون . ولم احفل بعدها بانكار زميل او رئيس » .

كذلك لمسقط رأسه اسوان كبير الاثر بالنسبة لاتجاهاته بعد ذلك .. فبلدة الشلال الذي يزأر زئير الاسود ، وبلدة الجرانيت والصخور الصلدة واحجار الطواحين ، وبلدة الشمس الساطعة التي تملأ الارض بضوئها وكأنما تريد ان تمزق حجب الظلام .. هذه البلدة الجاثمة في صورتها العتيقة بتقاليدها المحافظة في قيمها التي توارثها اهلها على مدى الاجيال والقرون والدهور . وعلى قيد خطوات منها فندقها الذي ينزل فيه اشتات من البشر والسياح .. والذي يكتظ باحدث مظاهر الحضارة الغربية وكل ما يرتبط بها من ادوات الترفيه الحديثة .. لا بد وان يكون لهذه البلدة اثرها .. انه يذكرها في سيرته فيقول : « فاذا ذكرت اسوان بلدتي جاز لي ان اذكرها فأقول مدرستي . لانني كما اسلفت ادين بالانسانية في الادب ، وبالعالمية في السياسة ، وبالوطن الذي تتسع له افاق الفكر وافاق الشعور .. ولعلي قد تنفست هذه الدروس من هواء الموطن قبل ان اقبسها من صفحات كتاب .

ومن صفاته التي يذكرها في سيرة حياته نستشعر مواقفه من الاشياء والناس فهو يقول : « انني لا أزعم انني مفرط في التواضع .. ولكنني اعلم علم اليقين انني لم اعامل انسانا قط معاملة صغير او حقير الا ان يكون ذلك جزاء له على سوء أدب » .

ويقول ايضا : واعلم علم اليقين انني امقت الغطرسة على خلق الله . ولهذا احارب كل دكتاتور بما استطيع ولو لم تكن بيني وبينه صلة مكان او زمان كما حاربت هتلر ونابليون واخرين ..

وانا لا ازعم انني مفرط في الرقة واللين ولكنني اعلم علم اليقين انني اجازف بحياتي ولا اصبر على منظر مؤلم او على شيكاية ضعيف .

ثم يفسر لنا معنى رفضه للنفاق والتملق والتمثيل وتدميع العيون .. هذا الرفض الذي عده الناس منه كبرياء غير مطلوبة فيقول : « واعلم ان الرحمة المفرطة باب من ابواب العذاب في حياتي منذ النشأة الاولى . واعلم ما اعلم عن تلك العواطف التي يتحدث بها الفضوليون ولا يعرفون منها غير التصنع والتمثيل وتدميع العيون وتبليل المناديل ثم اسمع جبلا من هذه الجبال البشرية يذكر الرحمة وما اليها كأنها حلية لا يزين الله بها الا امثاله . ولا يعطل الله منها الا امثال عباس العقاد .. فماذا يكون حكمي بعد هذا على آراء الناس في الناس ؟

لن يكون الا قلة اعتداد برأي من الآراء يحسبونها الكبرياء وليست هي الكبرياء ولكنها موقف من لا يبالي ان يعتقد من يشاء ما يشاء .

ويستطرد العقاد في توضيح هذا الموقف وعلاقته بعمله كأديب فيقول : « الا ان الناس معذورون بعض العذر في شبهة الكبرياء هذه ، وان كانوا لا يطالبون انفسهم بأقل مجهود في تصحيح هذه الشبهات . فقد اراد الله — وله الحمد — ان يخلقني على الرغم مني متحديا — تحديا خصوصيا — لكل تقليد من التقاليد السخيفة التي كانت ولا تزال شائعة في البلاد المصرية والبلاد الشرقية على العموم . انا اطلب الكرامة من طريق الادب والثقافة واعتبر الادب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها ان يصان شرفه بين اعلى الطبقات الاجتماعية بل بين ارفع المقامات الانسانية بغير استثناء .. افي ذلك عار ؟ افي ذلك موجب للحقد والضغينة » .

ويرد العقاد على تساؤله بالقول : « كلا .. بل فيه مأثرة وفيه فضل جديد على عالم الادب في هذا الشرق المسكين الذي كان ادباؤه لا يرتفعون عن منزلة المضحكين والندماء المهرجين على موائد الاغنياء والرؤساء . فاذا ارتفعوا عن هذه المنزلة قليلا او كثيرا فهم لا يرتفعون بفضل الادب والفن بل

بفضل وظيفة يعتصمون بها او شهادة علمية ينتحلون سمعتها او ثروة يحسبون من اهلها ثم يحترمون لاجلها على الرغم من كونهم كتابا وشعراء •

ومن صفات العقاد انه يرفض التوسط في الامور وفي الاحكام •• حتى في المشاعر الانسانية • وهو يعلن ذلك صراحة حيث يقول : « انني لا اميل الى التوسط في الصداقة ولا في العداوة فلا اعرف انسانا نصفه صديق ونصفه عدو وانما اعرفه صديقا مائة في المائة او عدوا مائة في المائة ولا تهمني مع ذلك عداوته اذا حفظها لنفسه ، ولكنه اذا تعقبني بها وابى الا ان يكشف عنها فهي الحرب التي لا توسط فيها اما كاسرا واما مكسورا » ••

ويشير العقاد الى خصلة تلازم كل فنان او اديب يعمل في مهنة التعبير وهي خصلة الظنون ويبررها قائلا : ومن هذه الصفات ان الظنون عندي قوية السلطان وعلة ذلك عندي معالجة التفكير المنطقي في كل شيء فليس اسهل في المنطق من فتح ابواب الاحتمالات ، اما اغلاقها — او الجزم بنفيها — فلا يكون الا ببرهان قاطع •• والبراهين القاطعة قليلة ••

ويربط العقاد موقفه من التجديد والمحافظة بأنهما يلتقيان في معظم الامور بنشأته في اسوان •• تلك المدينة التي تجمع بين القديم الموروث والحديث المأمول ولذلك نجد مواقف العقاد في هذا الجانب بالذات •• جانب التجديد والمحافظة يميل الى التقدم الذي تطمح اليه الحياة المعاصرة • والاصالة التي تطلبه طبيعة نفوسنا واحوالنا •

ومن صفات العقاد البارزة •• والتي تفسر مواقفه الكثيرة صفة قد لا يتنبه اليها الناس ولا يعرفونها حق المعرفة وهي صفة التسامح •• وهي تقابل صفته الاخرى التي يعرفها كل الناس وهي صفة الاقتحام والعدوان • انه يقول « ومن صفاتي التي لا يعرفها الناس انني اذا عوملت بالتسامح لا أبدأ بالعدوان ابدا • واذا هاجمني احد فلا ارحمه وقد قالت سارة عني ذات مرة ان من يظهر طرف السلاح للعقاد يا قاتل يا مقتول » ••

وصفات العقاد هذه تبرز لنا مواقفه وتفسرها في نفس الوقت فهو مقتحم

دائما مقاتل ابدا • امرا يجعل من يفسر هذا الجانب من شخصيته فيصفه بأنه دائما في دائرة للخطر اختارها لنفسه واختارته دون سائر البشر •• فهـا هو واحد من اصدقائه ومؤرخي حياته وهو محمد خليفة التونسي يقول عنـه : « هكذا عاش العقاد على شفا خطر الشهادة طوال حياته ومن تتبـع سيرته لـم يعدم كثيرا ان يرى الدم الذي اوشك ان يسفك مستطالا عليـه او مستطيلا ، ولقد نجا منه دائما ولكنه ـ نجا او لم ينج ـ على موعد دائم مع الشهادة لان له طبيعة الشهيد وشعوره وسيرته ونظرته » ••

ويقول التونسي ايضا عن العقاد في موضـع آخر مـن دراسته هذه : والحرب لا تؤرق الفتى كما تؤرق غيره من الجبناء والشجعان وانما القلـق والتردد قبلها •• اتجب ام لا تجب ؟ ولا التفات لنصر او خذلان ولا ناصر او خاذل • فاذا وجبت فقد استقرت النفس على المكروه وفرشت منه ونامت بملء عيونها وقلبها يقظ على مثل الفراش الوثير ولذلك لا تعدم منهـا الابتسـام والسكينة والمرح في اشد اوقات الخطر • وهذه هـي شجاعـة الفتيان خاصة وليس شجاعة كل شجاع • وهكذا يكون العقاد والاخطار مطبقة عليه : يضحك وينكت وينام قريرا لان الازمة «رياضية» فليكن هو الغالب او المغلوب وهكذا رأيناه ، وبمثل هذا تحدثت سيدة ذكية مجربة عرفها سنين واطلعت على خفاياه في امثال هذه المواقف العامة والخاصة به فقالت ما مؤداه : « انـه لا يخيف وهو ثائر فاذا صمت فهو العزم المصمم على امر حاسم » كما انه يتحمـل كثيرا ـ لايثيره شيء كما يثيره التهديد وفي هذا تقول السيدة « انه يتحمل كثيرا من المضايقات فاذا بان له طرف السلاح فهو اما قاتل واما مقتول » ولو ان احدا من هواة المبارزة او محترفيها كبيرا كان او صغيرا في سنه او مقامه او كفايته ـ جاء يستشيرني ان يجرب حظه مع العقاد في مبارزة وان حبية لاجبته مشفقا عليه : « حذار يا صاح ورفقا بنفسك وان لم يكن عليك بأس في الهزيمة امامه فانك اذا دعوته الى المبارزة بادنى اشارة استجشت فيه غرامه بها كمـا يجيش قلب الطفل الصحيح للعب او النمو اذا دعي اليه فهش له وبش غراما باللعـب لا عـن حافز آخر واذا جد معك فهكذا شأن الحكماء والاطفال اذ يجدون فـي اللعب لانه لا يغري ولا يطيب بغير الجد فيه مع التزام اصوله وثق انك لـن تخطئك منه ضربة حبية اذا احسن بك ظنا ـ فان لم تكن الضربة بحد السيف

تكن بعرضه وان لم تصبك بجرح يسيل منه الدم تصبك بضربة تلهب الجلـــد فيبدو مكانها ازرق من اثر انفجار دموي تحـت البشـرة واعلـم ان الرجل « ذو يمينين » فيسراه في الضرب كيمناه .

وهذا اذا لزمت الاصول في اللعب وهذه الاصول غريزية في شعور صاحبك فكره ويده . ولو لم يضعها الاصوليون المجربون للاعبين بل لو فقدنا كتبها المنطقية لوجدنا قواعد المنطق جميعا في رأسه . فاذا كنت تطمع في هزيمته معولا على الضربات الغشيمة التي تربك بعض الاصوليين فقد غرتك نفسك فيما رغبـت وطمعت . ولتعلم ان عنده لكل ضربة مثلها . لانه ليس من المنطق ان يلتـــزم مع غير المنطقي . وهبك تدرعت بما وسعك من شكة سابغـــة ، وفاجـــأتـه بضربة غشيمة وهو اعزل وانت في وقاية او خفاء . فاعلم علما ليس بالظن بـل هو عين اليقيـن انه سيقبض على سيفك ذاته ثم يرده وحيا من حيث خـرج اليه . والمعول في الضربة كمـا تعلم يا صاح ــ ليس على قوة السيف وحدها. بل على قوة اليد التي تضرب بـه . ومن قبلها على العين المتفرسة التي تتوخى المقاتل . واليد مصوبة نحوهـا بالضربة البارعـة القويـــة . ومـن هنـا تعرف سر بعض ضربات العقاد التي تبدو لك غشيمة وهي من وحـي البصيرة الملهمة الحكيمة . واما اذا لـم يجبك الى ما ترغب من مبادرته . فهو ومـا يراه مما يسوؤك وينوؤك . وانت يا صاح وما تشاء بعد ان ابلغت وبالغـت فـي نصحـك مخلصـا .

« والظلم بالظلم والبادىء اظلم » قاعدة لها استثناءان عند العقاد . وهما مع شذوذهمـا عنها في الظاهـر يطردان عنده في نسق مع طبيعـة الرحمـــة والسماحة والحياء والغيرة على الحرمات . واول الاستثناءين ان العقـــاد لا يشهـر سلاحـا في وجه صديق يشهـر سلاحه ضده لان حرمـة الصداقـة عنده عميقة القرار بالغـة الخطر كأنهـا حرمـة الحياة . والاستثناء الثـانـي انه لا يضرب الباغي عليه الا بسلاح نظيف مهمـا يصيبه منه . فان وجـد هذا السلاح وما اكثر اسلحته ــ فهو الفتى والا كـان السكوت اكرم ان لـم يكن اسلم . وهكذا يكون حياء الفتيان وغيرتهم على الحرمـــات . فمـــن اتقاهم بما يشين ولوا عنه مشمئزين ، واذا لـم يمكـن دفع باغ بغير فضيحـة

سكتوا عنه حياء . فالفتى «اخلاقي» بمعزل عن كل دين وقانون وعرف ولــــه شريعته الخاصة في معاملاتــه . فهــو لا يسيغ الا مــا يليق بحيــائه وسائــر خلائقه وان اساغه غيره ممن يستحيون ومن لا يستشعرون الحياء .

وهكذا كــان تفسير مواقف العقاد فهــو رجل مطبوع على خلق الجهاد والقتال والبأس والشجاعــة والنخوة والاستقامة والصراحــة وكلهـــا مــن سمــات رجل المواقف .

التفسير الفكري :

من متابعة المسار الفكري للعقاد .. منذ عرف طريقه الى القراءة .. حتى كون لنفسه موقفــا من الناس والاشياء نلمح التفسير الفكــري لمواقفـــه بعــد ذلــك .

لقد تفتحت كرامة الطفل البريئة على ثقافتين متغايرتين فــي آن واحــد : الثقافة العربية والثقافة الاوروبية وكانت النتيجــة بعد ذلــك هي افكار العقاد التي اعتبرت مزيجا قويا بين هاتين الثقافتين ، ثقافة الشرق وثقافة الغــرب وعصارة طيبة من حضارتين عظيمتين هما العربية والاوروبية .. حتى يصــدق عليه القول بأن اصولــه مــا برحت راسخــة في الثقافــة العربية تستخلص منها عناصر غذاء لا غنى عنه ، وفروعه ارتفعت فــي الثقافـــة الاوروبيــة تتنسم منها الهواء وتستمد النور .

وهذا الاحتكاك بين الثقافتين او الحضارتين الغربيــة بماديتها والعربيــة بروحانيتهــا نتــج عنه فكــر جديد .. هو نفس الفكر الذي لمحناه فـــي عشرينات وثلاثينات هذا القرن حيث بدأ العقاد في تقديم نظرياته الجديدة في الادب والنقــد والفكر بوجه عام .. وهــو مــا جعله يدخل المعـــارك ويتخذ المواقف .

ففي سيرته « أنا » يقص علينــا العقاد واقعتين عابرتيــن ولكنهمـــا لا تفتقران الى المعنى او الدلالة . ففي معرض الحديث عن تكوين اول مكتبة

خاصة به يقول : ولم يكن مصروفي يزيد على خمسة مليمات في اليوم الا ليدرك خمسة قروش في الاسبوع اتسلمها كل يوم خميس فلا اشتري بها مأكولا او فاكهة ولا اذهب بها الى ملعب البهلوان ان كان بالمدينة ملعب منها وهي لا تقيم فيها بل تزورها غبا بعد كل بضعة اشهر ..

فاذا كان معي ثمن الكتاب اشتريته لساعته والا اعطيت العطار قرشين بعد قرشين حتى يتم الثمن المطلوب .

وبهذه الطريقة قرأت العقد الفريد وثمرات الاوراق والمستطرف والكشكول ومقامات الحريري وبعض الدواوين ..

هذه واقعة .

والثانية يقصها علينا العقاد حيث يقول : « وساعدني من المصادفات التي لا تتيسر في كل حين . ان اسوان كانت يومئذ مرتادا لمئات السائحين كل شتاء. وكان فيها فندقان كبيران وفنادق اخرى دونهما في العظم والوجاهة تزدحم جميعا بالسائحين من اقطار العالم فتعودنا ان نرى فيها كل شتاء مكتبات عامرة بالمراجع التاريخية والقصص والصحف والمجلات الادبية والفكاهية ولم يكن من العسير علينا ان نحصل على بعضها بالثمن المستطاع بل كان يتفق احيانا ان يزور مدرستنا اناس من علية السائحين ومعهم ابناؤهم وبناتهم يطلبون عنواناتنا لتبادل الرسائل ويبعثون الينا بالهدايا من الكتب التي تعجبهم ويقدرون انها تعجبنا . ولا انسى أحد السائحين وكان انجليزيا مسلما . يسمى ماجور فيكسون ــ يوم جاءني منه بعد عودته الى بلاده كتابان : احدهما ترجمة القرآن والآخر كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية وهو الوحيد الذي اختار لي هذا الاختيار ولا ازال اذكره كلما توسعت في القراءة فعلمت انها تقوم في الاغلب الاعم على هذين القطبين من المطالعة : اصول العقائد وفلسفة الثورات الاجتماعية من وجهة البطولة والابطال .

من هاتين الواقعتين او القصتين نلمح البدايات الفكرية للعقاد ، او

نستشعر المكونات الفكرية له .. المكونات العربية كالعقد الفريد ومقامات الحريري .. والمكونات الاوروبية الثورة كالفرنسية لكارليل وترجمة القرآن الكريم .. ومن هنا يمكن القول بأن العقاد قد فتح عينيه مبكرا على ثقافتين متغايرتين مختلفتين كل الاختلاف ولكنه استطاع ان يتحكم فيهما بعد ذلك .. على النحو الذي رأيناه مفكرا يستطيع ان يواجه اعنف النظريات واخطرها بغير تهيب .

ومن هنا ايضا استطاع العقاد معالجة بعض المشكلات المتصلة بالمقارنات بين فكر الشرق وفكر الغرب : ابطاله وزعمائه وسياسييه دون وجل.

ومن هنا ايضا استطاع العقاد وضع أعلام العرب في مصاف اعلام الغرب . ولم يجد اي حرج في الموازنة بين حضارة الاسلام وحضارة الغرب او بين فلاسفة الشرق وكتابه وحكمائه وشعرائه وبين امثالهم في اوروبا . المتابع لمسار فكر العقاد (١) يؤكد انه قد وضع الخطوط الاولية لتقدير الحضارة العربية القديمة في كتابه عن اثر العرب في الحضارة الاوروبية .. لقد وضع الاصول لتقديرها على النحو الصحيح فقال : ان قوة التفكير تقاس بالقدرة على فهم ما يبتكره الآخرون كما تقاس بالقدرة على ابتكاره . فلا تتهم امة بالعجز عن التفكير اذا استطاعت ان تفهم مبتكرات الفكر في امة اخرى . وشعرت بالحاجة الى فهمها وخلقت لها جوا تروج فيه وتشغل به اذهان ابنائها وبخاصة اذا علمنا ان الابتكار المحصن لم يكتب قط لامة من الامم ولم يعهد قط في ثقافة قومية . انها محض ابتكار خلا من كل استعارة واقتباس . ونصب العقاد نفسه مدافعا عن كل ما يمس فكر العرب وحضارتهم ولو لم يكتسب العقاد طبيعته في التشييع من العمل في الدعاية الحزبية والصحافة الوطنية لما استطاع ان يؤازر حركات الثقافة العربية بهذه الجرأة والحماسة النادرتين . واستفاد من قدرته المنطقية على التحليل والتفنيد والتأييد في مساندة المواقف الخاصة بحضارة العرب وفلسفتهم وعلومهم ونهضتهم وتقدمهم .

---

(١) راجع عبقرية العقاد ـ الدكتور عبد الفتاح الديدي

وكان هذا الموقف مع مؤازرة الفكر العربي ومظاهره هو مصدر الشموخ والعظمة في اسلوب العقاد وحرارته في الكتابة والتعبير .

وفي نفس الوقت شرح العقاد ملامح الفكر الاوروبي الحديث دون ان يخدع به كما حدث لبعض مفكرينا . ولم ينبهر بحضارة اوروبا ولم تفارق قلبه حرارة الايمان بالشرق وبالعروبة وتراث العرب الخالد .

كان يؤمن بالفكر العربي ولكنه في نفس الوقت لم ينظر في استخفاف الى معالم الفكر الاوروبي . وكان يحمد الله على ان عقله لم يفسد تحت تأثير الدراسات الاكاديمية المنظمة . يحمد الله على ان عقله تحرر من هذه الدراسات التقليدية التي ربما كانت تقيده في اتخاذ المواقف التي يمليها عليه ضميره وثقافته الذاتية .

لم يتهيب مثلا من مناقشة اية فكرة تصدر عن اعلم علماء اوروبا .. تعرض لجوانب كثيرة من فلسفات اوروبا الحديثة والمعاصرة . وقرر بعد الفحص والدراسة والبحث ان هذه الفلسفات تحمل بذور الالم ، وساوس الخوف ، وملامح الحزن والتشاؤم . فعارض جوانبها الانهزامية وابرز ما فيها من مواقف الجدية والسمو ولم يعرف اي تردد او حيرة امام مذهب من المذاهب مهما تعقد او خرج على المألوف . وناقش المفكرين والفلاسفة في اوروبا مناقشة جادة تحمل طابع التفكير الذاتي المحض الذي يتجرد من ذلك الجلال الذي تسبغه الجامعات في بعض الاحيان على علوم الغرب وعلمائه .

وهكذا لم يهمل مقومات الفكر العربي ولم يصم اذنيه عن الفكر الاوروبي . فمن الاول استقى الاصالة والعمق ومن الثاني استفاد النهج والاسلوب .. ومن الاثنين معا استخلص جذور مواقفه الفكرية واكتسب طريقة الاتزان وفحص الامور على نحو تحليلي ينفذ الى قرارات المبادىء الاولية .

تأتي بعد ذلك .. بعد الانتباه الى الثقافتين العربية والاوروبية ..

النظرة المتأنيــة الى افكــار شخصيات كــان لهـا اكبر التاثير فــي فكــر العقاد • وفي مقدمة هذه الشخصيات ثلاثة هم الشيخ محمد عبــده وعبدالله النديم ومحمد فريد وجدي •

الشيخ محمد عبده له كبير الاثر في توجيه حياة العقاد على النحو الذي رأينــاه بعــد ذلــك والعقاد نفسه لا يدخــر وسعا في اعــلان ذلك صراحة ففي كتابه عن الشيخ الامــام محمد عبده يذكــر ذلك • ويكــرره ايضــا في مقالاته المتناثرة في بقية كتبه ، ويؤكــد في سيرة حياتــه « انا » حيــث يذكــر ان الشيخ الامــام اعظم رجــل ظهر في مصر ومــا جاورهــا منــذ خمسة قــرون •

وان الشيخ اثر في نفسه اقوى الاثار •

وان الشيخ قد اعجب بــه لاول مرة حين سمع بذكره في مجلس الاستاذ الجداوي • وكان محبوبا في اسوان علــى الرغم من الضجة التي شنها عليه حساده والجاهلون بفضله •

ويذكر العقاد في مذكراته سبب اعجاب الناس بالشيخ •• لانه توسط في قضية متشعبة الاطراف شغلت المدينة والاقليم كله اكثر من عشر سنوات حتى سماها ظرفاء المدينة قضية دريفوس •• وكان احد الطرفين فيها رجــلا ثريا مفرط الذكاء ، شديد العناد خبيرا بحيل المقاضــاة واساليــب المراوغــة والتأجيــل واعادة النظر واهمال التنفيذ • وكان الطرف الآخر رجلا مــن المهاجريــن الى السودان الذيــن عادوا الى وطنهم مفتقرين بعد الثورة المهدية• فلما بحث عن بيوته وأمواله وجدهــا فــي يدي ذلــك الثري العنيــد ولــم يجد معه دليلا حاضرا يعينه علــى المقاضاة • ولــولا العــداوة بيــن ذلــك الثري الذكي العنيد ، وبين اسرة اخرى في المدينة •• لما استطاع الاتفاق علــى القضية سنة واحدة •

ومــع هــذا عــز علــى الاسرة القــويــة اثبــات حقــه • واوشكــت القضيــة ان تنقلــب عليــه لــولا ان هداه نائب اسوان في مجلس الشورى الى الشيخ محمد عبده فقص عليه قصته واستفز نخوته • فتولــى القضيــة بنفسه وخاطب فيهــا سعد زغلول

بعد ان تحولت اليه فحكم فيها حكما فاضلا هز الاقليم بأسره وتحدث به الكبار والصغار في كل مجلس وفي كل قرية . وغلبت هذه الحسنة التي تكلل بها اسم الشيخ محمد عبده في اسوان على كل تهمة باطلة من تهم الحساد الذين افتروا عليه الزندقة والالحاد .

والعقاد يؤكد تأثره بالشيخ الامام حيث يقول تعليقا على هذه القصة : ومن حظي الحسن انني سمعت به في تلك الايام فراقني ان اقتدي به في غيرته على الحق ، ونجدته للضعيف وقلة اكتراثه للقيل والقال واطلعت على معظم ما كتب في شؤون الدين والدنيا ولكنني اعجبت بخلقه فوق اعجابي بعلمه . فان الاقتداء بخلقه نافع لكل انسان كائنا ما كان مذهبه في الدراسة والتفكير . ولكن العلوم والمعارف تتعدد بين فريق وفريق من الناس فلا ينتفع المرء الا بمن يماثله في معارفه وعلومه .

وانا مدين بخطتي في السياسة الوطنية لاعجابي بالشيخ محمد عبده ومريديه .

فاعجابي به هو الذي اعظم في نفسي الثقة بسعد زغلول يوم كان الفتيان من عمري كلهم انصارا لمصطفى كامل وعبد العزيز جاويش . واتباعا لهما في الحملة على سعد زغلول .

ولما اشتدت هذه الحملة ذهبت الى سعد في ديوان المعارف لاستطلع رأيه واسمع حجته على حضور . وقلت في خطابي انني اثق به لانني اثق باستاذه ودخلت المكتب فاستقبلني واقفا واشار الى كرسي امامه فجلس وجلست وسألني : اعرفت الشيخ محمد عبده ؟ قلت نعم قرأت رسائله وتفسيراته وترجمة حياته . قال : أين ؟ افي الازهر ؟ قلت : لا .. بل في اسوان قدمني اليه استاذي فناقشني في علومي المدرسية وبعض الآراء العامة ثم سمعت منه بشرى طيبة قال : ماذا سمعت منه ؟ قلت : التفت الى الاستاذ وقال وهو يربت على كتفي : ما اجدر هذا ان يكون كاتبا بعد .

فتبسم الباشا وقال : ارى ان نبوءة الامام تتحقق واستطرد الى كلام

عن الشيخ يثني عليه .. ويختم العقاد حديثه في مذكراته عن الشيخ الامام بهذه الجملة : « وهكذا ترتسم لنا في بواكير الصبا مناهج السياسة التي نقاد بها ونقود بها غيرنا مدى الحياة » ..

في هذا الحديث الذي دار بين العقاد وسعد زغلول حول الشيخ محمد عبده نلمح مدى تأثير الشيخ الامام على تفكير العقاد السياسي والعقائدي في نفس الوقت .

يأتي عبدالله النديم في المحل التالي ممن وجهوا تفكير العقاد وذلك من خلال مجلة « الاستاذ » التي وقع عليها نظر العقاد وشدت انتباهه بعناوينها التي فاقت غيرها من المجلات الاخرى الموجودة في بيتهم بأسوان ونقرأ العقاد في مذكراته « حياة قلم » حيث يقول عن النديم : ولفتتني العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف ووجدتني ذات يوم اقطع الورق قطعا على قدر المجلة واعمد الى مكان العنوان منها فاكتبه بخطي متأنقا واعارض عنوان (الاستاذ) بعنوان (التلميذ) اما المقالة الافتتاحية فقد كانت ايضا من قبيل المعارضة لمقالة من اشهر المقالات التي تردد صداها زمنا في البيئات المصرية وهي المقالة التي جعل عنوانها (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) وافتتح بها الجزء الثاني والعشرين من السنة الاولى .

فكتبت مقالي الافتتاحي وجعلت عنوانه (لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم)

وكان فحوى مقال النديم اننا نطلب الاستقلال وندعي اننا والاوروبيين اشباه وامثال . ولكن الاوروبيين ينكرون هذه الدعوى ، ولا يكلفون انفسهم غير دليل واحد يثبتون به الفارق البعيد بيننا وبينهم . فاذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا : تلك دعواكم ولو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا .

واستغرقت مقالة النديم اكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله : ان آخر الدواء الكي وقد بلغ السيل الزبى فان رفأنا هذا الخرق وشددنا ازر بعضنا .. امكننا ان نقول لاوروبا نحن وانتم أنتم .. وان بقينا على

هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالاجانب فريقـــا بعـــد فريق حق لاوروبا ان تطردنـــا من بلادنـــا الى رؤوس الجبال • لتلحقنـــا بالبهيم الوحشي وتصدق فـــي قولهـــا لو كنتم مثلنـــا لفعلتم فعلنـــا ••

ويقول العقاد : وتناولت في مقالي فقرات النديم واحدة واحدة بردود لا اذكرها الآن • ولكني اذكـــر منها ما يدل عليه العنـــوان وفحـــواه اننـــا نحـــن الشرقيين لو كنـــا مثلكم ايهـــا الغربيـــون فاتحيـــن منتصريـــن لمـــا فعلنـــا فعلكم من نهب الاموال واستباحة الحقوق وافتراء الاكاذيب والتعلل بالمواعيـــد ولكننا لسنا مثلكم ولا نريـــد ان نفعل فعلكم ، وسترون فعلنـــا عما قريـــب •

ثم اصدرت من صحيفـــة التلميذ المخطوطة بضعة اعداد • لم يكن لهـــا من قراء غير زملائي فـــي المدرســـة واقاربي المشجعين او المتندرين المتفكهين• ولم يكـــن لهـــا من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراهـــا مستحقـــة لهـــذا الثمن ••

الى ان يقول مؤكـــدا تأثره بالنديم : ولهذا ارجع ظواهر كثيرة صاحبت نشأتـــي الصحفيـــة فـــلا استطيع ان اقول انني على الجملة من تلاميذ مدرسة النديم ، وان كـــان النديم اول مـــن الفتني الى العمل فـــي الصحافة ، وكانت مطالعته اول مطالعـــة وجهتني الى هذه الصناعـــة •

لا بل هنالـــك مشابهات عديدة بين النديم وبيني • لا ادري هل جاءت من وحي القدوة الخفيـــة او جاءت مصادفـــة بغير قصد مني ولا من أحد •

فقـــد تعلمت صناعـــة التلغـــراف كمـــا تعلمهـــا النديـــم واشتغلت بالتعليم في مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ، وجربت الاستخفاء على الطريقة البوليسية اكثر من مرة في ابان الحرب العالميـــة الاولـــى وكذلك فعل النديم عند مطاردته فـــي اعقاب الثورة العرابية •

ولكنني مع هذه المشابهات لم اشعـــر من قبل ولا اشعر الآن بأن الرجل

قدوتي المختارة بين امثلة النبوغ التي اتمناهـــا او بين الشخصيات المثاليـة التي اجلها واحب ان انتمي اليهـا • وأحسب ان المرجع في هـذا الاختـلاف الى سببين احدهمـا يرجع الى الاحـوال العامة والاخـر يرجـع الى المزاج الشخصـي الذي فطرت عليـه •

يبقي الاستاذ محمـد فريد وجدي من الثلاثة الذيـن اثروا في فكـر العقـاد المبكـر •

فقد اصدر صحيفة الدستور •• وكانت اول صحيفة يومية يعمـــل بها العقاد • ويصف لنـا عمله بهـذه الصحيفـة في مذكراته فيقول : ولا اقول انه كـان عمل ضرورة ولا اقول كذلـك انـه كـان عمل اختيار •

ولكنه كـان ضرورة مختارة بين ضرورات اذا صح هذا التعبير وابادر فأقول انه صحيح غايـة الصحـة لاننـا في اعمالنـا التي نعدهـا من معالم حياتنـا لا نستطيع ان نقول عـن عمل واحـد انـه كله اختيار او انه كلـه اضطـرار •

لهذا التحق العقـاد بصحيفـة الدستور فلم يكـن محمد فريد وجدي اسما غريبـا عليه ولا عـن قراء ذلـك الجيل من طلاب الثقافـة الاسلامية الجادة • فقد كـانت له كتابات ضافيـة يرد بهـا على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الاسلام وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الديـن وثقافـة العصر لهذا اتفق معه العقـاد منذ اول لقاء واعلـن فيمـا بينه وبين نفسه ان اكبر خلاف بينـه وبيـن محمد فريد وجدي لـن يعوقـه عن العمل معه • على العكس من ذلك لقد احب محمـد فريـد وجـدي وعمل معه وتعلم منه وتأثر بشخصيته تأثرا عميقـا وظل يحفظ له الحب والود والوفاء الى آخر لحظات حياته • والوفاء فـي طبع العقـاد شيء سوى ما اصطـلح عليه الناس انـه شعور باطنـي دافق يجعله مقيدا بسلاسل وعهـود نحـو الشخص الذي يركز فيه هـذا الوفاء • ان الوفاء عنده صفـة الانسان العليا التي تميز وجوده وروحه من جميع المخلوقات وهي صفة تضفي على كلماته التي

يسجلهـا عن الشخص الذي يفي لـه معنى خفيـا فيه شاعريـة وفيه حنان وفيه تأثيـر باطني كامن وفيه مع ذلـك تماسك الفـن والحب والـود والسخاء وعبور التاريخ في لحظات كأنك مـع الشخص ذاته . خذ مثلا لذلك هذه الكلمـات البسيطـة التي سجلهـا في نهايـة مقالة عـن محمد فريد وجدي ضمـن كتابه رجال عرفتهم : « ولم ألق محمد فريد وجدي بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات وكنت قد برحت القاهرة الى اسوان ثم عدت الى القاهرة للعلاج من وعكة قطعتني عن العمل بضعة اشهر » .

في حديث من احاديث الرياضة على الاقدام : « كان لقائـي الاول لـه بعد عودتي الى القاهرة فاتني عرفت مسكنه بعد انتقاله اليه من مسكنه بدار الصحيفـة فقصدت اليه على أثر رياضـة في الخلاء وبيدي كتـاب مـن كتب الفلسفـة الاجتماعيـة فقال لـي وقـد نظـر في الكتاب ولمح على وجهي اعراض السقم وفـي مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء .

واذكر انني فاتحته باعتقادي قصر العمر وقلة الجدوى من الاستشفاء . فابتسم ابتسامته الابويـة وفتح الصفحة الاولـى من الكتاب وهو يقول لي: اكتب هنـا .. ثم املى علي كلاما فحواه انتـي سأعود الـى هذه الاسطـر وانا شيـخ معمر لكي اعرف انتـي كنت على خطأ كبيـر حين قدرت لنفسي نهايـة العمر القصير .. رحم الله ذلـك القلب الطهور وذلـك الروح الكريم وذلـك الخلـق الفريـد .. »

ان يكن اليوم لا يذكـر حق ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن حق الخلود ولكنه يعيش في عزلة من دنيـا التاريخ كمـا عاش ايامه فـي عزلـة من دنيـا الحياة .

وينضج العقاد ثقافيـا .. وتتعمق نظرته فيمـا حوله . وما الذي كـان حوله ؟ لقـد كـان هنـاك اتجاهات وتيارات لا يستطيع ان يتجاهلها او يمر عليهـا مرورا عابرا .. بل لا بـد من الوقوف امامهـا طويـلا .. والاكثر التأثر بهـا من قريب او بعيد . ويرصـد رجاء النقاش هذه التيارات في كتابه

« العقاد بين اليمين واليسار » •

فيقول : « كـان هناك تيار يدعـو الى تجديد التراث العربي الاسلامي حتى يتلاءم مع روح القرن العشرين وحضـارة القرن العشريـن وكـان زعيم هذا التيار ومنبعه الاكبر هـو الشيخ محمد عبده •

كان محمد عبده يريد ان يخرج المصريين والمسلمين عمومـا من التخلف الحضاري الكبيـر ومن اليأس المر الذي كـان يسيطر عليهم نتيجـة لهـذا التخلف • فالانسان في مصر في ذلـك الحين لا يكـاد ينظـر الى نفسه نظرة سريعـة حتى يدرك على الفور مـا حل به من الدمار والانهيار • وحتى يدرك انه في مقياس الحضارة انسان مـن الدرجـة الثانيـة او الثالثة • وكان يكفي ان يقارن الانسان فـي مصر بيـن احوال امته واحوال الامة المسيطرة عليـه وهـي الامة الانجليزيـة حتـى يصل الى هـذا الشعور البائس الحزيـن وفي هـذا الميـدان الحضاري بالذات وقف محمـد عبده يشن حربـه ويخوض معركته الكبيرة ، انـه احـد زعمـاء الثورة العرابية واحد الذيـن شربوا مرارة الفشل الثوري واحـد الذيـن انتهوا في آخر الامر الى انـه لا بـد من خوض معارك جزئيـة مختلفـة مـا دامت الثورة الشاملـة قد فشلـت •

وكانت المعركة الجزئيـة التي اختارهـا محمد عبده هي ازالة التناقض الشكلي الذي اقامته الرجعيـة الفكريـة والدينيـة بين الاسلام والحضارة العصريـة فالاسلام لا يرفض في روحه او نصوصه مظاهر التقدم في الحضارة الحديثة وكان محمـد عبده يتحدث في ابسط الامور واعقدهـا معا فكان يتحدث عـن ان التماثيل والصور ليست حراما ما دامت تقوم بوظيفة كبرى هـي حفظ تقاليـد الناس وعاداتهم واذواقهم وكـان محمـد عبده يكتب في نفس الوقت الـى الفنـان والمفكر الروسي العظيم « تولستوي » والـذي تحول في اواخـر القـرن الماضي واوائل هذا القرن الى قديس يذيب نفسه دفاعا عـن المغلوبيـن والمظلوميـن وكـان محمـد عبده يراسلـه ليبارك دعوته الى العدل بين الناس وفي نفس الوقت كان محمد عبده يغذي الدعوة الى

تحرير المرأة وتعليمها حتى لقد نسب اليه اعداؤه الذين كانوا يحاربونه ويحملون عليه انه هو الذي الف كتابي قاسم امين المعروفين : « تحريـــــر المـــرأة» و « المرأة الجديدة » وانـه تخفى تحت اسم قاسم امين حرصا على مركـزه الدينـــــي •

وهكذا كـان محمد عبده في اوائل هذا القرن يخوض معركة جزئيـة ولكنهـا معركة كبيرة وكـان فـي هذه المعركـة يمثل تيارا مـن التيارات المدويـة التي بدأت تتحرك بعنف داخل المجتمـع في مصر وكان الهـــدف الاكبر من وراء هذا التيار هو تخليص الاسلام من الفهـم الرجعـي المتخلف الذي ينتهي به الى الوقوف في وجه الحضارة العصرية وبذلك تنحصر مصر ومن ورائهـا العالم العربي والاسلامي في حدود تخلف حضاري كبير بحجة واهية خاطئة هـي : ان الديـن الاسلامي يريـد ذلـك ويدعو اليه •

والتيار الثاني الذي كـان قائما في هذه الفترة ايضا كـان تيارا يمثلـه مصطفى كامل وهو تيار سياسي بالدرجـة الاولى •• لقد كان مصطفى كامـل يريد ان يمسح كل ما علق بقلب مصر مـن آثار اليأس بعد هزيمـة العرابيين •• نفس الهدف عند محمد عبده ولكن بأسلوب مختلف •

لقد كانت خطب مصطفى كامل نوعا من الشعر الرومانسـي الجميـل • موضوعه مدح مصر والتغني بعظمتهـا وجمالها • ولعل مصطفى كامل كـان يتصور انه من خلال هـذا الموقف سوف يعيـد الى قلوب المصريين عشقهم الكبير لبلادهم هذه المعشوقـة التي لا يجوز ان يسلوها احد او يتخلى عـن هواهـا انسـان •

وكان موقف مصطفى كامل من ناحية اخرى يعتمد على الربط بين مصر وتركيـا بهدف ضرب انجلترا في مصر والخلاص من سلطتهـا نهائيا • ولذلك اتجه مصطفى كامل الى السلطـان العثماني وجعل منه املا كبيرا في تحريـر مصر • وكان مصطفى كامل في نفس الوقت يعتمد على فرنسا ليدين انكلترا امام الرأي العام الاوروبي • وكان يساعده فـي هذا الامر العـــداء العنيف

الذي كان قائما بين انجلترا وفرنسا في ذلك الحين . وعندما حدث الاتفاق بين لندن وباريس سنة ١٩٠٤ وتضمن هذا الاتفاق اطلاق يد انجلترا في مصر ، واطلاق يد فرنسا في تونس والمغرب والجزائر .. في هذا العام انتهى التحالف بين فرنسا وبين الحركة الوطنية المصرية واصيب مصطفى كامل بخيبة أمل لم يتخلص منها مدى حياته التي استمرت مدة اربع سنوات مرة بعد هذا الاتفاق بين انجلترا وفرنسا .

ولكن مصطفى كامل ، على اي حال ، قاد تيارا عظيم الاهمية في مصر في بداية هذا القرن وهو التيار الوطني الاسلامي الذي يعتبر الرابطة الاسلامية رابطة سياسية تشد مصر الى تركيا .

وكان هناك تيار ثالث يمثله ابناء الاعيان من اصحاب الثروات وهؤلاء في معظمهم قد تعلموا في أوروبا وعادوا الى مصر يحملون في رؤوسهم فكرة عصرية عن القومية والوطنية . ان المسألة عندهم ليست مسألة دين ولا مسألة عنصر ولكنها بالتحديد مسالة مصالح مشتركة بين الناس . وهذه المصالحَ المشتركة هي الاساس في فكرة الوطن وفكرة القومية .

ومن خلال هذا المنهج في التفكير توصل هؤلاء العائدون من اوروبا الى شعار « مصر للمصريين » فاصحاب هذا التيار لا يشعرون بأي ولاء لتركيا كما هو الامر عند مصطفى كامل والحزب الوطني ، بل ان ولاءهم الاساسي لمصر وحدها اما تركيا التي يتجه اليها مصطفى كامل فلا تفترق عندهم عن انجلترا التي يحاربها المصريون ويريدون التخلص منها .

وكان زعيم هذا التيار هو لطفي السيد .. انه تيار علمي وهو الى جانب ذلك يؤمن بالتدرج والاعتدال الى اقصى حد .. انه لا يؤمن بالثورة ولا بالعنف ولكنه يطالب بالاصلاح الهادىء خطوة بعد خطوة . وكان هذا التيار ولا شك هو ــ بدون قصد او تعمد ــ اقرب التيارات في مصر الى « الفابيين » في انجلترا . لا من ناحية الاهداف والمبادىء . ولكن من ناحية الاسلوب

السياسي العلمي • لان الخلاف كـان كبيرا بين (الفابيين) وبين تيار لطفـي السيد وحزب الامة الذي ينتسب اليه بل ويعتبر زعيمه الروحي ومفكره الاكبر، فالفابيـون اشتراكيـون بمعنى من معاني الاشتراكيـة ولطفي السيد مـع اعضاء حزب الامة لم يتحدثوا عن الاشتراكية بأي معنى من المعاني بـل كان مطلبهم الاساسي هو تحرير مصر سياسيا من السيطرة الانجليزية ، ولكن وجه الشبه بين التيارين • تيار حزب الامة ولطفي السيد وتيار « الفابيين » هو ــ الاعتدال والتدرج في اسلوب العمل السياسي لتحقيق الهدف •

وهكذا فان حزب الامة لم يكـن يطالب بالاستقلال العاجل • بل كـان اقصى مـا يتمناه ويدعو اليه • هـو استقلال اشبه بالحكـم الذاتي بحيث تحكم مصر نفسهـا ولكـن مـع ارتباط وثيق بانجلترا وتنسيق كامل معهـا في شتـى القضايا والشؤون •

ولكن قيمة التيار الذي خلقه لطفي السيد في بداية هذا القرن في مصر كانت راجعـة الى اصراره على شعار « مصر للمصريين » من جانب والـى الدعوات الاصلاحية التحررية التي كان يتبناها هـذا التيار ويناصرهـا مـن جانب آخـر • مثل الدعـوة الى تحرير المرأة والدعوة الى التعليم الجامعي، ومـا الى ذلـك من دعوات كـان لهـا قيمتهـا واهميتها في بدايـة هـذا القـرن •

ان الازمة الاساسية التي كانت تحرك هذا التيار هي ازمـة التخلف الحضاري بمظاهره العمليـة والاجتماعية والعمرانية فاصحاب هذا التيار هم من ابناء « الاغنياء والاعيان » وكانوا يسمون انفسهم بهذه التسميـة الغريبة وهي « اصحاب المصالح الحقيقية » ولذلك لـم تكـن القضية بالنسبة لهـم قضية حادة عنيفـة •لانهم كانوا فـي النهايـة اقل طبقات الامة تاثرا بمظالم الاستعمار الانجليزي وان كانوا يعانون من التنافس الاقتصـادي بينهم وبيـن المصالح الانجليزيـة ومن هنـا كان منهجهم فـي « التغيير » هـو التدرج والاصلاح والعمل على التخلص من التخلف الحضاري باسلوب هادىء وخطوة بعـد خطـوة •

ولم يكن في هذا التيار اي خطر مباشر على الانجليز بل كـان هذا التيار

على العكس اقرب الى التحالف مع الانجليز .

بقي من التيارات الهامة التي كانت تملأ مصر في بداية القرن العشرين - كما يذكر رجاء النقاش في كتابه العقاد بين اليمين واليسار - تيار رابع هو تيار المهاجرين من الشام الى مصر . وهذا التيار لم يكن مثل التيارات السابقة اثرا من اثار فشل الثورة العرابية . وانما ولدته ظروف اخرى هي ظروف الثورة ضد الحكم العثماني الذي كان مسيطرا على الشام وغيرها من بلاد آسيا العربية وقد هاجر اصحاب هذا التيار من الشام واختاروا مصر ملجأ لهم . وساعدهم على النجاح ان مصر كانت مهيأة لقبول هذا التيار في بعض جوانبه الرئيسية . وقد اختار معظم اصحاب هذا التيار ان يتحالفوا مع الانجليز ضد الاتراك بما فيهم من جهل وظلم وتخلف . وكانوا يرون ان الانجليز اكثر استنارة وحضارة من الاتراك . وهي رؤية صحيحة ولا شك . ولكنها رؤية ناقصة فالانجليز يمثلون استعمارا جديدا ، لايقل قسوة عن الاستعمار العثماني . ومن المع اصحاب هذا التيار يعقوب صروف وشبلي شميل وفرح انطون وفارس نمر . ورغم الخلافات الجزئية بينهم فانهم جميعا كانوا يدعون الى العلم والحضارة الغربية العصرية وكانوا يحاولون ان ينزعوا عن الشرق كل ما له علاقة بالاتراك وعصرهم المظلم .

ولقد روج هؤلاء لكثير من الاتجاهات العلمية الغربية مثل نظرية التطور عند دارون والدعوات التحررية الاخرى عند روسو وفولتير وغيرهم من كتاب اوروبا المعروفين بالتجديد والثورة في ميدان العلوم والفنون والحياة الاجتماعية والسياسية .

وكان فرح انطون بلا شك هو اكثر الجميع ميلا الى الثورة والفكر الثوري . بينما كان يعقوب صنوع وشبلي شميل عالمين هادئين يحلمان بتأصيل الفكر العلمي عند المصريين وبقية العرب عموما ، وذلك للخروج بالعقل العربي من جو الخرافات ولتحريره من التعصب الديني

الضيق ، ففي الفكـر العلمي لن يكـون هناك تعصب ديني ، وانمـا ستكون هنـاك مجتمعات عصرية تجمع بيـن مختلف الأديـان في تعـاون وثيـق من اجل حيـاة جديدة ، ويتميز شبلي شميل عـن الجميع ايضا بدعواته المبكرة حوالي سنة ١٩٠٨ الى الفكرة الاشتراكيـة حيث عرض هـذه الفكرة فـي بعض مقالاته وأيدهـا ونادى بها •

هذه التيارات هي التي غطت الحياة الثقافية في مصر •• والتي كان لا بد على العقاد وجيله ممن يحملون تبعة مسؤولية مستقبل الثقافة ان يتابعـوهـا وان لم يباشروا بهـا •

ومما تقدم تتضح لنا خلفيات مواقف العقاد من الناحية الفكرية او بمعنى اخـر كيف كـون لنفسه موقفـا من الاشياء وبمن تأثر من المفكرين والكتاب الاجانب او العـرب •

القسم الثاني

الأحزاب

الوطني

الأمة

الوفد

الاحرار الدستوريون

مصر الفتاة

الشعب

الاتحاد

الاتحاد الشعبي

الاحـــزاب

بدأ تأليف الاحزاب السياسية في مصر عام ١٩٠٧ فأنشا السيد محمد وحيد الأيوبي حزب الاحرار وكان هدفه السعي لاستقلال مصر بالطرق السلمية،وتألف حزب الامة برئاسة حسن عبدالرازق واتخذ صحيفـة الجريدة التـــي رأس تحريرها احمد لطفي السيد لسانا لحاله ، وألف مصطفى كامل الحزب الوطني، وألف الشيخ علي يوسف حزب «الاصلاح على المبادىء الدستورية» وجعـل المؤيد لسانا لحاله . وفي نوفمبر ١٩١٨ تكونت هيئة الوفد المصري برئاسة سعد زغلول للسعي الى استقلال مصر ، وفي اكتوبـر ١٩٢٢ تألف حـزب الاحـرار الدستوريين برئاسة عدلي يكن واتخذ صحيفة «السياسة» لسانا لحاله وفـي اوائل ١٩٢٥ تألف حزب الاتحاد برئاسة يحيى ابراهيم وجعل لسان حاله جريدة الاتحاد وفي ١٩٣٠ ألف اسماعيل صدقي حزب الشعب وانشأ جريدة الشعـب للتعبير عن آرائه ، وفي عام ١٩٣٣ تألف حزب مصر الفتاة برئاسة احمد حسين واتخذ جريدة مصر الفتاة لسانا لحاله . وفي عام ١٩٣٨ اندمج كل من حزبـي الاتحاد والشعب في حزب الاتحاد الشعبي وتألف حزب الهيئة السعدية بانفصال بعض اعضاء الوفد المصري برئاسة الدكتور احمد ماهر وفي سبتمبر ١٩٥٢ صدر قانون لتنظيم الاحزاب فالغى جميع الاحزاب السياسية .

ويتأمل العقاد حياتنا السياسية بعد ان يستقيل مـن عملـه ليتفرغ لمهنـة

الكتابة ، وهنا يجد ان الجهاد الوطني يتوزع بين ثلاثة احزاب هي « الحزب الوطني» و «حزب الامة» و «حزب الاصلاح» كما يتأمل الصحف الثلاثة الصادرة عن الثلاثة احزاب وهي «اللواء» و «الجريدة» و «المؤيد» وكان من الطبيعي ان لا يفكر في الانضمام الى اسرة المؤيد اذ كانت منبوذة من الشباب، وان ينصرف عن اسرة اللواء لا لانه كان لا يزال يذكر موقف مصطفى كامل منه حين زار المدرسة الاسلامية الخيرية باسوان ولكن لانه كان لا يؤمن بفكرة التعلق بالخلافة العثمانية التي آمن بها مصطفى كامل اذ كان يرى في هذه الفكرة ضياعا لاستقلالنا • ولم يبق امامه الا حزب «الامة» الذي كان يدعو الى الاستقلال المصري الخالص على نحو ما كان يصوره احمد لطفي السيد محرر «الجريدة» في اطار فكرة مصر للمصريين •

وعلى الرغم من ان احمد لطفي السيد وعددا من اعضاء الحزب في مقدمتهم الاخوين مصطفى عبد الرازق وعلي عبد الرازق كانوا يقفون في الطليعة المثقفة من تلاميذ الشيخ الامام محمد عبده الذي يكن له كل تقدير والذي اثر في مساره الفكري كما رأينا •• الا ان العقاد لم يرغب الاستمرار في هذا الحزب الذي كان يضم بين صفوفه طائفة من كبار الملاك والاقطاعيين في مصر في ذلك الوقت وهنا بدأ تبرمه بالحزب وبالعمل في الجريدة وبدأ يبحث عن صحيفة وطنية شعبية «١» •

واتيحت له الفرصة في صحيفة الدستور التي كان يرأسها الشيخ محمد فريد وجدي العالم والمؤرخ المشهور بثقافته الاسلامية والفلسفية حيث كان في حاجة الى محرر يشترك معه في اصدار (الدستور) •

وعلى الرغم من ان الدستور كانت بجانب «اللواء» لسانا ثانيا للحزب الوطني الذي يرفضه العقاد الا ان صاحبها الشيخ محمد فريد وجدي امتاز بحرية عقلية واسعة جعلته يفسح للعقاد مجالا لابداء الرأي حتى ولو كان هذا الرأي يخالف زعيم الحزب نفسه مصطفى كامل في بعض آرائه ومبادئه السياسية ، ومن هذه المواقف التي سمح فيها للعقاد ان يخالف رأي الحزب

(١) راجع الدكتور شوقي ضيف في كتابه مع العقاد صفحة ٢٤ .

الوطني الحديث (١) الذي اجراه مع سعد زغلول وزير المعارف في ذلـك الوقت والذي دار حول التهمة التي وجهتها اللواء لسان حال الحزب الوطني الى سعد زغلول في انه تخلى عن اتمام مشروع الجامعة المصرية بوحي من الانكليز ونفى سعد زغلول هذه التهمة نفيا باتا واظهرت الايام بعد ذلك براءته وظل يعمل في الدستور مع محمد فريد وجدي الى ان تتوقف بسبب الضيق المادي ويظـل العقاد بدون عمل فترة .

لكن ما هو موقف العقاد من هذه الاحزاب التي عمل في صحفها او التي لم يعمل في صحفها ؟ ما موقفه من الحزب الوطنـي واحزاب الامـة والوفـد والاحرار الدستوريين ومصر الفتاة والاتحاد والشعب والاتحاد الشعبي ومصر الفتاة ، والسعديين ؟

هذا ما تجيب عليه الصفحات التالية :

الحـزب الوطني :

كان العقاد لا يؤمن بفكرة التعلق بالخلافة الاسلامية التي آمن بها زعماء الحزب الوطني وعلى رأسهم مصطفى كامل .اذ كان يرى ان في هذه الفكرة ضياعا لاستقلالنا هذا من ناحية ، كما ان الحملات العنيفة من الحزب الوطني ضد سعد زغلول وانكار زعامته وتوكيله عن الامة مما كان يسيء الى القضيـة المصريـة والموكلين للدفاع عنها هذا من ناحية ثانية وكذلك محاولـة صحافـة الحزب الوطني النيل من سعد زغلول بعد وفاته بل وتطاولت في بعض الاعداد فرمـت سعد زغلول باختلاس اموال الامة بل والاكثر محاولتها النيل مـن اهل بيتـه ومغالاة كتاب هذه الصحف التابعة للحزب الوطني حين اخذوا يطعنون فـي الرجل ووطنيته وحبه لمصر وقضية امته .. كل هذا جعل العقاد يقف صامدا امام هذا الحزب وهو في موقفه من الحزب الوطني يحاول ان يعري مبادئه تعريـة جعلت النفوس تعاف من النظر الى صحفه فها هو يقول (٢) : « لو كنـا نصدق

(١) راجع نص الحديث ـ العقاد في معاركه الادبيـة والفكرية ـ سامح كريم .
(٢) راجع ـ العقاد معاركه في السياسـة والادب ص ١٢١ ـ عامر العقاد .

هؤلاء الاوشاب الذين يزعمون ان لهم مبدأ يدعون اليه ورأيا ينضحون عنه . لقلنا انهم اتباع خيال عصفت بعقولهم سموم المخدرات التي ادمنوها . فجمح بهم التفكير الى حيث لا يذهب الا الفكر الملتاث والطبع السقيم . ولكننا لا نعتقد انهم يصدقون شيئا مما يهذرون به من هذه المبادىء والآراء ، وانما هي ذرائع يلجأون اليها للمشاغبة والعربدة والتصدي للعاملين المجدين يكونون عليهم حربا يجني الغاصب غنيمتها ويرجعون هم بسمعة التطرف في الوطنية ، والغلو في حب هذا الوطن المسكين والا فما هذه المبادىء والآراء وما هي رسالة هذا الذي يسمونه حزبا وطنيا في عالم السياسة المصرية ؟ وما هي وظيفته بين الاحزاب وما هو دوره بين العاملين ؟».

كانوا يقولون انهم انصار (الدولية) في القضية المصرية حتى أقروا وهم كارهون مرغمون ان هذه (الدولية) خطر على قضية البلاد ، وان الحكمة تقضي علينا ان تتجنب عرض مسألتنا على التحكيم بين الدول لانها تخذلنا في هذه الحالة وتنصر الانكليز ..

وقد اعرض العقاد عن الحزب الوطني لارتمائه في احضان قصري يلدز وعابدين وتلقيه المدد من هاتين الناحيتين ومحاربة الاحرار من حزب تركيا الفتاة الذين كانوا يطالبون بالدستور لسبب واحد هو غضب السلطان عليهم وكثيرا ما كتب مصطفى كامل مقالات يهاجم فيها هذا الحزب التركي ورجالاته، الذين يطالبون بالدستور في تركيا ووصفهم بقوله السابحون في الخيال .

ويذكر العقاد (١) هذا المقال الافتتاحي في صحيفة مصر الفتاة ، التي كان يصدرها الحزب الوطني في ذلك المقال يتصدى كاتبه للسادة الاحرار اعضاء حزب الاتحاد والترقي في تركيا حين طالبوا برفع السيادة التركية عن مصر ويقول فيما قال في هذا الصدد : كيف تتخلى تركيا عن مصر وهي الدرة اللامعة في تاج الدولة العثمانية ؟

ويبدي العقاد عجبه لهذا القول ويعلق : « ان هذه الدرة اللامعة يجب ان

---

(١) راجع محمد طاهر الجبلاوي ــ من ذكرياتي في صحبة العقاد ص ١٢٨ .

تعـود الى اصحابها » •

كما يذكـر العقاد قصة الاحرار الاتراك في مصر ومناوأة الحزب الوطني لهم وعمله على تسليم اسمائهم الى السلطان عبدالحميد لولا لجوء هؤلاء الاحرار الى المعتمد البريطاني اللورد كرومر ووصفهم له ما سينال عائلاتهم بتركيـا مـن الدمار والتشريد اذا ما وصلت اسماؤهم الى السلطان عندئذ تدخل كرومـر لمساعدتهم لا رحمـة بهؤلاء الاحرار المساكين ولكـن نكايـة بالخـديوي وبالسلطـان •

ويقول العقاد ان صحف الحزب الوطني ثارت ثورة جامحـة وكتبـت المقالات المستفيضة لهذا الحادث الذي عدته انتهاكـا لحرمة القانون •

والحق ان العقـاد كان حادا في هجومـه علـى اعضاء الحزب الوطني انه كان يخاطبهم بهذا المستوى (١) « اذهبوا يا صعاليـك القلـم فـروجـوا صحيفتكم ، وكلوا لقمتكم بغير هذه الصناعة • وصدقوني ان الشهـادة السريعـة خير لكم من شهادة المستقبل الذي لا تضمنونه فزيدوا الجرعـة واستعجلوا المستقبل البطيء زيدوا جرعة الكوكايين قليـلا تخـدمـوا مصر اكبر خدمة تستطيعونهـا وتصبحوا حقـا من الشهداء ولكـن مـن شهـداء الكوكايين » •

حزب الامة

رغم ان حزب الامة كـان يدعـو الى الاستقلال المصري الخالص والـى بعض المثل العليـا التي ينبغي ان يحققهـا الشعب لنفسه في نظمه السياسيـة والاجتماعيـة على نحـو ما كـان يصور لطفي السيد ، وانـه كـان يرفض السيادة الشرعيـة للعثمانيين على البلاد • لان تركيـا على وشك الانهيار وانها توصف في اوروبا بالرجل المريض ، يضاف الى كل هذا تيار الحزب نفسه (٢) تيار مصر للمصريين وهو تيار اقرب ما يكـون الى العقـاد لان قيادته كانت

(١) فتحي رضوان ـ عصر ورجال ـ طبقة الانجلو ١٩٦٧ •

(٢) راجع رجاء النقاش ـ العقاد بين اليمين واليسار ص ٢٥ •

في يد الصفوة الممتازة من العلماء والمفكرين • انـه تيـار اصحاب الحيـاة العاليـة والثقافات العريضة •• الذيـن لا يتحدثون من فراغ ، ولا يبحثون عن شيء الا وبين ايديهم الادلة والبراهين الكافية •• المستمدة من المناهج العلميـة والفلسفية التي اتفقت الانسانية منذ اقدم العصور حتى أوائل القرن العشريـن علـى اتباعهـا .•

كل هذا كـان جديرا بأن يغري العقاد وهو الرجل الـذي عرف عنـه استخدامه للمنطق وحبه للفكـر وشغفه بالثقافـة واهلها •• الى الانضمـام الى هـذا الحزب الذي يتفق ولا شك وميوله وعقليته وسمات روحه • لكـن الذي حدث هـو العكس • لقد هرب العقاد بجلده من العمل فـي صحيفـة الجريدة لسان حال الحزب تاركـا خلفه الحزب نفسه فما سر هـذا الابتعاد ؟

عن هذا السؤال يجيب رجاء النقاش فيقول (١) سره ولا شـك هو تكوين العقاد الاجتماعي فهـو شاب مصري فقير نشأ في ظل اسرة من الطبقة الوسطى الصغيرة فأبوه موظف صغير ، والعقاد نفسه قـد بدأ حياتـه موظفـا صغيرا • ولذلك فقـد كـان يحس بأن لطفي السيـد واعضاء حزب الامـة عمومـا بعيدون عنه وعـن الطبقات الفقيرة المتوسطة مـن ابناء الشعب • فهم كلهم من كبار الملاك والاقطاعيين فكيف يلتقي هذا الشاب الفقير بتجاربه الاجتماعيـة القاسيـة وواقع حياته الشاق مـع هؤلاء الذيـن يمثلون في النهاية طبقة عليا متعاليـة على الشعب مهمـا اظهرت من الاهتمـام بشؤون الشعب وقضاياه •

لقد كانت هذه النقطة بالذات كفيلة بأن تبعـد العقاد تماما عـن هـذا الحزب وعن انصاره حتى ولو كانوا من الفلاسفة والعلماء امثال لطفي السيـد وغيره •• ولقد كان اصحاب هذا التيار في نهايـة الامر ــ جماعة من المعتدلين الهادئين الذين ينظرون الى الاحتلال الانجليزي بأعصاب باردة • انهم يرفضونه ولا شك ، ولكنه رفض الارستقراطيين الذيـن لا يجدون بأسا في ان يحققوا نوعـا من التعايش السلمي مع الاستعمار الانجليزي وممثليه •

---

(١) نفس المرجع السابق •

فكيف يلتقي العقاد الذي يرفض الاستعمار الانجليزي رفضاً كاملا مع هؤلاء المعتدلين الهادئين العقلاء . لقد التقى العقاد بمنهجهم المنفتح على الفكر الغربي والثقافة الغربية ولكنه لم يلتق معهم بعد ذلك في شيء بسبب تكوينهم الاجتماعي كطبقة عليا في المجتمع المصري وبسبب اعتدالهم المسرف في النظر الى قضية الحرية والاستقلال .

ولا شك ان العقاد في موقفه هذا من حزب الامة ورجاله من العقلانيين المعتدلين ، كان متسقا مع نفسه .. انه موقف يحسب له خاصة اذا عرفنا ان العقاد في هذه الفترة كان في حاجة الى الانتماء الى عمل صحفي يقيه شر البطالة بعد ان استقال من وظيفته وكان هذا العمل في صحيفة الجريدة .

الوفد :

أي خبر كان يمكن تصديقه أو قربه حتى من الصدق والصواب الا خبر خروج العقاد على الوفد . فكيف يحدث هذا والعقاد كاتب الأمة ممثلة في الوفد، والكاتب الجبار كما وصفه زعيم الوفد سعد زغلول والكاتب الاول لصحف الوفد كما كان يلقب . لكل شيء سبب وربما يكون هذا السبب لا يخطر على بال .

وقصة خروج العقاد على الوفد وموقفه النهائي منه تبدأ مع تولي وزارة توفيق نسيم مقاليد الامور في مصر ووعدها بانها ستعيد للبلاد الدستور وتمهد لوزارة وفدية (١) يراسها النحاس وتعلقت الامال بهذه الوزارة ولكنها سلكت طريقا فيه التواء وغموض وتبين انها تعمل لنفسها وللسراي ولحساب الانجليز وانها وهذا هو المهم لم تحرك ساكنا في امر اعادة الدستور . واتبع وزير المعارف في هذه الوزارة نجيب الهلالي سياسة معادية للوفد باضطهاد بعض الموظفين في وزارته ومنهم اثنان من اصدقاء العقاد . فحمل العقاد على الوزارة النسيمية واماط اللثام عن نواياها الخبيثة في جرأة واقدام ، وحمل على وزيرها نجيب الهلالي حملة شديدة حتى قيل انه

---

(١) راجع من ذكرياتي في صحيفة العقاد ص ١٢٤ ـ محمد طاهر الجبلاوي .

دخل على رئيس الوزارة ذات يــوم واستقالته في يد ومقالات العقــاد فــي اليــد الاخرى .

واستدعى النحاس العقاد في الاسكندرية . ولما قابله حدثت هذه المناقشة المشهورة :

النحاس : لماذا تحمل على الوزارة يا استاذ يا عقاد ؟

العقاد : لانها انحرفت عن الطريق السوي ، وهي تماطل في اعادة الدستور وتعمل لصالح السراي والانجليز ووزير معارفهــا يضطهد الوطنيين .

النحاس : ولكــن الوفد يؤيدهــا . وعند توليه الحكم يصلح كل شيء.

العقاد : انا لا استطيع ان اغض الطرف عن اعمال الوزارة ولن اقف موقف الاغضاء عــن مساوئها وهي تنكشف يوما بعد يوم .

النحاس : انا زعيم الامة أؤيــد الوزارة فما عساك تصنع يا عباس يا عقاد.

العقاد : أنت زعيم الامة لان هؤلاء انتخبوك (مشيرا الى بضعة اشخاص وفديين) ولكني أنا كاتب الشرق بالحق الالهي !

النحاس : ان الوزارة باقيــة ما دام الوفد يؤيدها ويضع ثقته فيها .

العقاد : لن تنتهي برية هذا القلم الا وقد انتهى أجل هذه الوزارة (واخرج قلما صغيرا مــن جيبه) .

وانصرف العقاد والحاضرون يتشبثون به ويلاحقونه حتى يزيلوا مــا بينه وبين النحاس ولكــن العقــاد أصر على الانصراف وكانت اول كلمة قالهــا بعد هذه المقابلة لصديقه الجبلاوي : لسنا مع الوفد بعد اليوم .

ولحق النقراشي العقاد (١) وأخذ يرجوه ان يعدل عن رأيه الذي اعلنه بل أخذ يصور لــه الموقف وبأن النحاس واعوانه سيحاربونه في كل ميدان حتــى يذوق الوانــا من العذاب ، ولكــن العقاد قال للنقراشي انني لا أخاف مــن الحرب لانني اؤمن بحرية رأيي ، وشجاعتي الادبية . وهما أنفس عنــدي مــن

(١) راجع ـ لمحات من حياة العقاد المجهولة ص ١٠٢ ـ عامر العقاد .

الاستقلال ذاته لان الامة التي تملك رأيها مستقلة فعلا وحقا ولو احتلتها فيالق الغاصبين ، اما اذا خسرت الامة حرية رأيها وشجاعة ايمانها فلا خير لها في استقلال ولا دستور ولا نيابة ولا انتخاب . لانها تساق سوق العبيد لكل من خطر له ان يسودها من الاقرباء او البعداء وتعيش عيشة العبيد ولو لم يكن لها سيد قريب او غريب ولا فرق بين عبد مسود وعبد مطلق اليدين والقدمين لان العبودية في النفوس والقلوب لا في القيود والاغلال .

وعاش العقاد حرب الوفد وخاض غمارها غير عابىء بالاشواك التي يلقيها رجال الوفد في طريقه ، بل نشرت مقالاته في الصفحات الاولى من صحيفة روز اليوسف تندد بالوفد ورجاله .

ولقد روت (١) فاطمة اليوسف في مذكراتها ان النحاس غشي مؤتمرا من المؤتمرات الوفدية فلقي شابا يحمل صحيفة روز اليوسف فصاح به : ارم هذا الغلاف القذر من يديك .

ومن عجيب الامور ان ما تنبأ به العقاد من انحراف الوزارة النسيمية ومن انها لن تبقى طويلا كل هذا قد حدث في فترة قصيرة .

وانتهى كل شيء ولم يبق من هذه القصة ما يذكره التاريخ الا موقف العقاد نفسه . لقد خرج على الحزب الذي تبنى كتاباته ونعته بأعظم النعوت .. خرج عليه وهو لا يملك حتى قوت يومه .. خرج وهو يدرك انه سيحارب في لقمة عيشه وانه لن يسعد كثيرا وهو خصم لحزب الاغلبية .. ولكن العقاد لا يهمه كل هذا .. اذا ما اصطدم بحرية فكره وقلمه فكيف يقبل من زعيم هذا الحزب ان يقيد حريته ؟ كيف يقبل من هذا الزعيم ان يثنيه عما يراه انه هو الحق ؟ كيف يقبل السكوت على خطر محدق بوطنه ؟

انه لو فعل لما اصبح بعد ذلك العقاد .

---

(١) مذكرات روز اليوسف الطبعة الثانية ص ١٨١ .

حزب الاحرار الدستوريين :

اذا عرفنا ان حزب الاحرار الدستوريين هو الوريث الشرعي لحزب الامة .. سهل علينا معرفة موقف العقاد من هذا الحزب الجديد فالموقف الذي يتخذه منه اليوم له جذوره كما رأينا في الصفحات السابقة يضاف الى ذلك ان هذا الحزب ما تألف الا لمحاربة حزب الوفد الذي كان العقاد احد نجومه البارزين وكاتبه الاول . هذا من ناحية ، ومن ناحية ليكون عونا للسراي والانجليز أو كما يقول عبدالرحمن الرافعي (١) فان هذا الحزب الذي تم اعلان تشكيله في ٣٠ اكتوبر ١٩٢٢ تألف لا استنادا الى تأييد الشعب. بل ارتكانا على سلطة الحكومة . وقد لازمه هذا العيب طوال حياته فهو ليس حزبا شعبيا يرتكز على ارادة الشعب بل هو حزب حكومي يعتمد على قوة الحكم ومن هنا جاء تغليبه لسلطة الحكومة على سلطة الشعب وميله الى اهدار سلطة الامة لكي يصل الى مناصب الحكم ، ولا ترتقي الامم بهذه الاساليب في النضال السياسي لان النضال الذي يقوم على التهوين من سلطة الامة انما يرمي في آخر الامر الى استعباد الشعب . ومن ثم ظهرت في محيط هذا الحزب معظم الوسائل والتدابير التي ترمي الى حرمان الشعب من حقوقه السياسية . وكان وجود هذا الحزب موضع اطمئنان السياسة البريطانية اذكانت تهدد به كل هيئة نيابيةلا تميل الى التسليم في حقوق البلاد كما كان مع غيره من الاحزاب الرجعية وسيلة لاستعادة الحكم المطلق ..

فاذا كان هناك موقف مسبق من رجال حزب الامة على اعتبار انهم هم انفسهم رجال حزب الاحرار الدستوريين وهذه هي صورته . فلا غرابة من أن يكون للعقاد موقف من هذا الحزب الذي يتعاون مع السراي ويتعاطف مع الانجليز ولا يعبأ كثيرا بالشعب ويسعى الى استعادة الحكم المطلق في البلاد .. أليست هذه مجموعها الد اعداء العقاد .

ومن هنا أصبح مألوفا او على الاقل منتظرا معاداة العقاد لهذا الحزب

(١) راجع — في اعقاب الثورة المصرية ص ٦٩ — عبدالرحمن الرافعي .

الجديد .. حزب الاحرار الدستوريين كما اصبح مألوفا ان تقرأ له « فالاحرار الدستوريون عورة السياسة المصرية وموطن الضعف فيها وباب المطامع الذي يلج منه الانجليز الى دخيلتها ولولاهم ولولا تهافتهم على المناصب ووقوفهم بالمرصاد لكل فرصة سانحة ، واستعدادهم لكتابة العرائض التي يستجدون بها الوزارات ويستعطفون بها الانجليز ، لولا ذلك لعلم الانجليز ان الامة يد واحدة وكلمة واحدة لا مساومة فيها ولا مناورة فاما ان يعطوها كل ما تريد ، واما ان يناوئوا منها امة كاملة مجمعة الاباء والمقاومة والثبات على مطالبها حتى تنالها جميعا وتبلغ من الاستقلال والحرية ما تريد ولكن الاحرار الدستوريين ظلوا مع الوفد المصري حتى سنحت لهم بارقة الامل من ناحية مشروع ملنر (بحمايته الصريحة) فتكالبوا عليه ووثبوا الى الفرصة يرتجفون وجلا من ان تفلت من ايديهم وانذروا سعدا بالتفرق عنه والانفضاض من حوله ، ورأوا انهم قد جاوزوا الحد في الجهاد . وكلفوا انفسهم فوق ما تطيق من الصبر والثبات ؟ » (١) .

ويقول العقاد في نفس المقال : .. وانك لتسأل من هم الاحرار الدستوريون القائمون بهذه الدعوة في مصر ..؟ فيقال لك انهم على الاكثر عشرون او ثلاثون محاميا على طبيب ممن لم يعرفوا في حياتهم قط بشيء من التضحية أو حماسة المبدأ والعقيدة . فماذا تفقد مصر لو لم يكن فيها هؤلاء العشرون او الثلاثون محاميا على طبيب أثري ؟ ان اصحاب الدعاوي يحملون قضاياهم الى ابواب المحاكم فلا يجدون عندها من يتولى عنهم المرافعة ؟

أترى ان الامهات تدفن اطفالها من اليأس لان مدير السياسة ناقص من عداد الاربعة عشر مليونا الذين يقيمون في هذه البلاد ؟ أترى ان القانون يأبى ان يتعلمه المتعلمون وان الطب يأبى ان يدرسه الدارسون ؟ ومن من هؤلاء العشرين او الثلاثين محاميا على طبيب من تعجز الامة عن تعويضه بمائة مثله اذا شاءت المقادير الا يذكر فيها اسمه ولا يطلع عليها نحسه أهو

---

(١) راجع العقاد معاركه في السياسة والادب ص ٩١ ــ ٩٢ ــ عامر العقاد .

العقل الغبـي محمـد محمود او الارعـن المسلوب عبدالعزيـز فهمـي ؟ او البلباشو المحزن جلاد دنشواي او طبيب الاطفال وطفل الاطباء حافظ عفيفي ؟ او الرجل التام الرجولة كامل البنداري ؟ او سماسرة المحاكم العسكرية وهيب دوس وخوان او المسنسط المأفون محمد علي ؟ من من هؤلاء يعيي هذه الامـة مكـان عنده أو يعجزها ان تعوضه بألف من مثله ؟

حـزب مصر الفتاة :

وافق تاريخ تكويـن حزب مصر الفتاة ازمة العقـاد مع الوفـد فقد خرج العقاد على الوفد وفي نيته انه لن يعـود الى الوفـد .. واعتبر ان هذا هـو موقفه النهائي . وقد حدث بالفعل فلم يعـد الى الانضمام الى هذا الحـزب مرة ثانية وقد اشتد حرب الوفد للعقاد على ما رأينا في لقمة عيشه الامر الـذي جعله يهجر القاهرة عائدا الى موطنه اسوان اتقاء الجوع .. ولو كان انسـان آخر غير العقاد يرعى تودد الاحزاب الموجودة في ذلـك الزمن لم يكن تسابقها فـي انضمـام العقاد اليهـا ككاتب له قراؤه في طول البـلاد وعرضها .. كل الاحـزاب وفي مقدمتهـا حزب الاحرار الدستوريين تمنت ان تضم الى صفوفها العقاد واعتبرت ذلـك نذيرا للخطر على الوفد الذي كان يمثل الاغلبيـة ، بل لقد حدث لقاء بين العقـاد وعدد من الاعضاء المبرزين في حزب الاحـــرار الدستوريين فيه عرضوا عليـه الكتابة في صحيفتهم والانضمام الى حزبهم ولا ندري ما كـان مـوقف العقاد ، وان كان الاحرار الدستوريون يعلنـون انـه وافق ولكـن الذي حدث ان العقاد لـم ينضم اليهم ولم يكتب في صحيفتهم وانما ظـل بعيدا عنهم .. في هذه الفترة التي تعتبر من أقسى الفترات في حياة العقاد او قبلهـا بقليل تم تشكيل حزب مصر الفتاة متتبعا خطوات الحزب النازي في المانيـا حتى ان شعاره كـان « مصر فوق الجميع » مقلدا شعار النازيـين المانيا فوق الجميع وكانت حفلـة افتتاح الحزب تقليدا للحفلات النازيـة حتى في طريقـة التحية برفع اليد الى الامـام . واعضاؤه مجموعـة مـن الشبـان المتحمسين الذين يعيشون حياتهم الحزبيـة على الطاعـة المطلقة ويقلـدون النازيـة والفاشيـة في تنظيماتهم المختلفة . ولقد كان كثيرون منهم بالتأكيـد من الوطنيين . الى جانب هذا فقد كان اعضاء الحزب محدودين مـن الناحيـة

الفكريـة الى حد بعيـد والحزب في شكله العام بنـي بنـاء عاطفيـا تائهـا بلا جذور شعبيـة او جماهيرية تقف مـن ورائه ، ونشأ بلا مؤازرة تسنـده ، ولم يكـن وراء هذا الحزب أي تراث فكري عميق بل كـان فـي نشأته (١) مجرد رد فعل للحزب النازي الالماني الذي كـان يعيش اكثر فترات حياتـه ازدهارا فـي ذلـك الحين .

صحيح ان الاحزاب المصريـة الاخرى كانت ضعيفة في جانبها الفكري ولكن صفوف هذه الاحزاب كانت ممتلئة بالشخصيات الفكريـة اللامعة التي كانت تعطي لهذه الاحزاب بعض الحيويـة الفكريـة وتضفي عليهـا قيمـة سياسيـة اعمـق .

وقد عرض احمد حسين .. على العقاد الانضمام الى الحزب والكتابـة في صحيفته « مصر الفتاة » ويبدو ان العقاد لم يحرجه بعدم القبول في وقته . ولكن الثابت ان العقاد لـم يعلـن انضمامه لهذا الحـزب ، وهـذا يعتبر موقفـا من العقـاد حيث انـه لا يجـوز عليه ان ينضم الى حزب ليس له جذور فكريـة .. حزب نشأ مقلـدا للنازية والفاشية . وبديهي ان يكون موقف العقاد من حزب هذه سماته وصفاته هو موقف الرفض غير المعلن . والا فلماذا لـم يعلن انضمامه لهـذا الحزب وهـو في أمس الحاجة الى الانضمام الى اي حزب سياسـي ؟

الهيئة السعديـة

حزب السعديـين او حزب الهيئة السعدية او الحزب السعدي تألف فـي عام ١٩٣٧ من عدد من الشبان الذين لمعوا سياسيا الى جانب لمعانهم الثقافي . وقد خرجوا على حـزب الوفد بعـد ان ادركوا ان قيادة الوفد في هذه الفترة بدأت في الانحراف عن الاهداف التي ارساها سعد زغلول ورفاقه عند انشائه. وفي مقدمة هؤلاء الشبان المثقفين اللامعين الدكتور احمـد ماهر باشا ومحمود فهمي النقراشي باشا وقد رأس الاول الحزب في بدايـة انشائه وظـل رئيسا له

(١) راجع العقاد بين اليمين واليسار ص ١٢٦ ـ رجاء النقاش .

حتى اغتيل في عام ١٩٤٥ ليحل محله الثاني محمود فهمي النقراشي باشا ويستمر في ذلـك حتـى اغتياله .

وقبل انشاء هذا الحزب بعامين خرج العقاد على الوفد ايضا . وتسابقت الاحزاب الى ضمه في صفوفهـا وكانت تهدف جميعهـا الى اكثر مـن هدف لعـل ابرزهـا اثنـان .

اولهما : اتقاء شر هجوم قلمه الذي لا يرحم حين يسلط على أي اتجاه من الاتجاهات في أي معركـة من المعارك .

ثانيهما : كسب هذا القلم الجبار الى وجهة نظر الحزب الذي ينضـم الى صفوفـه .

لكن العقاد لـم ينضم الى واحد من هذه الاحزاب رغم موقفه الصعب . وانما صمد في موقفه لا منتميا لاي من هذه الاحزاب رغـم مـا كانت تعرضه عليه من شتى الاغراءات . الى ان تألف حزب السعديين فانضم اليه وقـد عاب عليه بعض الكتاب والدارسين هذا الموقف . واعتبروه ردة وسقطـة في تاريخ الرجل السياسي .. الذي تحلى بالنضال والفخار .

لقد وصف الكثيرون هذا الموقف من العقاد بانه ارتمـــاء في احضان الاقليات الرجعيـة قاصديـن بذلـك السعديين على وجه الخصوص علـى اعتبار ان هذا الحزب على حد تعبيرهم قـد قـام بمعونـة مـن القصر والانجليـز .

بل ان رجاء النقاش يذكر في كتابه « العقاد بين اليمين واليسار ص ١٣٨ » ما يؤكد هذه النظرة الظالمة لكفاح ونضال العقاد ويجملها حيث يقول : ومنـذ سنة ١٩٣٧ بدأت فترة النكسة في موقف العقاد السياسي فقد بدأ طريقه ككاتب بارز في المعسكر اليميني الرجعي في السياسة المصرية بعد ان كان في طليعـة كتاب اليسار الوطني . ان كاتب الشعب الاول في ثورة سنة ١٩١٩ حتى سنـة ١٩٣٧ يبحث لنفسه عن سعد في الحزب السعدي ذلك الحزب الذي سرعان مـا اصبح اداة في يد السراي والانكليز . لقد انفصل العقاد عن حركة الثورة الوطنية فـي صورها المتطرفة وصورها المعتدلة على السوء واصبح مرتبطا بالحكومات

الرجعية المختلفة.. لم يعد حادا متطرفا في موقفه من السراي، بل على العكس اصبح وجها من الوجوه التي تعتز بها حكومات السراي فالكاتب الثوري الوطني الذي كان عضوا في مجلس النواب بالانتخاب الحر والتأييد الشعبي سنة ١٩٢٦ وما بعدها ، هذا المناضل الذي وقف في البرلمان يتحدى الملك فؤاد سنة ١٩٣٠ يصبح عضوا في مجلس الشيوخ بالتعيين سنة ١٩٤٤ وهذا التعيين معناه انه حصل على منصبه النيابي بقرار موقع من الملك فاروق وفي ظل حكومة من الحكومات التي فرضها الملك وهي حكومة احمد ماهر .

وقد ظل العقاد مرتبطا بهذا الموقف حتى قامت الثورة سنة ١٩٥٢ وحتى الغيت الاحزاب سنة ١٩٥٤ .

ويتساءل رجاء النقاش عن سر هذا التحول السياسي في حياة العقاد .. هذا التحول الذي جعل منه قريبا من السراي والانكليز بعد ان كان مناضلا لا يهدأ ضد السراي والانكليز .

والغريب ان هذا التساؤل الذي يحمل في طياته اتهاما للعقاد يجد اجابة بعد ذلك في نفس الصفحات او في غيرها من الكتابات التي اهتمت بهذا الجانب السياسي من شخصية العقاد وهو ما نجمله في ثلاثة عوامل هي :

العامل الشخصي فقد كان العقاد على اتصال وثيق بمؤسسي هذا الحزب فهو يذكر ان مؤسسي الحزب الدكتور احمد ماهر واخاه علي ماهر .. كانا زميلين له ابان الدراسة الاولى وانه رغم اختلافه معهما في كثير من الامور السياسية الا ان هذه الصلة التي بدأت مبكرا لها الكثير من التقدير في نفس العقاد ونفسيهما ايضا ، ولا ادل على ذلك من ان زمالة احمد ماهر في الوفد بعد ذلك كانت ترنو الى هذه الصلة القديمة وتحنو عليها . لقد دعت هذه الصلة علي ماهر الى اتخاذ سلوك ربما لم يحدث من قبل او حتى بعد ذلك حينما حكم على العقاد بالسجن في الوقت الذي كان علي ماهر وزيرا للحقانية . فقام بزيارته في السجن وامتنع العقاد عن مقابلته ، ودعته ايضا هذه العلاقة المبكرة ان يتخذ سلوكا آخر يوم ان القى العقاد قصيدة من الشعر كان يحيي فيها الملك

فاروق الذي زاره في دائرته الانتخابية في الصحراء الغربية . وحدث سوء تفاهم حينما وجه الملك حديثه متسائلا : لماذا لم تقل هذا في عهد ابـي ؟ ويقصد الملك فؤاد الذي عابه العقاد في ذاته وسجن بسبب هـذا العيب وهنـا غضب العقاد وشق صفوف الاحتفال محتجا ومنصرفا عن مكان ظن انه قد أهين فيه ولم يهمه ان في هذا المكان مليك البلاد وان هذا الملك يكرمه بحضوره فـي دائرته الانتخابية عندئذ لم يجد العقاد من يجري وراءه ليسترضيه الا علي ماهر الذي ترك الاحتفال ليلحق بالعقاد املا في ان يثنيه عن عزمه ووقائع كثيرة تؤكد صلة وعلاقة العقاد بالاخوين احمد ماهر وعلي ماهر .

الى جانب صلته الوطيدة بالنقراشي الذي تولى رئاسة الحزب بعد احمد ماهر وكثيرا ما تحدث العقاد عن هذه الصلة وكثيرا ما وصف مقتل النقراشي بانه كان اكبر صدمة واجهته في حياته وها نحن نقرأ مثلا مقالا في كتابـه بيـن الكتب والناس بعنوان «المثل الاعلى في عالم الحقيقة» فيه نستشعر ذلك الحب العظيم الذي كان يكنه للنقراشي، من خلال سطور تأبينه له والتي فيهـا يتسـاءل ويرد على نفسه قائلا : من هذا الشهيد الذي عاش من الفقراء ومات من الفقراء .

من هذا الرجل الذي استطاع ما لا يستطاع فهزم الغواية التي لم يهزمها احد من الناس ؟ هذا الشهيد الفقير هو رئيس وزراء مصر وحاكمها العسكري في ابان السيطرة على اموال الدولة واموال الاعداء .

هذا الشهيد هو وزير الخزانة في ابان التصدير والايراد والاثراء ممـا تطلبه البلاد او ما يطلب البلاد .

هذا الشهيد الفقير هو صاحب الوزارة الكبرى التي يباع نفوذها لوشـاء بالالوف وعشرات الالوف .

هذا الفقيد لو مات وعنده عشرة ملايين لما استكثرها طلاب الكثير قد مات وليس عنده شيء وقد خرج من كل شيء ليفدي بلاده بالراحة والروح والنعمـة والثراء ..

وينهي تأبينه قائلا : يذكر المصريون اسم النقراشي كما يذكرون النقيض بالنقيض او يذكرون الاوج في الحضيض ويذكرونه تراثا وطنيا يهيب بهم الى الصلاح والحرية وتراثا انسانيا تعتصم النفوس بقدوته في عصرنا هذا وفي جميع العصور •

العامل الثاني هو فساد الوفد او هكذا كان تصور العقاد حين استبعد النحاس باشا زعماء الوفد الحقيقيين ليحل محلهم عددا من الاعضاء الشبان ناسيا ومتجاهلا دور هؤلاء الزعماء الحقيقيين في ثورة ١٩١٩ وفي بقية المواقف الوطنية وغيرها من الاسباب التي دعت العقاد الى الخروج من الوفد ساخطا غير آسف عليه وكان ذلك عام ١٩٣٥ كما اسلفنا القول ونفس هذا الموقف الذي اتخذه العقاد من الوفد اتخذه كل من الدكتور احمد ماهر مؤسس الحزب ورئيسه بعد ذلك ومحمود فهمي النقراشي الرئيس الثاني لحزب السعديين فكان هناك شبه اتفاق بين الطرفين على ان الوفد لا امل في اصلاحه فخرجوا عليه •

العامل الثالث وهو عام وشامل وهو الخاص بضرورة الانتماء الى حزب من الاحزاب السياسية الموجودة في ذلك الوقت حيث كانت طبيعة هذه المرحلة تفرض على الذين يعملون بالسياسة الانتماء الى واحد من الاحزاب السياسية وينظر العقاد حوله في بقية الاحزاب فلا يتفق مثلا مع اتجاهات واهداف حزب الاحرار الدستوريين ولا يتفق مع حزب مصر الفتاة الى آخره من الاحزاب ولا يجد امامه غير هذا الحزب الذي يؤسسه زميل له خرج على الوفد مثله فينضم اليه ويسهم بجهده في تطويره •

وعلى هذا فلم يكن صحيحا ان العقاد خرج على الوفد ليرتمي في احضان السراي والانكليز ممثلة في حزب السعديين فالثابت حقا وتاريخا ان العقاد ترك الوفد قبل تأسيس هذا الحزب بسنتين ولم يفعل هذا لكي ينتظر مؤسسي الحزب هنالك على محطة الرجعية ليلحقوا به • فلم يكن موقف العقاد من حزب السعديين موقفا غريبا بل على العكس لعله من مواقف العقاد المتسقة مع نفسه كانسان يقدس رأيه ويحترمه •

وهذا ما يجعلنا نؤكد ان نقد هذا الموقف من العقاد يعتبر اتهاما ظالما لــه وليس له ما يبرره •

الاتحاد والشعب والاتحاد الشعبي :

يبقى تحديد موقف العقاد من هذه الاحزاب الثلاثة «الاتحاد» و «الشعب» و« الاتحاد الشعبي » لكن قبل ذلك ما هو موقفه مــن حــزب الاصــلاح على المبادىء الدستورية الذي انشأه الشيخ علي يوسف عام ١٩٠٧ وتولى رئاسته ؟ موقف العقاد من هذا الحزب واضح وقد اسلفنا القول حول موقفه هذا مــن صاحبه ورئيسه الشيخ علي يوسف في الصفحات السابقة وموقفه من جريــدة المؤيد لسان حال هذا الحزب • لكن ربما يكون الموقف واضحا عندما نجد ان هذا الحزب كان يحتضنه الخديوي عباس مما دعا بعض المؤرخين الــى تسميته باسم حزب القصر ، وكان يشترك مع الحزب الوطني فــي كثير مــن المبادىء والاهداف وعلى الاخص الدعوة الى الجامعة الاسلامية • ولكنه كان يتجه بها نحو خدمة القصر حتى يخفف الانكليز من قبضة ايديهم على عنق الخديــــوي وسلطانه •

اما حزب الاتحاد فقد تألف في اوائل عام ١٩٢٥ برئاسة يحيى ابراهيم باشا الذي كان رئيسا للوزارة قبل ذلــك ووكالة كل من علي ماهر باشا ، ومحمــد حلمي عيسى باشا وجعل لسان حاله جريدة الاتحاد ••

وكان من المحتمل ان ينضم العقاد الى هذا الحزب الوليد لصلتــه الوثيقة كما رأينا ببعض اقطاب هذا الحزب وفي مقدمتهم علي ماهر باشا • ولكــن حال دون ذلك عوامل كثيرة وفي مقدمتها ان هذا الحزب قيل عنه غداة تأليفــه ان القصر والانكليز كانا يدعمانه بالاموال وغير الاموال • وكذلك مــوقف العقاد من بعض اقطابه وفي مقدمتهم محمد حلمي عيسى باشا الى جانب ذلك ان العقاد كان في هذه الفترة وما بعدها احد اقطاب حزب الوفد وكاتبه الاول، هذا الحزب الذي انضم اليه عن قناعة •

وحزب الشعب الذي تألف عام ١٩٣٠ ورأسه اسماعيل صدقي باشــــا

رئيس الوزراء في ذلك الوقت بحيلة ملتوية . وأصدر جريدة الشعب للتعبير عن آرائه .

وبالطبع لم يقل موقف العقاد من هذا الحزب عن مثيله من احزاب الاقليات .. تلك التي اعتمدت في تمويلها وتأييدها على القصر والانجليز ، يضاعف من هذا الموقف ذاته عند العقاد حقيقة وجود اسماعيل صدقي باشا رئيسا للحزب وموقف العقاد منه .. وكلنا يعرف كم كان اسماعيل صدقي عدوا لاصحاب الرأي ، اولئك الذين يدعون الى التجديد والتطوير وفي مقدمتهم العقاد الذي سجن في عام ١٩٣٠ والدكتور طه حسين الذي اثيرت في هذا العام ايضا قضيته المعروفة بقضية الشعر الجاهلي والتي كانت قد هدأت فايقظتها قوى الرجعية من جديد .

لهذا ولغيره من اسباب نجد هناك تبريرا لموقف العقاد من هذا الحزب الذي قام بطريقة خلفية وملتوية . ان كانت قد خفيت على البعض لا تخفى بأي حال من الاحوال على العقاد .

وفي عام ١٩٣٨ اندمج كل من حزبي الاتحاد والشعب في حزب جديد اسمه « الاتحاد الشعبي » وفي هذه الفترة بالذات كانت ازمة العقاد على اشدها .. فقد مضى على خروجه من الوفد ثلاثة اعوام وقد اصبح مألوفا لاصحاب الصحف ان العقاد اذا انضم الى اسرة تحرير أي مجلة او صحيفة فان مصيرها الاغلاق .

هذه الفترة التي اعقبت خروجه على الوفد المصري كانت من اقسى سنوات حياته .. فقد ذاق فيها الضيق المادي الى جانب الضيق المعنوي وهو كثير .. فلم يكن في يده المال الذي يشتري به حتى الصحف والمجلات وبديهي ان يتوقف عن شراء الكتب ، وان تقل لوازم بيته وطعامه الى اقل من الربع كما ذكر هو نفسه .

ورغم هذا وذاك لم يضعف العقاد امام بريق الاغراءات التي انهالت عليه في ذلك الوقت من قيادة حزب الاتحاد الشعبي تلك التي كان نصيبها

الرفض وانما ــ وهذا مــا يؤكد اتساق مواقف العقــاد التي ذكرناهــا ــ عند الحديث عن علاقته بحزب الهيئة السعديــة ومن انــه لا يستحــق الاتهـــام بالرجعيــة او غيرهــا من المسميات فلو كــان العقاد ضعيفــا امام هـــذه الاغراءات لانضم الى حــزب اكثر جاها وسلطانا من ذلــك الحزب الوليــد وهو « حزب الهيئة السعدية » . ولكن لان العقاد كــان يرتبط بقيادة هــذا الحزب بعلاقات انسانيــة لهــا احترامهــا عند العقاد وغيره .. لهـــذا كان انضمامه لهــذا الحزب .. وتفضيله عــن غيره من الاحزاب التــي كانت اكثر لمعانــا وجاها وسلطانــا ومنها حزب الاتحاد الشعبي او عدم انضمام العقــاد لهذا الحزب رغم حاجته الى ذلــك من المواقف التي تحسب له لا عليه .

ولهذا لم يكن عجيبا ولا غريبا ان يكون للعقــاد موقف مــن هـــذا الحزب الذي نشــأ وتكون من مجموعــة سياسية كان يرفضها . ولم يكــن عجيبا ولا غريبا ان تلمح بعض النقــد لسياســة هذا الحزب من جانب العقــاد بالطبـــع .

ليس غريبا ولا عجيبا هذا الموقف .. فهــو من المواقف المتوقعة .

القسم الثالث

الثورات

عرابي ١٨٨٢

مارس ١٩١٩

يوليو ١٩٥٢

الثـــورات

ما هو حكم التاريخ على ثلاث ثورات قامت في مصر ؟

والثورات الثلاث هي : الثورة العرابية عام ١٨٨٢ وثورة مـارس ١٩١٩ وثورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ ؟ ثم ما هـي اهداف الثورات الثلاث ؟

الثورة العرابية تنتسب الى احمد عرابي •• احـد ضباط الجيش المصري وتبدو فيهـا الناحيتان الهامتان في كل ثورة •• ناحيـة التعبير عـن مطالب الجيش ، وناحيـة التعبير عـن مطالب الشعب وبدون شك لا بـد ان يكون احمد عرابي مرتبطـا بالارض التي قام منهـا بحكم نشأته وتربيته كفـلاح ابن فـلاح •• وربمـا تكـون هذه ميزة تضاف اليه •• فلم يعرف عنه انـه عندما اصبح قائدا كبيرا نال رتبة البشوية •• انه انغمس فـي حيـاة التـرف والنعيم كأبناء الذوات •• او انه انفصل عـن طبقتـه وبيئته كما فعل غيره من بشوات مصر وبذلك عرف عرابي كيف يجمع بين محبة الجند ومحبـة الشعب لكـن المأساة الحقيقيـة فـي حركـة احمد عرابي انـه لم يستطع ان يكون جبهة داخلية يمكنها ان تصمد امام المطامـع الاجنبيـة • فالجبهـة الداخليـة كانت مفككة تماما ، وعجلة الاستعمار البريطاني كانت علـى اشدهـا طوي امامها العالم المتخلف بلدا بعـد آخر ومـا كان عرابـي يستطيع الصمود امام

هذا كله . واتخذ النضال معارك حربية وكانت هزيمة الجيش ايذانا بفشل الثورة كما يقولون . ولكن الواقع ان الثورة لم تفشل .. فالهزيمة العسكرية ليس معناها بأي حال من الاحوال فشل الثورة . فمن يطلع على محاضر المجالس النيابية في ذلك الوقت يجد النقد للاحتلال والهجوم عليه في عنفوانهما وتستمر الحركة الوطنية متأججة حتى يتولى زعامتها مصطفى كامل .

اما ثورة ١٩١٩ فلها طبيعة اخرى .. فهي لم تكن حركة جيش اصطدم بجيش آخر أو حكومة ثارت على حكومة اخرى .. وانما كانت حركة شعبية خالصة لدرجة ادهشت الزعماء انفسهم فكتب سعد زغلول في مذكراته وكتب محمد فريد في مذكراته ايضا .. يبديان دهشتيهما من ان الشعب المصري اثبت قدرته على ان يثور في وجه الاحتلال البريطاني . وليس صحيحا ما يقال عن ان سعدا ركب موجة الثورة او انه استغلها ووجهها لصالحه .. فلسعد زغلول ماض معروف قبل الثورة .. هو لم يركب المد الثوري كما يقولون انما كانت لهجته العنيفة مع المعتمد البريطاني في المقابلة الشهيرة ثم اتجاهه الى مخاطبة الشعب ثم القبض عليه .. كان كل ذلك مفجرا لغضب الشعب فانقلب الى ثورة في كل مكان .

وثورة ١٩٥٢ قامت لتحقق الاستقلال الكامل والحياة النيابية السليمة وهذان هدفان ماثلان في الثورتين السابقتين عليها . ولكن ثورة ١٩٥٢ اضافت الى ذلك حديثها عن اذابة الفوارق بين الطبقات والقضاء على الاقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم .. وهي ابعاد جديدة تمثل ما بلغته مصر في تطورها عام ١٩٥٢ ومن الطبيعي والامر كذلك ان يكون للثورة اعداء في الداخل وفي الخارج ..

لكن ينبغي ان تعرف عدة امور في مقدمتها انه ليس هناك اي ثورة تقوم لتغيير الاوضاع في بلدها .. ثم تضع الامر من جديد في يد العناصر السابقة على الثورة .. والتي قامت من اجلها الثورة .

ان الثورة لا بد من تأمين نفسها لانها بحكم طبيعتها عنف

والعنف دائما يحتاج عنفا مستمرا للمحافظة عليه . ومن هنا جاءت الاجراءات التي يسموها الاجراءات الاستثنائية .

ان الثورة لا بد وان تنتهي فلا يمكن ان تعيش الشعوب في ثورة مستمرة .. لا بد ان يجيء الوقت الذي تهدأ فيه الاحوال وتعود البلاد الى حالتها الطبيعية وتنتهي الثورة بوسائل مختلفة . فقد تنتهي الثورة بثورة اخرى واذا انفتحت شهية الثوار او المغامرين الى الثورة فهناك الطامة الكبرى والامثلة على ذلك كثيرة وقد تنتهي الثورة بأن تأكل نفسها بنفسها فتخمد جذوتها وينتهي الامر بسلام فتكون الردة وتبعث الحياة السابقة على الثورة من جديد فكأنها كانت مرحلة جاءت ثم انتهت .

لكن اسلم وسيلة هي ان تعمل الثورة بنفسها على ان تلتئم مع الحياة القومية للامة بحيث تنتقل الامة من شرعية الثورة الى شرعية الحياة السياسية . وبذلك تظل الثورة تعيش لا في ضمائر الناس وحدهم وانما في اوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . حتى تصبح جزءا من نسيج الحياة القومية . او بعبارة اخرى تظل الامة محافظة على ما اكتسبته من ثورتها . وتعود في الوقت نفسه الى سيرتها الطبيعية . وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فما زالت مكتسبات الثورة باقية والحياة تسير في هدوء سيرتها الصعبة .

والآن ما هو موقف العقاد من هذه الثورات الثلاث ؟ ما موقفه من ثورة لم يعاصرها فقد ولد بعدها بسبع سنوات ولكنه يكاد يكون واحدا ممن شاهدوها فالاحاديث التي كان يسمعها في جلسات ابيه عن الثورة العرابية وما آلت اليه امور البلاد كانت لا تنقطع . لقد تفتحت كرامة الطفل الصغير عباس محمود العقاد على انباء هذه الثورة واحاديثها ولذلك فقد كان له منها ومن زعيمها عرابي موقف ؟

وثورة ١٩١٩ هو كما سنرى واحد من صناعها والاكثر هو كاتبها ومؤيدها بفكره وقلمه فلا بد وان يكون له موقف منها ان بالسلب

او بالايجـــاب ؟

وثورة يوليو ١٩٥٢ التي كان هـو شاهدا لهـا بل وامتدت حياته فـي ظل هذه الثورة مـا يقرب مـن الاثني عشر عامـا فـلا بـدّ وان يكـون لـه موقف منهـا •

ـ ثورة عرابـي ١٨٨٢

للعقاد موقف مؤيـد للثورة العرابية فقـد ظل طوال حياته يدفع التهمـة عن هذه الثورة وزعيمهـا احمـد عرابي • كان يرفض من رجال الحـزب الوطني تهجمهم على الثورة وزعيمها عرابي • بل كان لا يرضى مهاجمة مصطفى كامل نفسه للزعيم احمـد عرابي في مناسبات كثيرة • ان دفاع العقاد عن احمد عرابي كـان فـي واقع الامر يضع هـذا الزعيم المفترى عليه في مكانه الصحيح من الحركـة الوطنية في مصر • ومن المقالات التي كتبهـا العقاد دفاعا عـن الثورة العرابيـة مقال كتبه في المؤيد اسمه ذكرى دخول الانجليز مصر في ١٤ سبتمبر حيث كتب يقول : « على كثرة الذيـن يكتبون عن ذكرى ١٤ سبتمبر أو ذكرى الاحتلال البريطاني للبلاد المصريـة لا نجـد الا قليـلا من الكتاب أنصفوا الذكرى وعرفوا عبرتهـا حق عرفانهـا لان اكثرهم يستمدون علمهم او شعورهم من اكذوبة قديمة عاشت في هذه البلاد خمسين سنة لم يتعرض احد لتصحيحها ، واعادة النظر فيها • الا ما ندر وتلـك الاكذوبة هي ان البطـل المصري احمد عرابـي كـان خائنا لوطنه مأجورا للإنجليز على ان يقوم بالثورة ويمهد لهم سبـل الاحتلال وانه هو المسؤول وحده عما حـدث كلـه وليس هنـاك تبعـة على احـد سواه •

كل هذا خطـأ شنيع بل كذب سافل ، روجه اصحـاب التبعـة الكبرى ليمسحوا جرائمهم في سمعة عرابي واخوانه ويبرئوا انفسهم ويجعلوا اوزارهـم في غيرهم فكل مـا ينى علـى هذا الكذب لا يصلح ان يكون عبـرة تاريخية صادقة ولا ان تتعظ بـه اتعاظا صحيحا فـي فهم الحـوادث والرجـوع بهـا الى منشئهـا • « الذيـن وصفوا عرابي بالخيانـة قد فعلوا ذلك وهم فـي مأمن من التكذيب والمناقشة لانهم علموا ان الرجل واصحابه مغيبون في منفاهم

لا يملكــون وسائل الدفاع عن انفسهم ولا بيان الحقيقــة لمن يجهلونهــا ثــم علموا ان الميدان في هذا البلد خال لهم يستولون على آذان الجيــل الناشىء فيفرغون فيهــا مــا عــنّ لهم من التهم والاباطيل ٠٠ علموا ذلك فلوثوا سمعة الرجــل واصحابه اقبح تلويث وعكسوا الحقائق واسندوا اليــه مــا اقترفوه بأيديهــم ٠

فمن الاكاذيب التي خدعوا بها الجهلاء ان الانجليز قد حالــوا بين عرابي وبين الاعدام ٠ وتوسطوا في نفيه هو واصحابه الــى سيــلان بعــد اصرار الخديوي توفيق على قتلهم اجمعين ٠

قالوا : هذا دليل على ان الرجل واصحابه كانوا متواطئين مع الانجليز على تسليمهم البلاد والا يفهم احد كيف يحارب الانجليز عرابي ويغلبونه ويتمكنون منه ثم يتوسطون في العفو عنه ويحولون بينه وبين الاعدام ٠ وقد لقيت هــذه الحجة قبولا عند الجهلاء وكانت هي اساس مــا شاع من الاكاذيب وكل ما تلبد حــول اسم الرجل من التهم والوشايات وما هي كما ترى الا سخافة لا ينخدع بهــا رجل يعرف حقيقــة الاحوال التي احاطت بالاحتلال البريطاني في بــلاد الانجليــز وفي هــذه البلاد ٠

فالانجليز ما كانوا مستطيعين من جهة ان يحملوا على عاتقهم جريرة اعدام عرابي واصحابه وهم ــ اي الانجليز ــ كانوا اكبر المشهرين بفضائح الحكــم الذي ثار عليه العرابيون وضاقوا ذرعــا باحتماله ٠ فقد سوغ الانجليز احتلال مصر باختلال الحكومة المصريــة والشقاء الذي كــان المصريون يعانونه علــى ايديهــا وتفاقم الفساد الذي اضر بمصالح الوطنيين واصحاب الديون علــى السواء ٠ فمن ابعــد الامور عــن المعقول ان يقبل الانجليز على سمعتهم فــي العالم المتحضر ان يقتلوا اناسا لا ذنب لهم الا الثورة علــى مفسدة هــم اول المعترفين بها ، والمقرين بصعوبة احتمالها وتلك سبة يعلم الذين يتتبعون التاريخ الانجليزي الحديث ان القوم لا يستسهلون حملهــا ولا يودون ان تنسب اليهم وفي وسعهم دفعهــا بذريعــة من الذرائع ٠ هذا من جهــة ومن جهــة اخــرى

يجب ان نذكر في اي عصر حدثت الثورة العرابية . لنذكر كيف عوقب عرابي بالنفي دون الاعدام . فلقد وقعت تلك الثورة في ابان العصر الذي سادت فيه مبادىء الثورة الفرنسية بلاد الانجليز ، وانتشرت بينهم قواعد الحرية الحديثة وآراء الفلاسفة المبشرين بمذاهب الديموقراطية وفي تلك الفترة اجترف نفوذ الاحرار كل نفوذ المحافظين وانصار المذاهب العتيقة .. ففي عصر كذلك العصر ما كان بالمعقول ان توافق الحكومة البريطانية على اعدام اناس يطلبون الحرية ويدعون الى الديموقراطية ولهذا حال الانجليز بين البطل المصري والاعدام وصانوا سمعتهم التاريخية من تبعة قتله في مثل تلك الظروف . لهذا حالوا بينه وبين الاعدام لا لانهم استأجروه ولا لانهم تواطأوا معه على خيانة البلاد .

ثم يتحدث العقاد بعد ذلك عن الثمن الذي تقاضاه عرابي عن «خيانته» كما يقول اعداء الحركة الوطنية في مصر من الرجعيين وانصارهم : .. « ثم اين هي الاموال التي استؤجر بها عرابي وباع بها وطنه كما افترى المنافقون ؟ لقد كانت مصر كلها في قبضة ذلك الرجل فما اقتنى شيئا ولا جمع مالا ولا ترك لابنائه من بعده كثيرا ولا قليلا وان رجلا كهذا لأشرف من ان يتهم بتلك الخيانة القبيحة بل هو اشرف الف مرة من اولئك اللصوص الذين لا تنبسط يدهم الا جمعوا الملايين من السحت والسرقة والاغتصاب » .

ثم يقول العقاد عن عرابي :

« لا . لم يكن عرابي خائنا . ولا متواطئا مع الانجليز . ولكنه كان رجلا مخلصا خذلته الحوادث وانقلبت عليه المآرب السياسية والدسائس الاجنبية ففشل في حركته فشلا لا حيلة له فيه وهو ناقم على حكومة لا يملك الا النقمة عليها وماض في طريق لا يملك الا المضي فيه . ومن آيات اخلاصه انه كان يقبض على زمام الجيش والامة . وكان يستطيع ان ينكل بخصومه تنكيلا لا تنفعهم معه دسائس المستعمرين فما صنع شيئا من ذلك بل رضي ان يظل مستهدفا للمؤامرات الحقيرة مرة بعد مرة دون ان تمتد

يـده الى جرثومة المتآمرين » •

ثم ينتهي العقاد من دفاعه الصادق عـن عرابي ضد الرجعيين بالتأكيد على ان الرجعية هي مصيبة البلاد الكبرى ومصدر الشر والتأخر فيها ••

•• ثورة ١٩١٩

يكـاد يكون العقاد هو الوحيد بين كتابنا في مساهمته تلـك المساهمة الفعالة في ثورة ١٩١٩ •• بل في هذه الفترة بالذات فترة اشتعال الثورة بـرز العقاد ككاتب للشعب بشكل لم نر لـه مثيلا بين بقية كتاب عصره • بـل ان بعض نقاد العقاد ودارسيه يعتبرون فترة قيام الثورة وبعدهـا ببضع سنـوات هي الفترة التي قدمت العقاد ككاتب سياسي من الطراز الاول • بل انهم يربطون شهرته بهذه الفترة بالذات •

وربما يكون لهذا الاسهام البارز من العقاد مبرراته واسبابـه • ومنها ان العقاد وقد تعرف عليه سعد زغلول وآمن بنوهبته ككاتب وعهد اليـه بطريق غير مباشر كتابة المقالات المؤيدة لوجهة نظر الحزب فقد كـان سعـد زغلـول يعرف مقدمـا ان العقاد طراز آخـر من البشر لا تصلح معه الاوامر وانه مـن السهل الانتفـاع بعقليته وثقافته وطاقته اذا حافظوا على كبريائه وكرامته ، ومن هنـا •• من معرفة سعد زغلول لنفسية العقـاد وتركيبة عقلـه استطـاع ان يستفيد منه ككاتب رهبه الخصوم ، ومـن ناحيـة افاده شخصيا حيث اشتهر العقاد واصبح كاتبا له قراؤه ومريدوه سواء علـى صفحـات الاهـرام او على صفحات البلاغ بعد الثورة •

وثاني هذه الاسباب ان العقاد نفسه كان في سن تسمح له بذلـك اذ كان في الثلاثين من العمر •• شابا طموحا متقفا •• ليس هنـاك ما يشغله عـن بناء نفسه والوصول الى اهدافه التي كـان يحلم بهـا في ان يصبح كاتبا يوجـه الرأي العام • وها هي اتيحت لـه الفرصـة لكي يثبت كفاءته وقدرته وكانت الفرصـة بقيـام ثورة ١٩١٩ •

وثالث هذه الاسباب كان في ايمانه بأهداف الثورة نفسها وبانهـا لا بـد

وان تنجح ويزداد حماسه لهـا وايمانه بهـا بعد نفي الزعماء فهنا حـــدث الصدام بينه وبين هـذا الاستعمار الانجليزي الذي يمقته واعوان الاستعمار من الرجعيـة ورجال القصر .

ولهذا ولغيره من الاسباب التي ابرزها نضوجه الفكري ووضوح الرؤيـا عنده لـم يتردد في المساهمـة في الثورة ثم في التمهيد لهـا او في الاشتراك في صنعهـا بعـد ان اشتعلت .

ومما يذكر للعقاد انه كان يكتب منشورات جماعة « اليد السوداء » وهي واحدة من الجماعات الثوريـة السرية التي كانت تعمل اثناء الثورة ، وليس عمله في الثورة كله كـان تحت الارض كمـا يتبادر الى الذهن . وانمـا كـان هنـاك عمله كصحفي يكتب المقالات التي تعبر عـن وجهة نظر القيادة الثوريـة وتدافع عنهـا .

وكما يؤثر عنه في هذه الفترة وهي اوج المد الثوري في ثـورة ١٩١٩ ان كافة الصحف ترجمت بلاغ ملنر قائلة ان القصد من التحقيق الذي جاءت لجنة ملنر لتجريه باستقصاء اسباب الثورة هو اعطاء مصر استقلالها « تحت انظمـة دستوريـة » وكانت هذه هـي الترجمـة التي اعلنتهـا الحكومة في بلاغهـا الرسمي للامة فسايرتهـا فيها عامة الصحف فشذ العقاد عنهـا جميعا حيث ترجم Under self geverneng Institution بعبارة « تحت انظمة حكم ذاتي » ، لا « تحت انظمة دستوريـة » وقد كـانت ترجمة العقاد اقرب الى الدقـة لان ذكـر الدساتير لـم يرد قط في النص الانجليزي وانما كل ما ورد هـو ان انظمـة الدولة ستكون قائمة على ان البلاد ستحكم نفسهـا بنفسهـا داخليا وهو شيء قريب من وضع « الهوم رول » او نظام الحكم الذاتي وليس لـه علاقـة بالوضع الدستوري في البلاد من الناحيـة الفقهيـة لان انظمـة الحكم الذاتي قد تنصرف الى التركيب الاداري للدولة من دون التركيب الدستوري .

ويعلق الدكتور لويس عوض (١) على هذا قائلا : بل ان هـذه الصياغة

(١) الاهرام ٢٧-٣-١٩٦٤ - مقال الدكتور لويس عوض .

الملتوية الماكرة التي ربطت بين مبدأ الاستقلال ومبدأ الحكم الذاتي على هذه الطريقة قد ادخلت المبدأ الاول بالمبدأ الثاني وادخلت العملية كلها داخل نطاق الهوم رول وقد كان لاظهار العقاد هذا التدليس في الترجمة دوي شديد حتى ان العقاد نفسه تعرض للايذاء ولا سيما في عهد كانت فيه مصر تحكم حكما عرفيا . ومن هنا يمكن القول بأن دور العقاد وموقفه من ثورة ١٩١٩ كا نايجابيا .

- ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

لم يكن مستغربا على كاتب ثورة ١٩١٩ واحد المشاركين في احداثها ان يتخذ موقف التأييد لثورة يوليو ١٩٥٢ . لم يكن غريبا ان يعلن العقاد تأييده لهذه الثورة التي جاءت كالربيع تبشر بالحرية امة اضناها صقيع الاستعباد .. خاصة وان الامور في مصر قبل قيام الثورة وصلت الى اسوأ صورة وصلت اليها امة من الامم .

والعقاد يرى ان ثورة ٢٣ يوليو جاءت في وقتها المناسب كما يرى ان هذه الثورة كانت منوطة بالجيش .. وهو بذلك يخالف من رأى من القائلين بأن الجيش ليس له دخل بالسياسة فيرد واذا كان هذا هو موقف الجيش اذن من الذي كان يخلص مصر مما وصلت اليه من فساد في كل مرافق الدولة .

وعلى الرغم من ان العقاد كواحد من رجال العهد السابق ممن عاشوا في ظلال الاحزاب وعملوا بالسياسة المصرية قبل الثورة وعلى الرغم من ان هذه الثورة اتخذت موقفا من الاحزاب بعد قيامها بأشهر حيث اصدرت قانون الاحزاب لتنظيمها ثم الغائها .. على الرغم من ذلك فان العقاد كان يحيي في الثورة اسلوبها السلمي حيث لم ترق نقطة دم واحدة .. وانما جاءت هكذا بيضاء تحاول ان تصوغ الحياة المصرية صياغة جديدة (١) .

ومما يزيد المرء احتراما للعقاد وموقفه من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢..

(١) راجع فلسفة الثورة في الميزان - وثيقة بكتاب العقاد في معاركه الادبية والفكرية - سامح كريم .

انه لم يكـن مثل كتاب ما قبل الثورة كثير المديح بمناسبة وغير مناسبة .. لم يكـن هـذا موقف العقاد .. بل ان حياته الفكريـة تقدمت الـى مجـالات اخرى بعيدة عن الاهتمامات السياسيـة كالاهتمامات الصحفية والاسلاميـة والادبيـة .

ولعل رأي العقاد يتضح في ثورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ فيما كتبه تحت عنوان «الجيش» و «مائدة» حيث يقول : « كل ما فهمه فاروق مـن الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر ان يفرض على كل منهمـا اعوانـا واذنابـا يخدمونـه ويخدمون مصالحهم في وقت واحـد ووقع في خلده انهم يخشونه لا محالة ما دامت مصلحتهم مقرونـة بمصلحتـه وما دامت مناصبهم موقوفة علـى مشيئته فمـا زال على هـذا الجهل حتى انتهى الامر الى موقف لا لبس فيه بينه وبين جيشه . ان هؤلاء الخدم الذين فرضهم على الجيش قد اصبحوا لازمين لـه لحمايته هو من الجيش . ولو وقف الامر عند هذا لكـان الخطب اعظـم مـن ان يستدرك ولكنه كـان اخطـر وافدح مـن ذلـك بكثير : كـان هؤلاء الخدم يحتاجـون الى مـن يحميهم هم من الجيش ايضـا ولم يكـن لـهم تعويل على غير مرجع واحـد فمـن هـو هذا المرجع . فاروق .

لقد كانت السياسـة الرشيدة ان يحتفظ الملك بولاء الجيش لان الامـة كلهـا تديـن لـه بالولاء وتحميه بكـل قوة وفي طليعتهـا القوة العسكرية .

فما زال بـه الجهل حتى اصبح اذنابه واعوانه حمى لـه من الجيش وهم اعجز من ان يحموا انفسهم لو لم يعتمدوا عليه ..

وصل فاروق الى هذا الموقف قبل حرب فلسطين فلمـا تكشفت تلـك الحرب عـن فضائح السلاح لم يبـق في الجيش المصري ضابط ولا جنـدي يضمر الولاء للملك المجرم الذي بلغت بـه الضعة والعياذ بالله ان يتجر بأرواح جنده وهم في ساحـة القتال ، وشملت الريبة كل عامل في القـوى العسكرية من المقربين اليه والمقصيين عنه على السواء ، وغاية ما بينهمـا مـن الاختلاف ان اذنابه المقربين كانـوا ينظرون الـى منافعهم ويخشون علـى مراكزهـم

ويحسبون حساب العقاب ولا يعرفون سبيلا الى المخرج من المأزق الذي انحصروا فيه .. فيودون لو بقي فاروق حماية لهم وهم على هذا متوجسون غير مطمئنين اليه .. ولقد وضح منذ سنوات ان دوام فاروق على العرش أمر مشكوك فيه . ولكنه كان شكا يقترن ببعض الامل في الصلاح وبعض الحيرة في المصير ، ثم اخذ هذا الامل ينقطع شيئا فشيئا واصبح السخط في القلوب غالبا على كل حيرة في العقول حتى اذا كانت الاسابيع الاخيرة من عهده المشؤوم جرى ذكر الكوارث التي تتعاقب على الامة في مجلس يضم اكثر من عشرين مصريا بين اديب وصحفي واستاذ وطالب فقال قائل : وما العمل ؟

قلت انها الثورة لا محيص لنا منها وليكن ما يكون ، والحمدلله جاءت الثورة ولم يمض شهران :

وجاءت سليمة لم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل الامور وقد كان الخلاص من عهد فاروق ضرورة لا يستكثر عليها ان تقدم الامة في سبيلها على خسارة في الارواح والاموال واضطراب الامور شهورا او اكثر من شهور فلما تكفل الجيش للامة بالثورة التي كانت مطلوبة منها عوفيت من جرائرها واهوالها وانتظمت الامور في سياقها وانجلى ملك مكروه من عرشه بأيسر من جلاء عمدة في قرية صغيرة ينصره اناس ويخذله آخرون .

وبحق اعلن الجيش انه يحارب فساد فاروق ولا يقصر حرية على شخص فاروق .

وبحق اعلن كذلك انه فساد في نظام الاقطاع كله فلا يتأتى القضاء عليه اذا انقضى فاروق وترك وراءه الوفا من الفواريق الصغار .

وقبل ان يسأل السائل وما للجيوش ولهذه الشؤون عليه ان يسأل : كيف كان الخلاص لو لم تخلصنا حركة الجيش من فاروق ؟

ان فاروقا قد نزل عن العرش وهو في الثانية والثلاثين من عمره فلو انه

بقي على العرش الى نهاية اجله فلا يعلم الا الله كم سنة تتعاقب على مصر وهي تنحدر من هاوية الى هاوية وتتقهقر من نكسة الى اخرى، وتتهافت من خراب على خراب وتتلطخ بوصمة بعد وصمة من وصمات ذلك الفساد الذي جعلها مضغة في افواه العالمين واسقط الثقة بها في حساب العروض والاعراض.

اما اذا قدر له ان يخلع قبل نهاية اجله فمن المستبعد جدا ان يتفق ملوك الاقطاع الصغار على خلع ملك الاقطاع الكبير وانما يجيء خلعه بقوة اجنبية تعصف باستقلال البلد او بثورة شيوعية تعصف بكل خير فيه وتسلمه الى الفوضى التي لا يدري احد متى تثوب الى قرار .

فاذا كانت ثورة الجيش قد عصمت مصر من احدى هذه العواقب وكلها شر لا خير، فمن حقه بل من واجبه ان يدفع غائلة النكسة عن هذا الوطن فلا يرجع الى الهاوية التي لم يكد يخرج منها ولن تؤمن هذه النكسة مع بقاء نظام الاقطاع على شره الذي عهدناه ولو عقل الاقطاعيون لسبقوا غيرهم الى حمد الله على هذه النتيجة فانها حماية لهم في آخر المطاف .

القسم الرابـع

المذاهب الاجتماعية

الرأسماليـة

الاشتراكيـة

الشيوعيـة

المذاهب الاجتماعية

لا شك ان كاتبا مثل العقاد لا بد وان يكون لـه مواقف مـن المـذاهب والانظمـة الاجتماعيـة تلـك التي تطبق او حتى تطرح على مستوى المناقشة. لا بد ان يكـون لـه موقف من نظام اجتمـاعي كالرأسماليـة الذي كـان مطبقـا قبل الثورة وبعد الثورة حتى صدور القوانين الاشتراكية ، لا بـد ان يكـون لـه موقف من الشيوعيـة .

والملاحظ ان العقاد اهتم كثيرا بمناقشة الشيوعية اهتماما غطى صفحات اكثر من كتاب .. وعدد من المقالات والابحاث المنتشرة في يومياته وساعاته . والملاحظ ايضـا ان العقاد يقدس اي نظام يحترم الديمقراطيـة .. ذلـك لان اهتمامه بالديمقراطيـة راجـع الى انـه يعتبرهـا اسلوب حياة لا بد ان يتبعه وان تحترمه الدولة حتـى انه في معرض حديثه عـن ثورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ يؤكـد ان مـن ايجابياتهـا انهـا ثورة بيضاء غير دموية ، وهذا راجع الـى ان العقـاد كـان يفضل المناقشـة المبنيـة على الحوار الديمقراطي وليس التي يدفعهـا ارهـاب او اغتيالات او سفك دمـاء .. ولا عجب فهـو في الاصل كاتب وشاعر .

وبالنسبة للاشتراكية خاصة قد لا نجد للعقـاد دراسات او ابحاثـا كثيرة

•• ان ما يوجد يعد على اصابع اليد الواحدة لكـــن رغم قلتـــه فـــان قيمته تنبـع من انـه كـان يكتب ذلـك في وقت كـان مجرد الحديث عـن الاشتراكيـة معناه جريمة يعاقب عليهـا القانون • فرأيناه يناقش هذه المبادىء الاشتراكيـة الى درجـة انـه في بعض الاحيـان يتحول الى مدافع عن هذه المبادىء كمـا سنرى في الحديث عن الاشتراكية •

وفي المقابل نجده يهاجم الرأسماليـة في وقت كان الهجوم عليهـا يعـد جريمة ايضـا •• كـان يهاجم هذه الرأسماليـة في صورة الاقطاع ورأس المال ولعلنـا نذكـر ان من دواعي رفضه للانضمـام في صفوف حزب الاحـرار الدستوريين ــ رغـم ما ذكرنـاه من مميزات تغريه على الانضمام ــ انه لاحظ ان اعضاءه يمثلون كبار الاقطاعيين وكبار الملاك في مصر فرأى انه لـن يستطيع بأي حال من الاحوال الاستمرار معهم او حتى الكتابة في صحيفتهم • فهـو من طبقـة وهم من طبقـة اخرى •

اذن للعقاد مواقف من الرأسمالية والاشتراكية والشيوعيـة • فمـا هي هـذه المواقف ؟

الرأسماليـة :

كثيرا مـا كـان العقـاد يهاجم الرأسماليـة ولا يستغرب منـه ذلـك الموقف •• فلو كـان واحدا من ابناء الاسر الرأسماليـة في مصر لما فعل ذلك• ولكـن هو واحـد من ابناء الطبقـة الاقل من المتوسطـة • أليس والده كان يعمل امينـا للمحفوظات في اسوان ؟ لذلك كان اكثر هجومه على الرأسماليـة من خلال الاقطاع ورأس المال ويمكـن تحديد موقف العقاد من الرأسماليـة في اكثر من وقفـة تتركه يعبر عنهـا فهـو يطعن في نزاهـة النحاس زعيـم الوفـد الذي بدأ فقيرا واذا بـه يصبح غير ذلـك بعـد ان يتولى زعامـة الوفد • فيكتب مقـالا يقول فيه « •• اما نزاهة الحكم فوالله ــ عهد علـى الله ــ لا تذكرون في صددهـا كلمة واحدة غير ما قاله مصطفى النحاس بلسانه واعترف بهـا هو كمـا اعترف بها انصاره »

مصطفى النحاس رجل نستغفر الله .. رجل كان فقيرا فيما مضى من الزمان وكان يفخر بفقره ويتقبل البيت الذي يسكنه هدية علنية من الامة الوفدية لانه لفقره ـ لا يقدر على شراء بيت ومصطفى النحاس هذا بنفسه تولى الحكم فقيرا كما كان . ثم راح يطالب الدولة بمائة الف جنيه تعويضا له عن البلور الذي تكسر والتحف التي تلفت . وسرقت منه بعد ذلك جواهر مقدرة ببضعة آلاف من الجنيهات .. »

هكذا يسخر العقاد من مصطفى النحاس وهو في حقيقة الامر يتخذ وقفا من الرأسمالية في صورة هذا الذي يثري على حساب غيره والا فما معنى تأكيده اكثر من مرة في هذه السطور على ان النحاس بدأ فقيرا وانتهى الى ان يطالب الدولة بمائة الف جنيه للبلور والتحف . لا يحدث هذا الا في نظام رأسمالي .

ونفس هذه الحملة التي شنها على النحاس كانت حملته على المليونير أحمد عبود .. وكلنا يعرف هذا المليونير ونفوذه قبل الثورة ولكن العقاد الذي عرف عنه مناصرته للحق والوقوف على المبدأ لا يهمه ذلك ، وكيف يهمه وهو يهاجم عبود لتهربه من الضرائب ؟ انه يقول (١) لقد وصل نفوذ عبود وشركائه الى الطغيان الذي لا يطول السكوت عليه ولولا ذلك لما خطر له ان يستكثر على البلد الذي يكسب منه الملايين ان يسدد له حصته من الضريبة وهي اقل ما يؤديه له من حقوق .

ففي الوقت الذي تلجأ فيه الحكومة الى الاصلاح الضرائبي لتحقيق بعض العدل بين الضرائب والارباح ، في هذا الوقت يطمع عبود وشركاؤه في السيطرة على سياسة مصر دون ان يكلف نفسه حصته من الضريبة التي لا يعفى منها الفقراء واصحاب الدخول المحدودة . وتمضي السنة بعد السنة ويصدر الحكم بعد الحكم وهو مصر على احتجاز حقوق الدولة حتى تتراكم وتبلغ الملايين وان الدولة مع هذا لتوشك ان تهم بالاقتراض لاحتياجها الى

---

(١) الاساس ١٩٤٩/١٠/١٧ .

شيء من هـذه الملايين .

وما الذي يسوغ له هذا الطمع وهذه الاستهانـة ؟ سكـوت الصحف ؟ سكوت السياسـة ؟ سكوت الاحزاب ؟ تأييـد اصحاب الاموال في البـلاد الخارجيـة ؟ »

فان كـان هذا هـو موقفه من رأس المال فما هـو موقفه من الاقطاع ؟ انه يكتب عن الاقطاع بوجه عام منددا به ومؤكـدا انه لم يصلح امة من الامـم حيث يقول : مـن الواضح ان عهـد الاقطاع يلفظ انفاسه الاخيرة في بلـد بعد بلد من بلاد الحضارة . فان لم يمت عبطة يمت هرمـا كمـا قـال الشاعـر او كمـا قال الشاعـر الآخر .

مم لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الاسباب والموت واحد

ففي البلاد التي تقدمت فيهـا الصناعات الكبرى يمـوت بالشيخـوخة ومن بقي من اصحابه فانما يبقى منقسم السلطـان متهدم الاركـان يشاركه في سلطانـه التاجـر الكبيـر كمـا يشاركه الصانع الكبير ، وتشاركه نقابات العمـال كمـا يشاركه قادة الرأي العـام من الساسة ودعاة الاصلاح .

اما في البلاد التي تخلفت فيها الصناعات فلا استقرار له بين اهلها ولا قدرة له على التماسك والثبات في وجه القوى التي تنوشه من جميع جهاته ، وتعمل على التعجيل بذهابه . وقد تقوضت اركانه في بلاد زراعيـة لـم تتقدم فيهـا الصناعة الكبرى ، وتقوضت اركانه في بلاد يتوسط فيها الامر بيـن الزراعـة والصناعة . ولم يكن الفضل في رجوعه بعد ذهابه ـ لقوة فيه او مقاومة فعالة بين اجزائه . وانما كانت علة رجوعه حماقة اعدائـه وجهلهـم بالسلاح الذي يرد به كما تبين ذلك مرتين من تجربة المجر بعد الحرب العالمية الاولى وتجربـة اسبانيا قبل الحرب العالمية الثانية » (١) ..

---

(١) دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية ـ العقـاد .

الاشتراكيـة :

من الخطأ الفادح الخلط بين موقف العقاد من الاشتراكية وموقفه مـن الشيوعية . ان هناك اختلافا كبيرا بين الموقفين ، وعلى الرغـم من ان العقاد في كتاباته القليلة عن الاشتراكية واضح .. ويكاد القارىء يحس بتعاطفه الشديد تجاه الاشتراكية .. نجده على العكس من ذلك في الشيوعية بـل والاكثر البعض يستغل موقف العقاد الحاد من الشيوعية لتسحبه علـى موقفـه مـن الاشتراكية . مع ان كتابات العقاد عن الاشتراكية تؤكد غير هذا .

فعلى سبيل المثال ، نجد له دفاعا مجيدا عن الاشتراكية حين تصدى لهـا بالهجوم«جوستاف لوبون»فكتب مقالا يرد فيه على كتاب جوستاف لوبون ومن جملة ما قال فيه : فالكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والاشتراكية يخيل اليك ان الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الاول او لويس السادس عشر،وانه يكتب عن الاشتراكية بايعـاز من « رتشيلد » او « روكفلر » فتراه ينعي على مبدأ المساواة ولكنك لا تعلم منه كيف يكون عدم المساواة ، وتراه يتشاءم من الاشتراكية كما يتشاءم الناس من نعيب البـوم لا يعلمون لذلـك التشاؤم سببا » .. ويقول العقاد في نفس المقال : « على ان دعـــاة المساواة لم يشطوا في مذهبهم ولا قالوا ان الناس طبعوا على غرار واحد فـي العقـل والفضل وهل ترى ان دعوتهم الى تساوي الناس في الحقوق امام القانون تعطل تنازع البقاء بينهم وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم ؟ اليست هـي احرى ان تفسح المجال لهذا التنازع وترفع العوائق التي يضعها فـــي طريـق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار ؟

وكل ما يمني به الداعي الى المساواة ذلك العامل الفقير انه يكون متساويا مع سائر الناس في الامن على حياته ..وهل في ذلك صغير ؟ ومتى كان مبـدأ المساواة لا يمنع انسانا حق التمتع بثمرة تفوقه في المعارف او المواهب العقليـة على سواه فأي ضير في ذلك » ...

ويواصل العقاد الهجوم على رأي جوستاف لوبون في الاشتراكية فيقول:

« اما الاشتراكية فهو كما يرى من الشذرات التي نقلناها عنه شديد الظيرة منها، وهو يمثلها تمثيلا مشوها ويعمد الى شر مذاهبها فيعرضه على القارىء في حالة مشوهة ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذافيرها فتارة يحكم بأنها ستؤدي بالامم الى ارذل درك من الانحطاط حيث يقول : نعم لا حاجة لان يكون الانسان ضليعا من علم النفس ولا من علم الاقتصاد لينبىء بان العمل بمقتضى مبادىء الاشتراكية يفضي بالامم الى ارذل درك الانحطاط واخزى صور الاستبداد » .

ويقول العقاد : « ان الاشتراكية الصحيحة ليست اسطورة من الاساطير ، ولا هي وعد خيالي ، يبشر الناس بالتعادل في الاقدار والتشاكل في المنازل والارزاق .. كلا فليست المساواة بين الناس من همها ولكنها انما تدعو الى المساواة بين الاجر والعمل وتطلب ان يعطى كل عامل ما يستحقه بعمله وان ينتفع المجموع باكبر ما يمكن الانتفاع به من قوى الافراد » .

ويقول العقاد : « .. والاشتراكية ليست من مصطنعات هذا الجيل ولكنها قديما ظهرت في كل مكان يحرم فيه العامل ويغنم العاطل ، وتطور هذا العصر في فهمها وتوسع في تطبيقها تبعا للتطور الشامل لكل مرافق الحياة ومن بينها علاقات الافراد والامم » .

ويقول العقاد : « لسنا نحن في عصر يتحكم فيه سادة على عبيد او يستبد فيه شرفاء على سوقة ولكن المسألة ظهرت في طورها الجديد وكان ظهورها في هذه المرة بين اصحاب الاموال وطوائف العمال » .

وهكذا نرى في رد العقاد على كتاب جوستاف لوبون الذي ترجمه فتحي زغلول دفاعا غير مباشر عن الاشتراكية وتأكيدا على انها هي النظام الامثل للدولة،فعن طريقها تحل كل المشاكل وتزيل كل الفروق بين طبقات المجتمع » (١)

والعقاد لا يرى ان النظام الاشتراكي غريب على مجتمعنا فهو يرى ان

---

(١) العقاد ـ الفصول ص ٢٠٥ .

مجتمعنا سبق له ان طبق هذا النظام الاشتراكي فيقول :

« وقد اصبحت مصر اشتراكية او شبيهة بالاشتراكية قبل اكثر من مـائة سنة .. ولم تكن اشتراكيتها تطبيقا لنظرية من النظريات التي ينادي بها اصحاب المذاهب الاقتصادية ولكنها كانت اشتراكية عملية تستلزمها احوال الزمن وكانت اسبق الاشتراكيات العملية من نوعها في الزمن الحديث .

كانت الارض كلها ملكا للدولة في عهد محمد علـي الكبيـر . وكانت التجارة الخارجية تدار بيد الحكومة . وهي التي تقـدر لكـل محصول مـن المزروعات الغذائية تناسب الحاجة اليه في اسواق مصر او الاسواق الاجنبية .

وكان عشاق الآراء النظرية ينتقدون هذه الخطة ويفضلون عليها حريـة التجارة والزراعة . ولكنهم كانوا على خطأ مبين في تطبيقهم لهذه الآراء عـلى مصر خاصة في عهد الانشاء او عهد بناء الثورة الصناعيـة فانه عهد يستلـزم التوفيق بين محصولات البلاد وبين ما تطلبه الاسواق الخارجية منها. ولم تكن لهذه المطالب سابقة يقاس عليها وليس في استطاعة الآحاد ان يجمعوا الاحصاءات ويحكموا الصادرات ويفرضوا مشيئتهم على غيرهم من المشتغليـن بالزراعـة والتجارة فلا غنى في هذه الحالة ــ الانشاء والبناء ــ من الاشراف العام الذي لا يستطيعه احد غير الحكومات .

كانت مصر في ذلك العهد « اشتراكية عمليـة او شبيهـة بالاشتراكيـة العملية » ويؤكد العقاد في هذا المقال بان الاشتراكية ليست بالنظام الغريـب على بلادنا ، وتجاربنا وممارستنا لهذا النظام تجعلنا نختار مـا هـو مناسب لنا ولتقاليدنا . ويرى ان المناسب لنا هي الاشتراكية الوسطـى او الاشتراكيـة المعتدلة بين الطرفين طرف : السيطرة الحكومية الشاملة ، وطرف الفوضى التي تتيح لكل فرد ان يفعل ما يشاء ..

الشيوعيـة :

العداء بين العقاد والشيوعية له تاريخ طويل . والخلاف بين الطرفين لـم

يفتر ابدا طوال حياة العقاد • فرأي العقاد في الشيوعية ومؤسسها واتباعهـا لا يقرب وجهات النظر ورأي الشيوعيين في العقاد حتى بعد وفاته لا يجعل المرء يحسن الظن بهم ••

لقد تصدى العقاد للشيوعية بكل طاقته يفند مزاعمها ويناقش اباطيلها • لم يكتف بالقلم وانما توجه ايضا الى فئات الناس من العمال والطلبة والمحامين وغيرهم ليصارع هذا المذهب في ميدان دعايتهم •

والعقاد لم يدخر وسعا في ابداء رأيه في الشيوعية او موقفه منها• انـه يراها قريبة من الحركات العنصرية كالنازية فعلى الرغم من ان الشيوعية والنازية مثلا متناقضان الا انهما في الباطن متقاربان • كلاهما مثلا يعتمد علـى اثـارة الضغينة والبغضاء • ولكن النازية تثير ضغينتها على طائفة في الداخل او عـلى الدول المنازعة لها في الخارج • اما الشيوعية فضغينتها تثار على البرجوازيـة او الامم التي تتعامل برأس المال •

والشيوعية والنازية كل منهما يبطل الحرية الشخصية • ولكن النازية تدعو الفرد الى الفناء في قداسة الزعيم او بنية العنصر القومي،والشيوعية تدعو الفرد الى الفناء فيما تسميه مجتمعا بغير طبقات •

كلاهما يحارب العقائد الدينية ولكن النازية تحاربها لتستبقي سلطـان الزعامة على اتباعها ، ولا تسلم هؤلاء الاتبـاع الى زعامة روحيـة فـي غير معسكرها • اما الشيوعية فهي تحارب الدين لانها تؤمـن بالمادة دون سواها• وكلاهما يدعي انه فلسفة حياة اي انه عقيدة كافية لعقل الانسان وضميـره فلا حاجة للانسان الى نظرة كونية او علة اخلاقية •

وبهذا المنطق من الهجوم قرب العقاد بين الشيوعية الفاشية والصهيونيـة وغيرها من الحركات العنصرية التي يرفضها الانسان •

وهجوم العقاد على الشيوعية غطى صفحات اكثر من كتاب الا اننا نختـار هذا المقال الذي يقول فيه : من الاوهام التـي جعـلت بعض الناس يظنون ان

الانتماء الى الشيوعية مقصور ـ او ينبغي ان يكون مقصورا ـ علـى الفقراء والمعوزين ان اولئك الواهمين يعتقدون ان الشيوعية دعوة الى انصاف الأجراء والعمال •

وهذا هو الوهم الاكبر في فهم هذا المذهب (١) •

وهذا هو سبب الحيرة التي يحارها بعض الناس كلما سمعوا ان صهيونيا مرابيا يبشر بالشيوعية وهو آخر من يبالي بانصاف وآخر من يفكر فـي الرأفة بالضعيف او كلما سمعوا ان غنيا ميسور الحال يحارب النظام الاجتماعي خدمة للدعوة الشيوعية او كلما سمعوا ان فتاة تتعصب للشيوعية وهي من العاكفات على اللهو والمجون •

•

ومصدر هذه الحيرة كما تقدم هو الخطأ في فهم الغرض الاصيـل مـن الشيوعية • واعتقادهم ان غرضها الاصيل هو انصاف العامل والاجير •

وليس انصاف العامل والاجير غرضا اصيلا في دعوة كارل ماركس الذي كان هو نفسه صهيونيا ، لم يعرف عنه قط في حياته انه رحم احدا من الناس او تأثر بعاطفة انسانية •

وانما كان غرضه الاصيل هو اثبات العقيدة المادية ، وتحطيم كـل عقيدة ادبية او روحانية • ومن هنا كان اسم مذهبه المشهور بين مـذاهب الفلسفة «المادية الثنائية» •

ومن هنا كان الصهيونيـون مبشريـن بالشيوعيـة • وكـان من انصار الشيوعية كل فاسد الطبع مبتلى بداء الاباحة والابتذال منطوي النفس علـى الرذيلة كما كان من انصارها كل ناقم على الدنيا يود لو يخربها على مـن فيها لعاهة جسدية فيه او عاهة نفسية شر من عاهات الاجسام •

ومتى كانت الشيوعية كذلك فـلا عجب فـي ان يديـن بها المرابـون

---

(١) دراسات في المذاهب الادبيـة والاجتماعيـة ص ٢٠٨ •

الصهيونيون الذين يستنزفون دماء الفقراء قبل الاغنياء لان تحطيم عقائد الاديان والاوطان وقيام العقائد المادية يسلم زمام الدنيا الى المرابين سماسرة الاموال فيصبح العالم البشري كله صهيونيا للصهيونيين •

ولا عجب في ان يدين بها الفتى الاباحي والفتاة الاباحية لان المذهب يسوغ لهما النقيصة التي ابتليا بها • ويجعل امثالهما من التقدميين الاحرار بدلا من وصمة الخسة والابتذال التي يوصمون بها اذا بقيت للناس عقائدهم في الاديان والاخلاق •

ولا عجب في ان يدين بها اشخاص يبغضون الدنيا ومن فيها • ولا يعنيهم صلاحها وفسادها ولا سيما المشوهين واصحاب العاهات والدنسين والمنبوذين لان شهوة الخراب في نفوسهم تحبب اليهم كل دعوة تجعل عاليها سافلها وسافلها عاليها وتنعي الدار ومن بناها •

فالشيوعية هي مذهب النقمة والاباحة وقلب الاوضاع • وهي من ثم ملتقى المخربين وذوي العاهات الجسدية والنفسية • ولا عجب في اجتذابها لعناصر الفساد والخسة ايا كانت مصادرها سواء بين المترفين الميسورين او بين المعوزين المعدمين •

والشيوعي أول من يغضب ويشعر بالاخفاق والفشل ، اذا صلحت احوال الفقراء والاجراء بغير قيام العقيدة المادية ••

لان قيام العقيدة المادية هو الغرض الاصيل والوجهة الاولى التي اتجه اليها كارل ماركس حين بشر بدعوته الخبيثة •

ولهذا يستميت الشيوعيون في محاربة كل حكومة تعني بالاصلاح وتيسر اسباب المعيشة كما يفعلون الان في الهند واقطار اسيا الشرقية • وفي الاقطار التي يعمل زعماؤها على تقريب الطبقات والحد من مطامع المستغلين واصحاب الاموال ••

واول من ييئس ويحزن اذا استراح الاجراء والفقراء هم طغمة الشيوعيين لانهم يريدون ان يظل الاجراء والفقراء دائما متذمرين متبرمين مستعدين لقبول دعوة التخريب والاباحة والتمرد على الاديان والاداب • ويحزنهم ويذهب بجميع مساعيهم ان يشعر هؤلاء بالرضا ويسر المعيشة والاطمئنان •

لقد كانت آخر كلمة في منشور كارل ماركس باسم المانفستو •• انكم «يا صعاليك العالم لا تفقدون شيئا » •

ومعنى ذلك انه يريد دائما ان يخاطب اناسا لا يعنيهم خراب العالم لانهم اذا خربوه لم يفقدوا شيئا فيه •

والخراب هو الغرض المقصود اذا كان العالم الذي تهدمت اركانه وتقدمت دعائم الاجتماع والاخلاق فيه هو العالم الذي يملكه الماديون وسماسرة الاموال بغير عائق من أدب او خلق او دين •

ومن هم الماديون وسماسرة الاموال ؟

هم ابناء جلدة كارل ماركس من الصهيونيين •

اما الوهم الذي تسرب الى بعض الاذهان عن دعوة الشيوعيين الى انصاف الاجراء فمصدره انهم يفسرون كل شيء في المجتمع الانساني بأسباب تتعلق بالفلوس دون غيرها •

فالفلوس عندهم هي التي اوجدت الآداب والفنون والاخلاق لخدمة الطبقة الحاكمة •

والفلوس هي التي اوجدت طبقة الفرسان ثم طبقة الاقطاعيين ثم طبقة البرجوازيين ثم طبقة العمال والاجراء فليست مسألة العمال والاجراء عندهم الا نتيجة لتطبيق الفلسفة المادية والعوامل الاقتصادية •

وهي كلها ذنب في المذهب يأتي آخرا • وليست هي الرأس الاصيل الذي يأتي اولا وبالذات كما يقولون •

وانما الرأس الاصيل هو سيادة المادة وبطلان العقائد الادبية والروحية•

ومن ثم لم يكن هناك عجب ان ترى صهيونيا يبشر بالشيوعية • او ماجنا يبشر بالشيوعية او ناقما يبشر بالشيوعية لانها بطبيعتها مذهب اصحاب العاهات سواء ما كان منها عاهة جسوم او عاهة نفوس » (١) •

القسم الخامس

الاحداث الوطنية

تصريح ٢٨ فبراير	١٩٢٢
دستور	١٩٢٣
معاهدة	١٩٣٦
حادث ٤ فبراير	١٩٤٢
تحديد الملكية الزراعية عام	١٩٥٢
التأميم	١٩٦١

الاحداث الوطنيــة

ليس صدفة ان يصاحب ظهور العقاد ككاتب سياسي يملأ الدنيا ويشغل الناس كثرة الاحداث التي يمر بها الوطن والتي كانت تضعه وغيره من الكتاب والمفكرين امام مسؤولياتهم .

فهذه الفترة التي تمتد من عشرينات هذا القرن الى ستيناته . حفــلت بالاحداث الوطنية .. تلك التي كان السكوت عليها من رجل مهنته التفكيــر والتعبير امرا مستحيلا . ففضلا عن كون هذه الاحداث تشكل في مجموعهــا صفحات من تاريخ مصر الحديث وانها تدعو الــى النظــر والاهتمــام لدى المخلصين والشرفاء من ابناء الشعب .. فهي تثير حفيظة العقاد ، وتضطره الى اتخاذ عديد من المواقف المتشددة والعنيفة .. والتي رغم شدتها وعنفهــا الا انها افادت واثرت حيث ساهمت وشاركت في توضيح ملامح التفكير المصري،فعلى ضوء هذه المواقف التي اتخذها العقاد من هذه الاحداث الوطنيــة وضحت الرؤيا امام الجماهير وكشفت نوايا من يتربصون الدوائر بالشعب .

وليس مبالغة او اسرافا ان قلنا ان مواقف العقاد من هــذه الاحــداث الوطنية قد لا نجد لها مثيلا لدى الكثيرين من حملة الاقلام ورجال الفكــر

داخل هذا الوطن • ولا عجب ان تكون هذه صورة العقاد • فقد عرف عـنه ايمانه الذي لا يتزعزع بوطنيته مما جعل حياته كما رأينا تتحول الى سلسلـة من المواقف وحلقات من النضال فلم يحدث ولو مرة واحدة ان كان موقفه هو موقف المتفرج على هذه الاحداث او انه كان مأجورا لاي جهة من الجهـات حين يتخذ موقفا •• بل كان دائما وسط المعركة يؤدي واجبه بجدية واخلاص• فالمسألة كانت عنده تتعلق بحياة شعب ومستقبل امة •

ويبدو ان هذا الاسلوب من العمل الوطني كان يشغلـه فـي السر كما يشغله في العلن • انه يكتب ذات يوم على صفحات جريدة الدستور وكأنـه يكشف خبايا نفسه وما تنطوي عليه مقالا عنوانه « جدوا فالحوادث لا تهزل» يخاطب فيه اصحاب الكلمة واولي الرأي ان يتخذوا من الجدية اسلوبا فـي مناقشتهم لهذه الاحداث فيقول مثلا : جدوا يا قوم جدوا جدوا فان الدنيـا لا تهزل لن يفيدكم ولن يقترب بكم من احلامكم ولـن يضير خصومكم بـل ضمائركم لا محالة وان كنتم في غيبوبة ــ الحقد والضغينة •• لا تبالون بما ينفع وما يضير ••

وكان العقاد يستنهض غيره ان يعمل بعيدا عن الحقد والضغينة والهزل•• فكلها من الآفات التي تضرهم اكثر من ان تضر الغير ممن يتصورون انه هـو الذي يضيرهم• الضرر من داخلهم وليس بعيدا عنهم • والحق ان هذا الاسلوب يقودنا من فكر العقاد في مواجهته لهذه الاحداث الوطنية التي كانت تمـوج بها هذه الفترة من تاريخ مصر الحديث مما يلحظه القارىء في هذا الفصل او في غيره من فصول موزعة في هذا الكتاب • وهذه الاحداث التي مرت بها مصر•• وتركت بصماتها على صفحات تاريخها الحديث كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ودستور ١٩٢٣ ومعاهدة ١٩٣٦ وحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وتحديد الملكية الزراعية عام ١٩٥٤ والتأميم عام ١٩٦١ •

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

بعد ثورة الشعب في مارس عام ١٩١٩ •• والتي هدفت الى المطالبـة بالاستقلال وانهاء الاحتلال البريطاني لمصر كما رأينا •• ارادت بريطانيـا ان تقوم بمهادنة القوى الشعبية الثائرة وان تمتص هذا الغضب الذي عم البـلاد

على وجودها بمصر . وهنا قامت بعملية تبريرية امام هذه القوى وامام الرأي العام العالمي .. فيها تكتسب ايضا البقـــاء سنـــوات اخرى فـي مصر . فابتدعت تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ فيه زعمت انها قد الغت حمايتها ووصايتها على مصر . ولكن الحقيقة تخالف ذلك شكلا ومضمونا .. بدليل ان تواجد الانجليز استمر حتى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والمطالبة بانهاء الاحتـلال البريطاني فتم ذلك عام ١٩٥٤ .

وقد انتهز العقاد فرصة تولي «جورج لويد» مهام منصبه كمندوب سامي في مصر خلفا للمستر «نيفل هندرسون» .. فهاجم هذا التصريح وما ينطوي عليه من مهازل واكاذيب فكتب مقالا بجريدة البـلاغ العدد الصـادر فـي ٤–١٠–١٩٢٢ معلقا على ذلك حيث يقول : لما القى السير جورج لويد خطبتيه منذ شهرين لاحظنا عليه امرين احدهما انه اشار الى اداة الحكـم فـي مصر فقال ان اشكال الاداة ليست بذات اهمية كبيرة وانما المهم هو الروح الـذي يسير دفة الاداة فأرانا بذلك ان المندوب الجديد يريد ان تكون لوظيفته علاقة مباشرة بالادارة المصرية في الشؤون الداخلية . والامر الاخر ان خطبتيه علـى اسهابه فيهما وتعرضه لعدة مسائل تاريخية وسياسية قد خلتا مـن ذكـر لكلمة الاستقلال خلافا لما اعتاده الساسة الانجليز بعد الغاء الجماعة البريطانية . وظاهر ان السكوت عن ذكر الاستقلال لم يأت عفـوا ولا سهوا . لان امثـال السير جورج لويد . اذا وقفوا للكلام في المسائل الخطيرة التي تعهد اليهم وزنـوا عباراتهم بميزان الدقة والقصد وعرفوا ما يفوهون به ومـا يسكتون عنـه ، وقالوا ما يقولون بعد تأمل وروية لا محل فيها مـن لغتات اللسان وهفـوات الارتجال . فهو اذا تعمد السكوت عن الاستقلال في خطبتين كبيرتين فذلـك امر جدير بالملاحظة يحمل معناه في اطوائه ولا معنى له الا ان الرجل لا يريـد ان يعترف بذلك الاستقلال كما نود نحن المصريين . او كما تعود الساسـة البريطانيون في كلمات المواربة والمداجاة التي طالما زخرفوهـا علينـا وعلـى العالم . وانه مع ذكره لاداة الحكم في مصر – يريد ان يجعل للسياسة الانجليزية سيطرة فعلية كاصرح ما يمكن ان تكون على الحكومة الداخلية .

ذلك ما كنا نلاحظه على خطبتيه المبهمتين منذ شهرين . اما الان فـلم يدع السير جورج لويد لسامعيه من حاجة الى البحث والاستنتاج لان ما كان

يفهمنا اياه بالتلميح اليه او السكوت عنه قد ظهر الان بعبارة مكشوفة لا لبس فيها • فعلمنا منها إن خلو خطبتيه السابقتين من ذكر الاستقلال لم يكن عبثا غير مقصود • وان اشارته الى اداة الحكم لم تكن مجرد حكمة تساق في معرض الامثال • فهو يسمي استقلالنا الحاضر حكما ذاتيا ضيقا لانه يقول « ان التوفيق الواجب بين مصالح بريطانيا الحيوية والاماني الطبيعية المشروعة الطامحة الى حكم ذاتي - اوسع نطاقا في مصر لا يمكن احداثه الا بعامل واحد هو ان نجعل مصر تشعر شعورا صحيحا بان انجلترا هي اخلص صديق لها ، واعظم ناصح امين » ومتى كان الحكم الذاتي الواسع هو اقصى ما نطمح اليه في المستقبل فلا جرم ان يكون حكمنا الذاتي « الحاضر ضيقا محدودا يحتاج الى النصح والارشاد من انجلترا او من مندوبها في مصر بطبيعة الحال. ويضعنا في ظل الوصاية البريطانية التي زعم الانجليز انهم الفوها حين الفوا حمايتهم بتصريح ٢٨ فبراير الموهوم • الذي لا يزال له اشياع من المصريين يروجون له ويعالجون ان يدسوه على الامة في زي الاستقلال الصحيح •

واصرح من ذلك في اعلان الوصاية او الحماية على مصر • وصفه اللورد كرومر اذ يقول عنه انه « كان عدوا لكل نوع من انواع الظلم • صديقا لكل تقدم قائم على النظام • فنظم بحكمته تقدم الشعب المصري • وكان يقول دائما انه يسير معالجا الظروف والاحوال والنظريات ، ولقد حلت السياسة الان في مصر محل العمل الاداري على الجملة ولكن من المؤكد انه ينبغي ان تبقى الصفات العظيمة المنطوية على العطف على الشعب المصري وامانيه • والرغبة القوية فيما يؤدي بمصر الى الرقي الجميل نصب عيني كل انجليزي يسترشد بها في كل اعماله •• فالسياسة قد حلت في مصر محل الادارة على الجملة. ولكن ذلك لا يمنع ان يكون للانجليز عمل في الشؤون المصرية • يسترشدون فيه بطريقة لورد كرومر الادارية • ويمضون فيه على سنة العطف على المصريين والرغبة في ابلاغهم الى الترقي الجميل •

ومغزى هذا الكلام بلفظ آخر • ان امانينا والاعمال التي تؤدي الى ترقيتنا لا تزال في قبضة الايدي الانجليزية التي تسير على اثار اللورد كرومر. ترجو لنا من الحرية والاستقلال مثل ما كان يرجوه •

هذه نغمة جديدة نسمعها من الرجل الذي اسندت اليه مهمة العلاقات بين بريطانيا ومصر فمن المسؤول عن هذا الادبار السريع الذي منيت به القضية المصرية ؟ من المسؤول عن هذا الموقف الذي جعل السير جورج لويد ينتقل من التورية والتلميح قبل شهرين اثنين الى التصريح والاعلان في هذه الايام؟ المسؤول عن ذلك بلا خلاف الذين افهموا الانجليز باعمالهم واقوالهم ان المصريين قد سئموا حكم المصريين وانهم قد تاقوا من فرط الظلم الذي نزل بهم وسوء الادارة الذي فشا بينهم الى عودة السيطرة الانجليزية على مرافق البلاد كما كانت في عهدي الحماية والاحتلال . والانجليز قد فهموا ذلك وجهرت به صحفهم وهي تعدد مساوىء الوزارات المصرية التي تسلمت مقاليد الحكومة من عهد الدستور الى الان ، ولسنا ننسى نحن ان ظلما من اقبح الظلم قد حاق بأبناء هذه البلاد في الايام الاخيرة . ولكننا نرى ان الانجليز يسيئون الفهم ويخطئون مدلول الحوادث اذ توهموا ان الشكوى من الوزارات المصرية تعني عند المصريين العدول عن المطالب القومية واليأس من صلاح الحكومة الوطنية فالواقع المقرر ان المصريين لا يعتبرون حكم تلك الوزارات الا حكما انجليزيا صرفا تنفذه سياسة انجلترا ، او تسنده الجيوش والاساطيل الانجليزية. اذ لا يمكن ان يكون الحكم مصريا حرا ولا رأي للامة فيه ولا كلمة لها في انتخاب نوابه ومنفذيه وهذه الامة قد سئلت رأيها في حكومة الشعب فاعادت لها الثقة بها بعد ارهاق واعنات لم يعرف لهما مثيل في انتخابات الامم فما معنى ذلك الا ان الامة تريد حكومة شعبية من رجالها المختارين ؟ وما سر وثوقها بالوفد الذي احتملت الشدائد في سبيل انتخابه الا انه يأبى السيطرة الاجنبية ويخلص السعي في تحرير الادارة من ايدي المحتلين وتسليمها الى ايدي ابناء البلاد ؟

ثم ما هذا الذي تنشغل به الوزارة المصرية القائمة من سن قانون انتخابها الرجعي اذا كان الانجليز واذناب الانجليز على يقين من حنق الناخبين على رجال الحكومة الشعبية الاولى الذين يحاربون الان بكل ما يستطاع من حيل التضييق والتلفيق ؟ اليس هذا تناقضا بينا يجب ان يدل الواقعين فيه على خطر عظيم يوشك ان يندفعوا اليه اذ يبنون سياستهم على ذلك الخطأ الملموس ؟

ويقول السير جورج لويد : ان لورد كرومر كان « عدوا لكل نوع من انواع الظلم وليس في مصر الآن الا نوع واحد من الظلم هــو ظلم السلطــة الاجنبية تحرك به اذنابها من ضعفاء المصريين ، ولكن الا يفهم الظالمون القائمون بالحكم في هذا الوقت ان الاشارة قد اعطيت لهم بانتهاء الفرصة التي ساقوها او ارادوها وانه قد آن الاوان لتغطية السلطة الاستبدادية بغشاء من الحريــة والدستور » •

فالسياسة المقبلة قد وضعت طريقها كله من الوجهة الانجليزية ويجــب الآن ان يبحث الدساسون «الدستوريون» عن وقفة جديدة يتقربون بها الى سادتهم المتحولين عنهم تناسب هذا البيان الجديد اما الدس للوزارة الحاضرة بتخويف الانجليز من تقربها الى الوفد او بعبارة اخرى الى الامة فتلك رفية بالية لا تفلح عند الانجليز ولا عند المصريين » ••

في هذا المقال الذي قصدنا ان تنشره كاملا يهاجم العقاد تصريــح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وما جاء فيه بمناسبة خطبتي المندوب السامي البريطاني المستــر جورج لويد •

دستور ١٩٢٣

للعقاد مواقف مشهودة بالنسبة لوضع دستور ١٩٢٣ او الغائه او اعادته والمطالبة به وتاريخنا لا ينسى موقفه الباسل من محاولة الملك فؤاد اجهــاض الدستور • فبعد ان شكلت وزارة عبد الخالق ثروت ٧ ابريل ١٩٢٢ لجنــة الدستور المعروفة بلجنة الثلاثين لوضع الدستور وفرغت من مهمتها فــي ٢١ اكتوبر ١٩٢٢ رفع عبد الخالق ثروت مشروع الدستور الى الملك فؤاد لاعلانه فاخذ الملك يماطل ويسوف لانه رأى ان الدستور يحد من سلطته المطلقــة وكان يرى اسقاط عبارتين من مشروع دستور ١٩٢٣ • الاولى ان الامة مصدر السلطات والثانية ان الوزارة مسؤولة امام البرلمان وحاول الملك توسيط عدلي يكن للحد من هذا الاتجاه الديمقراطي • ولكن عدلي رفض ان يتدخل ولمــا رأى الملك فؤاد اصرار عبد الخالق ثروت على المضي في اصدار الدستور اخذ

يكيد لوزارته ليطيح بها حتى نجح في حمل عبد الخالق ثروت على الاستقالة ليحل محله محمد توفيق نسيم الذي اتفق مع الملك لمسخ مشروع الدستور واعلانه بالصورة التي يرضاها الملك . وهنا وجد الانجليز الفرصة سانحة لاقتناص المغنم . فأرسلوا انذارا الى نسيم طالبوه فيه بحذف المادة ٢٩ التي تنص على ان لقب الملك هو ملك مصر والسودان والمادة ١٤٥ التي كانت ترتب للسودان نظاما للحكم خاصا به وقبل نسيم الانذار البريطاني وحذف من مشروع الدستور المواد الخاصة بالسودان ثم استقال ليحل محله يحيى ابراهيم الذي اراد ان يسير على خطه السياسي في مسخ مشروع الدستور لولا اشتعال السخط في كل مكان وتجدد الحوادث وفي هذه الفترة (١) برز العقاد وكشف القناع عن الدسائس التي كان الملك يحيكها خفية للدستور . وكتب في جريدة البلاغ قائلا : ان الدستور كما كتب يعلن واذا كانت به اخطاء فان البرلمان يناقشها وحين استمع امر الملك لم يجد مناصا من التراجع فأصدر الدستور كما وضعته اللجنة في ١٩ ابريل ١٩٢٣ فيما خلا النصوص المتعلقة بالسودان.

كذلك من المواقف التي تحسب للعقاد في هذا الصدد انه حين القى سعد زغلول في عام ١٩٢٤ خطبة العرش الاولى في البرلمان الاول بعد اعمال دستور ١٩٢٣ بوصفه رئيسا للوزراء كان من المنتظر ان يكتب العقاد تعليقا على خطبة العرش في البلاغ حيث كان العقاد كاتب الوفد الاول والكاتب السياسي للبلاغ وصدرت البلاغ بلا تعليق ولما عاتب سعد زغلول العقاد اجابه الاخير بانه لم يكتب لعدم اقتناعه بعبارة الاماني القومية في السودان الواردة في خطاب العرش واشتبك العقاد مع سعد زغلول في نقاش حول هذه النقطة وعلاقتها بما حدث من توفيق نسيم حين قبل الانذار البريطاني وحذف كل النصوص المتعلقة بالسودان فلما نفد صبر سعد قال له : لو حاسبني كل فرد في الامة حسابك لعجزت عن اعباء وكالتي عن الامة فاجابه العقاد بقوله : ولكن ليس كل فرد في الامة عباس العقاد : فابتسم سعد زغلول وقال صدقت ليس كل فرد في الامة عباس العقاد .

ولما اقام محمد محمود ديكتاتورية اليد الحديدية عام ١٩٢٨ وعطل دستور

(١) راجع مقال الدكتور لويس عوض بالاهرام ٢٧–٣

١٩٢٣ الى اجل غير مسمى هاجمه العقاد هجوما عنيفا على صفحات البلاغ امرا الهب حماس الجماهير مما جعل الاضرابات والمظاهرات تقوم لهذا السبب .

ونجحت المقاومة الشعبية في الاطاحة بحكومة محمد محمود واعيد الدستور واجريت الانتخابات وتولت حكومة النحاس السلطة التي لم تدم الا بضع شهور بسبب عدم توصلها الى تفاهم مع الانجليز وعندئذ اقالها الملك واقام وزارة اسماعيل صدقي وهي ديكتاتورية اصحاب المصالح الحقيقية فالغى دستور ١٩٢٣ واعلن مكانه دستور عام ١٩٣٠ وهنا تجددت المقاومة اكثر واكثر . وفي هذه الفترة برز العقاد من جديد ولكن بصورة حادة وعنيفة لم تشهد لها الصحافة مثيلا . لقد ارتجفت امامه الوزارات والاحزاب بل والعرش نفسه وكان العقاد الى جانب كونه في الاصل كاتبا فهو نائب في البرلمان وبرز موقف العقاد حادا عنيفا حين تكشفت نوايا الملك فؤاد لحل البرلمان . هنا وقف العقاد وقال كلمته الخالدة « ان الامة على استعداد لان تسحق اكبر رأس في البلاد من اجل صيانة الدستور » تلك الكلمة التي قادته بعد ذلك الى السجن ليبقى فيه تسعة اشهر .

وسقط اسماعيل صدقي وسقط معه دستور ١٩٣٠ وجاءت حكومة توفيق نسيم الانتقالية عام ١٩٣٤ وكان مأمولا ان تعيد الى الامة دستور ١٩٢٣. ولكنها سوفت وظل الوفد كما رأينا في الصفحات السابقة يؤيدها املا في ان تعيد الدستور الملغي وان تحدد الانتخابات ولكن العقاد الذي قاتل بكل هذه الضراوة في سبيل دستور ١٩٢٣ احس بأن وراء هذا التسويف نية سيئة وهنا شن حملته المشهورة على وزارة نسيم، تلك الحملة التي كانت سببا في خروجه على الوفد بسبب تمسكه برأيه في نسيم ووزارته بل انه هاجم الوفد نفسه حين احس بانه يفرط في دستور ١٩٢٣ مكتفيا بمكاسب جزئية وقانعا بمعسول الوعود . وخروج العقاد على الوفد وهجومه له كانت بداية لمحنة حقيقية تعرض لها الوفد حين انشقت قاعدته جماعات شعبية اشد اصرارا على الديمقراطية من قيادته .

معاهدة ١٩٣٦ :

بعد ان تولت حكومة مصطفى النحاس تقاليد السلطة في البلاد بعد الانتخابات في ١٠ مايو ١٩٣٦ .. تم توقيع الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا . وبطبيعة الحال نشطت بعض الاقلام ونهضت لتحية هذه المعاهدة فأخذت تكيل المديح والثناء للنحاس بنتيجة ابرامه تلك المعاهدة مؤكدة انه بتوقيعها انتهى التدخل البريطاني وفاتهم في زمرة الدعاية الكاذبة (١) التي حاولوا ان يضمدوا بها الانسلاخات التي الحقتها مقالات العقاد بالوفد والنحاس نفسه ان تدخل الانجليز سيكون بالطرق السلبية التي حدثت على مسرح السياسة فيما بعد .

ولم يدع العقاد الكاتب البعيد النظر والسياسي المفكر هذا الحدث يمر . فأخذ يكتب اولا مبينا عيوب تلك المعاهدة وانها لن تكون الا حبرا على الورق وثانيا يكشف سقطات هذه الاقلام المأجورة التي كان ينبغي ان تكون اكثر امانة واخلاصا ووعيا بالقضية المصرية مسارها ومصيرها .

وقد حفلت جرائد مصر الفتاة بمقالات العقاد التي تندد بحكومة الوفد التي وقعت هذه المعاهدة وتنقد بنود هذه المعاهدة لا سيما ما يختص بزيادة المناطق العسكرية التي تحتلها القوات البريطانية بعد المعاهدة عن المناطق التي احتلتها قبلها وكذلك تحديد عدد القوات البريطانية في الاراضي المصرية وقت السلم بعشرة الاف جندي واربعة الاف طيار عدا الموظفين والاداريين والفنيين تزيد هذه الاعداد في حالة الحرب او قيام حالة دولية مفاجئة كذلك الزام مصر ببناء مساكن للضباط الانجليز ، وبالنسبة للسودان فقد نصت المعاهدة على ان تبقى ادارته مستمدة من اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ . وكشف العقاد معنى هذه النقطة بالذات وهو ان الجيش المصري في السودان يكون جيشا مصريا تحت قيادة حاكم بريطاني بحكم نصوص هذه المعاهدة .

وقد كتب العقاد في نقده للمعاهدة مقالا في صحيفة الضياء قال فيه :

---

(١) راجع العقاد معاركه في السياسة والادب ص ٢١٥ – عامر العقاد .

« غنيمة الشرف والاستقلال بغير شك ولا مراء هي الوثيقة التي قضينا الاسابيع والاشهر نسمع من الصادقين الامناء انها خير الوثائق وافضل المعاهدات •

هي المعاهدة التي اخذنا من الانجليز ما لم يرضوا اعطاءه ولا النزول عنه لاحد من الزعماء السابقين وفي طليعتهم سعد زغلول •

هي المعاهدة التي من شك في وصفها بهذه الصفة • فقد وجب ان يكون هو عرضة للشكوك • اما الذين انتفعوا بها ونفعوا الاقارب والصنائع واقارب الاقارب وصنائع الصنائع فلا شك فيما يقولون ولا شك فيما يصنعون•

نعم غنيمتنا الكبرى هي المعاهدة التي بقينا الاسابيع والاشهر نحار كيف يجسر «انتوني ايدن» على الظهور بها في مجلس النواب الانجليزي دون ان يتأهب لها بحملة الحراس ووقاية الحصون ودون ان يؤمن على حياته تامينا مضاعفا في جميع الشركات ان وجد منها من يقبل التأمين •

ثم وقعت المعجزة التي جعلتها افضل المعاهدات فجعلتها هناك ايضا افضل المعاهدات وخرج الانجليز وقد نالوا بها ايضا اكثر مما طلبوه وحلموا به وطمعوا فيه •

ولم يقل هذا احد من حزب العمال حتى يقال ذلك شيوعي « ولا يبالي الوطنية الانجليزية ولا يحفل قيام الدول والامبراطوريات » •

ولم يقل هذا احد من حزب الاحرار حتى يقال ذلك «حالم» من اتباع الخيال او ممن يعرفون للشعوب الضعيفة بعض الحقوق •

ولم يقل هذا احد من عامة المحافظين حتى يقال ذلك رجل محنك يرضى بالقليل ويقنع بما تواتيه به «الظروف» •

كلا لم يقل ذلك احد من العمال ولا من الاحرار ولا من عامة المحافظين

بل لم يقله احد من الغلاة الذين نجهل ما يطلبون وما يدعون من السيادة على هذه البلاد وانما قاله رجل معروف عندنا بالشطط في انكار الحقوق المصرية ومعروف هو وزملاؤه عند الانجليز بالمستميتين في حب الاستعمار الذين لا يقفون في مطامعهم او في احتقار الامم الشرقية دون التطرف الى اقصى الحدود .

قال ذلك اللورد لويد والقى نفسه امام حقيقة ناصعة لا تحتمل المكابرة ولا التشكيك . فلم يسعه الا ان يصرح « بان المواد العسكرية في المعاهدة جاءت افضل بما لا يقاس من كل ما اتفق عليه من قبل وجاءت «التيمس» في اليوم التالي تقول : « ان شهادة المتتبعين للمعاهدة قد دلت على انها لم تدع قط شيئا للطوارىء وللمصادفات » .

فالشروط العسكرية ليست خيرا من الشروط في المعاهدات السابقة وليست مثل الشروط في المعاهدات السابقة .

وليست افضل قليلا من الشروط في المعاهدات السابقة كلا بل هي افضل بما لا يقاس من تلك الشروط جميعا : يصرح بذلك واحد من المعروفين بالمبالغة في بخس القضايا الوطنية والقضية المصرية خاصة، ولا يصرح به واحد من العمال او من الاحرار او من عامة المحافظين .

هذا هو الحكم في الشروط العسكرية فما هي قضية الاحتلال كلها غير قضية الشروط العسكرية .

وكيف تكون الوثيقة في وقت واحد وثيقة التفريط والاحتلال ، ووثيقة الشرف والاستقلال .

واذا كانت الشروط العسكرية في المعاهدات السابقة هي الشروط التي طلبها الانجليز وعدوا انفسهم غانمين اذا قبلها المصريون .

بل اذا كانت الشروط في المعاهدة الاخيرة افضل عند الانجليز مما طلبوه

قبل اليوم واوفى مما اراده هندرسون وشمبرلين وكرزون وملنر وغيرهم من الساسة المستعمرين فكيف تكون في الوقت نفسه افضل واوفى مما اراده سعد زغلول ؟ .

ذلك سر لا يفهمه المصفقون لانهم لا يفهمون .. او لانهم يفهمون ما يريدون لانفسهم ولا يفهمون ما يراد للبلاد .

نال الانجليز افضل ما نالوه بتلك المعاهدة .

نالوا بها قطرين عظيمين هما مصر والسودان وهما اكبر من البلاد الانجليزية مرات .

فكم راية رفعت في طريق المستر انتوني ايدن الى مجلس النواب وكم قوسا من اقواس النصر اقيمت له او لمعاونه السير مايلز لامبسون ؟

وكم عضوا وقف او هتف او لوح بالقبعات في اروقة المجلس او في الطريق اليه ؟

وكم وليمة اولمها ابناء المدن والقرى للوزير الخطير او للمندوب الاريب ؟

وكم كاتبا اقسم انها وثيقة الشرف والفخار وان من يشك فيها شكة واحدة حقيق ان يبوء بالمهانة والعار ؟

حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ :

هذا الحادث الذي يعتبره اكثر المؤرخين عارا موجها الى الوفد ، وتاريخ الخامس نفسه يقابله العقاد بعنف وحدة على الرغم من انه كان في هذه الفترة بالذات مطاردا من النازي بعد ان اعلن رأيه في هتلر ومستقبله لكن ذلك لم يصرفه عن ان يسهم برأيه بهذه المحنة التي ابتليت بها مصر .

والحكاية تبدأ من ٢ فبراير ١٩٤٢ حيث استقالت وزارة حسين سري وارسل لامبسون الى فاروق يطلب منه ان يكلف النحاس بتأليف الوزارة او يقبل اسناد رئاسة الوزارة الى من يختاره النحاس ويعد تأييده .

وارسل فاروق واستدعى لمقابلته رؤساء الوزراء السابقين ورؤساء

الاحزاب والرؤساء السابقين لمجلس الشيوخ ومجلس النواب •• وشاورهم في الامر وطلب منهم ان يختاروا من بينهم وزارة قوميـة تواجه هذه الاحـداث الخطيرة التـي تمر بالبلاد •

وقبلوا جميعهم ان يشتركوا في وزارة يرأسها مصطفى النحاس ••

ولكـن مصطفى النحاس اصر على موقفه او على رفضه وفـي اليـوم التالي ـ الثلاثاء ٣ فبرايـر ـ ذهب مايلز لامبسون الى قصر عابديـن وقابل رئيس الديـوان احمد محمـد حسنين وقال له انه علم ان مصطفى النحاس يرفض الاشتراك في وزارة قوميـة ولهذا فانه ـ السفير البريطاني ـ يطلب من حسنين ان يقدم هذه النصيحـة للملـك فاروق وهي ان يعهد الـى النحاس بتأليف وزارة وفديـة ••

ومرة اخرى عز على حسنين ان يسلم بالهزيمة ومن ثم فقد قال للسفير البريطاني ان المشاورات لا تزال جاريـة مع رؤساء الاحـزاب لتأليف وزارة قوميـة وانـه واثق من ان وطنيـة الزعمـاء سوف تتغلب على كـل شيء وانصرف مايلـز لامبسون ••

انصرف لكي يعـود عند ظهـر اليوم التالي ـ الاربعاء ـ ويسلـم حسنين هـذا الانذار ••

وهذا نص الانذار :

« اذا لم اعلم قبل السادسة مساء ان النحاس قد دعي لتأليف وزارة فـان الملك فاروق يجب ان يتحمل تبعات ما يحدث » •

ومرة اخرى لم ييأس احمد محمد حسنين •• ولم يشأ ان يسلم بالهزيمة ـ بل لم يتردد في مواجهـة الموقف الخطير ••

واستدعى الزعماء للاجتماع بقصر عابدين •••

وطال اجتماعهم •• وطالت مناقشاتهم ••

ودخل عليهم حسنين مرة ومرتين لكي يذكرهم ان عليه ان يرد علـى الانذار البريطاني وان يرسل جواب الملك فاروق قبل السادسة مساء•

ولكن اجتماع الزعماء لـم ينته الى النتيجـــة المرجـوة بسبب اصرار النحاس على موقفـه ..

والوحيد بين رؤساء الوزارات السابقين الذي انضم في الرأي الـــى مصطفى النحاس كان احمد زيوار صاحب العبارة المشهورة : « انقـاذ مـــا يمكـــن انقاذه » ..

ويغادر الزعماء والرؤساء السابقـون قصر عابدين على ان يستأنفـــوا الاجتمـاع مرة اخرى .. ولكن .. حوالي الساعة التاسعة مساء امتلأ ميدان عابديـــن « ميدان الجمهورية الآن » بآلاف الجنود البريطانيين وهم بملابس الميــدان .. وبعشرات الدبابات .

وطوقت الدبابات البريطانيـــة قصر عابدين من جميــع الجهـــات .. وصوبت مدافعهـــا .. وتقدمت احداها وحطمت الباب الرئيسي ــ او كمـا كان يسمى « الباب الملكي » ــ ودخلت منه الى حرم القصر ..

ودخلت وراءها سيارة تحمل السفير البريطاني ومعه جنرال ستون قائد القوات البريطانيـــة فـــي مصر .. ووقفت السيارة امـــام باب القصر الداخلي ونزل منهـــا مايلز لامبسون والقائد البريطاني . ودخلا القصر بينمـــا كـــــان يسير امامهمـــا ثمانيـــة ضباط بريطانيين ومسدساتهم في ايديهم .

وتقدم كبير الامناء بالنيابة يومئذ اسماعيل تيمور يسألهم ماذا يريدون.. ولكـــن مـــايلز لامبسون نحاه بيده من طريقه وهو يقول :

ــ « انا اعرف طريقي ..»

وكان الجنود البريطانيون قد هاجموا حراس القصر وجردوهم مـــــن السلاح وحاصروا ثكنـــات الحرس .. وقاوم بعض افراد الحرس ولكــــن البريطانيين تكاثروا وتغلبوا عليهم واصيب بعض جنود الحرس بكسور فـــي العظـــام وبجروح مختلفـــة ..

وصدر امر من القصر الى رجال الحرس بعدم المقاومة حتى لا تحـــدث مذبحـــة امام قصر عابديـــن وفي نفس الوقت كانت الطائرات البريطانية واقفة

علـى قدم الاستعداد للتحليق فوق ثكنـــات الجيش المصري ومعسكراته وقذفهــا بالقنابل وتدميرهــا اذا بدرت من الجيش اية مقاومة ..

وحاصر الجنود الانجليز كذلك اقسام البوليس في القاهرة وقطعوا جميع الاسلاك التليفونيــة بين قصر عابدين والخارج ..

كما حاصروا محطة الاذاعــة المصرية لكي يمنعوا وصول الخبر الـــى الشعــب .

ودخل سير مايلز لامبسون الذي كوفىء فيما بعــد على عدوانه الشنيع بلقب لورد كليون ، دخل على فاروق وكــان واقفــا في غرفة مكتبــه والــى جانبه رئيس ديوانه احمد محمد حسنين .

وكان يقف وراء السفير البريطاني جنرال ستون بينمــا وقف خـــارج الغرفــة الضباط الانجليز يحرسون الباب وفي ايديهم المسدسات ..

وقال السفير البريطاني لفاروق ما خلاصته انــه يخيره بيــن التنازل عن العرش .. او تكليف مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة .

وقبل فاروق ان يعهــد الى رئيس الوفد بتشكيل الوزارة ..

وقال مايلز لامبسون :

ـ الآن .. هــذا المساء

ووعده فاروق بذلــك

وانصرف مايلز لامبسون ومن معه .

ولكن الدبابات البريطانيــة ظلت تحاصر القصر وثكنات الحرس .

ومرة اخرى ـ وفي نفس المساء ـ ارسل حسنين واستدعى الزعمـــاء والرؤساء السابقين .. الى آخره .. وتوافدوا علــى قصر عابـــدين ورأوا الدبابات البريطانيــة تحاصر القصر ..

وقال لهم فاروق انه قد قبل الانذار البريطاني وانه يعهد الى مصطفــى النحاس بتأليف الوزارة .. وهنا قال الدكتور احمد ماهر :

ـ اسمع يا مصطفى انني اقول لك امام جلالة الملك وزعماء مصر انـك تتولى الحكم مسنودا بالدبابات والحراب البريطانية .

وقال اسماعيل صدقي :

ـ نعم .. مسنودا بالحراب البريطانية حقيقة لا مجازا وقد رأيناهـا باعيننا في الميـدان ..

وهنا قال مصطفى النحاس انه لـم ير شيئا من هـذا .. لان الدنيـا كانت ظلمة .

ثم قال فاروق :

ـ ولي عندك رجاء يا مصطفى .. وهو ان تذهب الآن الـى السفيـر البريطاني وتبلغه انني قد عهدت اليك بتأليف الوزارة .

قال مصطفى النحاس :

ـ ولكن الوقت متأخر يا مولاي ..

ولكن فاروق الح .. وقال :

ـ سوف تجد سير مايلز في انتظارك .

ولقد كان العقاد في طليعة الكتاب الذيـن كشفوا عـن نيات الانجليـز والوفد في هذا الحادث ومن جملة ما كتبه عن هذا الحادث المشؤوم الذي اتى بالنحاس الى الحكم على اسنة الحراب وفوق افواه المدافع قوله : « لمـاذا يتدخل الانجليز ؟ ليعيدوا النحاسيين الى الحكم ويشتروا بذلك سكوتهم عن الحملات والمناورات . جريمة اولـى هي التحزيب والافساد تؤدي الى جريمة ثانية وهي اهدار الاستقلال ، تؤدي الى جريمة ثالثة وهي حكم النحاسيين بمـا هـو معهود فيهم من الطغيـان والتبجح والهرجلة وقلة الاكتراث بغير المنفعة والظهـور .. » .

تحديد الملكية الزراعية :

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ رأت لاعتبارات اجتماعية وسياسية واقتصادية ان تحدد الملكيـة الزراعية وتطبق قانـون الاصـلاح الزراعـي وهذا الاجراء يحقق من الناحية الاجتماعيـة اشاعـة الملكيـة الزراعيـة

الصغيرة لانها قوام الاستقرار الاجتماعي كما ان اعتبارات العدالة تستوجب الحد من سلطة الملك كما يحدث عادة في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ومن الناحية السياسية تقترن الملكيات الزراعية الكبيرة بسلطة شبه اقطاعية يتمتع بها كبار الملاك وكثيرا ما تكون هذه السلطة عقبة في طريق اقامة حياة ديمقراطية سليمة ومن الناحية الاقتصادية يرمي الى توجيه رؤوس الاموال نحو الصناعة والتجارة بدلا من تركيزها في الانتاج الزراعي .

كان هذا هو هدف الثورة من تحديدها للملكية في سنواتها الاولى. وقد كان من المتوقع ان يكون العقاد في طليعة الاقلام التي تؤيد مثل هذا الاجراء على اعتبار انه كاتب نشأ في بيئة لا بد وانها قاست من تركيز الملكيات في يد قلة وقد رأينا في الصفحات السابقة كيف كان العقاد يهرب بجلده خوفا من الانضمام الى صفوف من يوصفون بأنهم اقطاعيون . ولكن يبدو ان ليبرالية العقاد في التفكير وفرديته جعلته يتحفظ في هذه المرة ولا يكون سائرا في صفوف الفئات الشعبية التي نذر قلمه لخدمتها والدفاع عن مصالحها ومكتسباتها .

لهذا كان من رأي العقاد عدم تحديد الملكية الزراعية . واذا كان هذا التحديد هو الذي يقوم بحل المشكلة الاقتصادية . فهناك بدائل له في مقدمتها الضرائب التصاعدية والتعاون . انه يقول ذلك صراحة في مقال له بعنوان لو اصبحت مصر اشتراكية من كتابه « دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية » . ان الضرائب التصاعدية ترضي شعور الفرد بحقه في الملكية ، وتغني عن تقييد الملكية الزراعية او العقارية بمقدار محدود. فاذا رأى الزارع ان الضيعة التي تزيد مساحتها على خمسمائة فدان مثلا تساوى ارباحها وارباح الاربعمائة او رأى ان الفرق في الربح يقابله زيادة الضرائب وزيادة التكاليف فهو من غير امر ولا قانون سيتحول بالمال الزائد الى مرفق آخر غير الزراعة وسينتهي هذا التحول في القطر كله الى التوازن بين مرافق التجارة ، والى التقارب بين اصحاب الضياع الكبيرة واصحاب المزارع الصغيرة دون ان يخل بنشاط الفرد في رعاية ملكه والسهر على مصالحه .. »

وعن التعاون يقول العقاد في هذا المقال : « اما التعاون فهو الوسيلة المثلى للقضاء على الاستغلال والقضاء من ثم على حرب الطبقات .. »

وقد كانت هناك ردود كثيرة على العقاد في مقدمتها رد رجاء النقاش حيث يقول : « ويكشف العقاد بمثل هذه الافكار عن ضعف معرفته بالفكر الاقتصادي بصورة تثير الدهشة فكيف فسي العقاد مثلا ان هناك الوانا من التحايل على القوانين بطريقة قانونية بحيث يمكن لمن يملك خمسمائة فدان ان يوزعها على افراد آخرين من عائلته او على زوجاته حيث يكثر تعدد الزوجات بين الاقطاعيين ، وكيف يتجاهل ان هناك وسائل عديدة لاصحاب الثروات يستطيعون بها تهريب اموالهم واخفاءها واستغلالها في غير الصالح العام . وكيف يتجاهل ان اصحاب الثروات من الاقطاعيين وغيرهم هم الذين يصنعون القوانين داخل البلدان التي يتحكمون في ثرواتها . وان قوانينهم لا يمكن الا ان تكون على قدر مصالحهم بحيث لا يصبح هناك اي حل الا اصدار قوانين تحديد الملكية بصورة قاطعة دون ان تترك الامر لمجرد فكرة الضرائب التصاعدية » .

التأميم :

وشبيه بهذا الموقف الذي اتخذه العقاد من تحديد الملكية الزراعية موقفه ايضا من التأميم فقد كان التأميم ومن قبله تحديد الملكية والغاء الاحزاب السياسية من الاجراءات التي لم يوافق عليها العقاد .. تلك التي تمت بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بل ان هذه الاجراءات الثلاثة من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ جعلت العقاد يتخذ موقفا خلاصته « اسمع وأرى بعدها اقول » .. تاركا التجربة السياسية لرجال الثورة الذين يعيدون صياغة الحياة الاجتماعية في مصر ولا شك انهم مخلصون في ذلك بل واكثر اخلاصا في قيامهم باجراء التأميم لان مسؤوليات الدولة فيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية وتحقيق التشغيل الكامل والرقابة على الاحتكارات والعدالة في توزيع الدخل تقتضي التأميم باعتباره من الوسائل الهامة لتحقيق هذه الاهداف .

كان لا بد اذن على قادة ثورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢ ان يفرضـوا اجـراء التأميم حتى يقاومـوا الاحتكارات الخاصة .. الممثلة في المرافق العامة مـن مواصلات ومياه وكهرباء وغيرهـا ولينقذوا جمهور المستهلكين او المنتفعين من الوقوع تحت رحمـة المصالح الخاصـة في هذه المرافق الحيوية او للسيطرة على المشروعات الهامة بالنسبة للاقتصاد القومي مثل مشروع تأميم قناة السويس.

لكن رغم هذا وغيره من الاعتبارات نرى للعقاد موقفا خلاصته هو رفض فكرة التأميم تحت دعوى الحافز الفردي فيقول في نفس المقال السابق : « ان تجارب مصر وتجارب غيرهـا قـد اثبتت لنـا على التحقيق ان المرفق الذي تديره الحكومـات تتضاعف تكاليفه وتزيـد فيه المغارم على الغنائم ويؤول شأنه الى الاهمال وقلة الاكتراث .. وبداهة العقل تأبى ان يقال ان عمـــل الانسان لغيره كعمله لنفسه فـان الطبيعـة برمتها ــ كما المحنا لذلك مرارا ــ لا تحمل الحي على ابقاء نوعه ما لـم يكـن في تكوينه دافع مـــن المتعة الشخصيـة ومن الحنان الابوي ومن الامل الذي تدور عليه عواطف الاحياء فمن الخطـر تسليم المرافق جميعـا الى الدولة والغاء البواعث الفرديـة التي تشحذ الهمم وتقنع المرء بانـه يعمل لنفسه وذريته مع خدمته للمجموع .

ويقدم العقاد الحل المثالي فيقول :

« وانما قوام الامر بالنسبة الينا نحـن المصريين على الخصوص ان نبقي للفرد الملك وحق التصرف فيمـا يقدر عليـه . ونـدع الحكومـات تستأثـر بالاعمال العامة التي لا قبل بهـا للافراد و لاللشركات ويرد احـدهم عـــلى العقاد مفنـدا وجهة نظره حيــث يقـــول : والواقع ان العقاد هنـا يدافع بوضوح عـن النظـام الحر فـي الاقتصاد او النظام الرأسمالـي ولا يرى في الاشتراكيـة وفي مبدأ التأميم نفعـا لاحد .. ورغم انه يترك للدولة ادارة الاعمال الكبرى التي لا يقدر عليهـا الافراد ولا تقدر عليها الشركات.. فهـو في الحقيقـة لا يترك للدولة اي شـيء .. فالافراد يقدرون على اشياء كثيرة جدا .. واصحاب الملايين في البلاد الرأسماليـة يملكـون اضخـم المصانع واخطرهـا شأنـا وعلى سبيل المثال هنـاك اضخم الطائرات الحربية

التي يملك مصانعها في امريكا وفرنسا وغيرهما افراد من امثال « داسو » الفرنسي كما ان هناك عددا من اصحاب الملايين يملكون كل ما لا يخطر على البال من الصناعات الحديثة المعقدة من امثال روتشيلد وركفلر وكروب وغيرهم اما ما لا يستطيعه الافراد فان الشركات تستطيع ان تديره .. ولا يوجد عمل اقتصادي ضخم لا تستطيع الشركات ان تقوم به. فماذا يبقى اذن للدولة بعد ان ترك اليها العقاد ما لا يستطيعه الافراد والشركات ؟

ان الشركات والافراد يستطيعون القيام بادارة اضخم المصانع واضخم المشروعات الاقتصادية ولكن ذلك يتم عادة باستغلال الآخرين وعلى حساب المصلحة العامة دائما والحوافز الطبيعية التي يتحدث عنها العقاد والتي يقول عنها : « ان الطبيعة برمتها تحمل الحي على بقاء نوعه ما لم يكن في تكوينه دافع من المتعة الشخصية ومن الحنان الابوي ومن الامل الذي تدور عليه عواطف الاحياء هذه الحوافز الطبيعية التي يتحدث عنها العقاد هي ولا شك حوافز حقيقية لا يستطيع احد ان ينكرها الا اذا كان من المتعصبين الذين ينكرون حقائق الحياة الكبرى ..»

القسم السادس

النظم العنصرية

النازيـــة

الفاشيـــة

الصهيونيـــة

العنصريـــة



النظم العنصرية

العنصرية بدأت اول ما بدأت في فرنسا .. انطلاقا من رأي الفيلسوف الفرنسي « ارنست رينان » القائل بالتفرقة بين الساميين والآريين في القدرة على البحث الفلسفي وابحاث التفكير المجرد بوجه عام .

والغريب والعجيب ان العلم والتاريخ لم يثبتا شيئا من هذه الدعوى التي بشر بها هذا الفيلسوف المستشرق في زمن الاستعمار .

ويرجع الباحثون والدارسون رواج العنصرية الى ثلاث علل هي : حركة تحرير الرقيق ، وحركة الاستعمار . واخيرا مبادىء الثورة الفرنسية .

فالذين قاموا بالدعوة الى تحرير الرقيق بنوا دعوتهم على المساواة بين البشر واستنكروا ان يباع الانسان ويشترى في الاسواق كأنه من الحيوان الاعجم ، مع انه هو ومن يبيعه ويشتريه سواء في الحقوق الآدمية .

فكان المتجرون بالرقيق يردون هذه الدعوى بانكارهم للمساواة بين البيض والسود ، وقيام الفوارق الاصيلة بين السادة والعبيد ، وقد كانت لفرنسا تجارة واسعة في الرقيق الاسود والخلاسيين وكانت جزائر هايتي التي كانت

معروفة يومئذ باسم جزائر « القديس دومنيك » تابعة لفرنسا ومركزا من اهم مراكز تجارة الرقيق الاسود والخلاسيين على اختلاف انواعه . وظلت فرنسا تقاوم حركة تحرير الرقيق حتى ابان الثورة الفرنسية ، ولم تشترك في حركة التحرير الا بعد خروج تلك الجزائر من حكمها وعودة نابليون من جزيرة (البا) في سنة ١٨١٥ خلال حكومته المقتضبة التي اشتهرت باسم حكومة الايام المائة فجاء هذا القرار اليائس بعد فوات الاوان .

اما حركة الاستعمار وهي العلة الثانية في رواج العنصرية فقد قامت على اساس ما يسمونه برسالة الرجل الابيض او بحقه في حكم الاجناس الاخرى لامتيازه عليها في العقل والخلق والصفات النفسية ، وكانت فرنسا يومئذ تنشىء امبراطورية المستعمرات ويؤيدها العلماء والادباء ومنهم رينان على الخصوص . فهو الذي ذكر في حديثه عن الاصلاح الفكري والاخلاقي بعد سنة ١٨٧١ ان حرب فرنسا والمانيا كانت صدمة قاسية له لانها بددت الحلم الذي كان يعلق عليه رجاءه في خلافه العالم وفحوى ذلك الحلم ان تعقد الامتان (فرنسا وانجلترا) حلفا مقدسا لتدبير شؤون الامم المختلفة من شرقيين وغربيين .

العلة الثالثة في رواج العنصرية وهي من مبادىء الثورة الفرنسية حيث كان جوبينو وامثاله يعلنون بطلان المساواة بين الطبقات وينادون بحق النبلاء في حكم الدهماء لما بينهم من التفاوت في العنصر والاستعداد للرئاسة والقيادة فجاءت دعوى العنصر الحاكم ردا على دعوى المساواة بين الحاكمين والمحكومين .

في هذه العلل الثلاث ترجع فلسفة التفرقة العنصرية التي يعرفها عالم اليوم والتي كانت النازية والفاشية والصهيونية الورثة الشرعيين لها في العصر الحديث فما هو موقف العقاد من النازية وما هو موقفه من الفاشية والصهيونية ؟

بالنسبة للنازية فقد كتب العديد من المقالات واذاع الكثير من الاحاديث

الاذاعيـة وله اكثر من كتاب اهمهـا كتاب « هتلر في الميزان » الذي صدر عام ١٩٤٠ والذي ينبه الاذهـان الى ان هتلـر وحركته الى زوال في الوقت الذي كان فيه هتلر يدك المدن ويكتسح بلاد اوروبا . بلدا بعد آخر فـي انتصارات مذهلـة . يومهـا الوحيـد الذي تنبأ بهزيمته هو العقاد .

واما عن الفاشية فقد كتب عنهـا الكثير من المقالات منددا بمبادئهـا . وألف كتابه الحكم المطلق في القرن العشريـن ١٩٢٨ اكد فيه ان مثل هـذه السياسة القائمة على الحكم المطلق مصيرها ايضا الى زوال .

ونفس الاهتمـام من العقاد بدراسـة هذه النظم العنصريـة وجدناه في دراسته للصهيونية كحركـة عنصرية ايضا .. حيث كان يناقشهـا بالحجة والدليـل .

ولتوضيح موقف العقاد من هذه النظم الثلاثة الـى جانب موقفـه مـن العنصرية كفكرة تتوقف عند كل منها على حدة .

النازيـة :

موقف العقاد من النازيـة اكتسب الكثير من الاحترام والتقدير فقد صدر عـن تفكير ناضج ورؤيـة بعيدة بل والاكثر ان افكاره ومبادئه لا تتفق مـع الافكار والمبادىء النازيـة وهذا في حـد ذاته تشريف لموقف العقاد .. تشريف ولا شك للكاتب ان تختلف مبادئه وافكـاره عـن نظام عنصري يدعـو الـى الحكم المطلـق والتفرقـة بيـن الاجناس .

ولقد بدأ موقف العقاد من النازيـة مع قيـام الحرب العالميـة الثانيـة بنشر عدد من الاحاديث الاذاعية جمعت فيمـا بعـد في كتاب صغير تحـت عنوان « النازية والاديان » وفي هذه الاحاديث يفنـد دعاوي النازية تلك التي لا تعترف بواحـد من الاديـان الثلاثة الاسـلام والمسيحية واليهودية وترى انهـا بمبادئهـا تصلح دينـا . وان زعيمهم هتلـر هو مسيح جديد اعظـم واقدر من المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بل والاكثر انهـا ــ النازية ــ تعتبر هتـلر في مرتبة الآلهـة لقـد قالهـا الدكتور فرانك احد وزراء العدل

النازيين بلا خجل او حياء : « ان هتلر متفرد . كذلك الله . فهتلر والله شبيهان » هكذا وصل تفكير النازية او مغالطتها واعتداؤها على المقدسات .

وقد كان العقاد في هجومه على النازية منطلقا اولا من عقيدته وافكاره التي ترفض كما قلنا افكار النازية ، وثانيا لان ما كان يصل اليه من انباء حول ما تفعله في اوروبا جعله يكون اكثر عنفا وحدة — ان العقاد يرى هتلر رغم انتصاراته يزحف بالبشرية الى حافة الهاوية وانه مغامر يلعب بالنار ، ويندد بمن ينخدع به وبسياسته حيث يقول : لقد كان اناس من قصار النظر عندنا يغترون بمظاهر القوة الهتلرية ويقولون : انظروا ماذا صنعت الدكتاتورية الالمانية في بضع سنين ؟ انظروا كيف انتفض القوم خلقا آخر بعد طول الاستكانة والقنوط ثم يتمنون على الله ان تظفر مصر بمثل ما ظفرت المانيا على ايدي الدكتاتور العظيم ..

وتتوالى احاديث العقاد الاذاعية ابان الحرب فنراه يذيع حلقة من احاديثه كان عنوانها الدعاية النازية يقول فيها :

«احدثكم هذه الليلة عن الدعاية النازية ومقدار خطرها على اصحابها الذين يجردون سلاحها لغزو بلادهم ويجردون بلدان العالم فاذا هم انفسهم اول المصابين بهذا السلاح المسموم .

فهل يتصور العقل ان الله خلق ثمانين مليونا متفرقين في جوانب الارض لا يختلف الف او الفان منهم عن بقية تلك الملايين الفقيرة ؟ هذا مستحيل وانما الذي يتصوره العقل ان الاستبداد قد حول الدنيا بما رحبت سجنا ضيق القضبان على هؤلاء المساكين المحرومين من وسائل المقاومة حتى الحديث والفكاهة . وبديهي ان الحكومة الالمانية لن تصل الى جميع رعاياها في جميع اقطار الارض فتمتعهم بسطوتها المباشرة ان يجترئوا على انتقاده ولكنكم تعلمون مقدار الغشم والبهيمية التي تستخدمها الدعاية الالمانية في اساليبها . اذا علمتم انها تخيفهم من اشخاص قارتهم المقيمين

في الارض الالمانيـة بعـد ان عجزت عـن تخويفهم بالخطر على انفسهم وهم متفرقـون بين جوانب المشرق والمغرب •• فمـن كانت لـه ام أو اخت او أب « شيخ » في وطنه فهـو الجاني عليه اذا اجترأ يومـا من الايام بكلمة انتقـاد للزعيم او للعصابة النازية •• » (١) •

ثم يقـول :

« وشعار القوم في دعايتهم ما شرعه لهم رئيسهم هتلـر حين قال : « ان ضخامة الاكذوبة ليست هي التي تساعـد على نجاحهـا فتروع جماهير الشعب لضخامتهـا اذ كـان عسيرا عليهم ان يفهمـوا كيف يجسر أحـد على اختراع هذه الاشياء •• ولا بد مـن بقاء اثر لها ولو كانت الدلائـل الواضحـة على تلفيقهـا وشيكـة الظهور » •

أو كمـا قال ايضـا : « وليس من طبع الجماهير ان تخجل من تهديـد عقولهـا وابتذال حريتهـا •• لفساد الآراء التي تقوم عليهـا الدعوة ولن ترى الا القوة الطاغيـة • ومن ثم لا تفطن لفساد الاراء التي تقـوم عليها الدعـوة ولن ترى الا القوة الطاغيـة •

او كما قال وزير الدعوة جوبلز : لا يلزم ان تكـون الدعـوة محترمة ولا رقيقـة او وديعـة وكل مـا يلزم ان تكـون ناجحة •

فالكذب ضرورة لا محيص عنهـا :

وليس في غرض الدعوة النازيـة ان توازن بين الآراء • بل غرضهـا ان تمسخ جميع الآراء الا رأيا واحدا : هو الذي يحقق مصلحتها » •

ثم ختم العقاد حديثه بقوله :

« ان دعايـة هذه العصابة قد شملت العالم من اقصاه الى اقصاه • ومما لا حاجـة الى قوله : انهـا شملت مصر ايضا في مقدمة بلدان العالمين وانهـا تحاول ان تستمر بيننا ايام الحرب كمـا كانت مستمرة ايام السلام •

ان مأجوري هذه العصابة لا يفضحـون انفسهم بطبيعـة الحال فهم لا

---

(١) حديث اذاعي للعقـاد مساء ١٩٧٩/٩/٢٩ •

ينادون بمناصرتها جهرا لئلا تظهر نياتهم وخفايا قلوبهم الاثيمة • ولكنهم يتظاهرون بالسخط عليها ويدسون في الوقت نفسه خبرا هنا وخبرا هناك •• قائلين تارة ان النصر للغواصات وتارة اخرى ان الجوع لا يفت في اعضاء الشعوب الى آخر هذا الدجل الذي لا يخفى مغزاه على بصير » •

الفاشية :

وهجوم العقاد على الفاشية كان أسبق من هجومه على النازية ذلك لان الفاشية كانت اسبق في الظهور من النازية •• وها هو يهاجمها في كتابه « الحكم المطلق في القرن العشرين » الذي صدر عام ١٩٢٨ فيقول : « كتبت عن الفاشيين في اوروبا وامريكا عشرات من الكتب ومئات من الرسائل والمقالات اكثرها لا يمكن التعويل عليه لما هو معلوم من سعة الدعوة التي يقوم بها الفاشيون في كل مكان وكثرة الاغراض التي تدور حول الدفاع عن هذا المذهب بين اصحاب اموال يحبون ان تشيع القوانين الصارمة في معاملة الصناع او محافظين يكرهون الديمقراطية والاشتراكية او خصوم سياسيين لخصوم موسوليني يساعدونه للنكاية بابناء وطنه الآخرين ، ويجب الحذر على الاخص مما يكتب عن الفاشية في بلاد الانجليز لان السياسة البريطانية تمالىء موسوليني لاسباب منوعة يتعلق بعضها بالتفاهم السري على الشرق واوروبا الشرقية ، ويرجع بعضها الى ما يأتي وهو :

اولا ــ ان موسوليني داعية الحرب في صفوف الحلفاء حين وقف الساسة الايطاليون موقف الحياد او المحاباة السلمية لدولتي اوربا الوسطى عملا بالاتفاق القديم • فمن مصلحة السياسة البريطانية ان تؤيده في ايطاليا وتخذل خصومه بكل ما تستطيع •

ثانيا ــ ان موسوليني انشق عن الاشتراكيين وافرط في محاربة الشيوعية وهي عدو لدول السياسة البريطانية يهمها ان تؤلب عليه الانصار •

ثالثا ــ انه ينافس فرنسا في البحر الابيض فهو قرين موافق للسياسة البريطانية •

رابعا ــ ان السياسة البريطانية بعد الحرب العظمى ــ الحرب الاولى ــ هي رد فعل للمبادىء الولسنية والافكار العامة التي اطلقت آمال الشعوب ودفعتها في وجهة الحرية والديمقراطية ٠ فهي تجد في الفاشيين حاجتها لكبح تلك الآمال ومحاربة تلك الافكار ٠

خامسا ــ ان في انجلترا حزبا من المحافظين الجامدين وبعض رجال الدين ــ لسان حاله صحيفة المورنينج ستار ــ يكره الديمقراطية كراهية شديدة ويدعو الى سياسة الدم والحديد لانها خمر سياسة الامم المستعبدة منها على وجه الخصوص واتباع هذه الحرب هم الذين اكتتبوا بمبلغ من المال اشتروا به سيفا في قراب ذهبي اهدوه الى القائد « داير » صاحب مذبحة (امر تسار) في الهند ٠

ويواصل العقاد هجومه على الفاشية حيث يذيع حديثا عنوانه خطر الدراسات الاجتماعية ، نشر مع غيره في كتاب مطالعات ٠

حيث يقول « لما قام موسوليني بدعوة الفاشية ظن الحائرون في محنة الاخلاق ان الرجل قد اهتدى الى الترياق لانه يروض الجيل الجديد في بلاده على الطاعة العمياء فلا يلفظ بحق ولا يحث عن واجب الا ان ينقاد لمن يقوده بغير سؤال ٠

وقلنا يومئذ ان الفاشية بهذه المثابة تهدم الاخلاق من اساسها ولا يرجى منها فلاح لأخلاق الناشئين حتى في الطاعة العمياء ٠٠ لان الآلات تطيع، والحيوان يطيع وكلاهما افضل من الانسان في هذه الفضيلة ٠ ان صح انها فضيلة وانما يمتاز الانسان بطاعة المسؤول او طاعة الشعور بالتبعة والنهوض بها وعيناه مفتوحتان ٠

ثم جاءت ساعة الامتحان في اول صدمة فانهزم ثلاثمائة الف من الذين رباهم موسوليني منذ الطفولة ، امام عشرين الفا على غير استعداد كبير في ميدان الصحراء الغربية ٠ولم يتعلم جنود الفاشية شجاعة الآلات ولا

شجاعة الحيوان ولا شجاعة الانسان لانهم نشأوا بغير اخلاق .. نشأوا بغير مسؤولية يشعرون بها . بل هربوا من المسؤولية لانهم هربوا من الحيرة ومن الاختيار . فكانت تربيتهم في الحقيقة هروبا من التربية الصحيحة اذ لا تربية بغير اخلاق ولا اخلاق بغير تبعة ومسؤولية ينهض بها الانسان على علم بحقه وعلى علم بواجبه وعلى هدى ما ينبغي له بين قومه وما ينبغي عليه .

وليس المطلوب ان نكف عن الدراسات الاجتماعية كلما كشفت لنا عن عيوب المجتمع التي تغري بالجريمة او تيسرها لمن يتورط فيها .

بل المطلوب الا تكون عيوب البحر مذهلة لنا عن عيوب السفينة وعيوب الربان وان نذكر على الدوام ان السفن كلها لا تغرق وان الناشئين كلهم لا يجرمون وانه اذا جاز ان يعيش الالوف ابرياء من الجريمة . فقد وضح اذن ان الجريمة ليست حتما لزاما في المجتمع . وان المجرم مسؤول من جريرة عمله . وان الامناء على المجتمع مسؤولون ان يحموه من شره والا يجعلوا اعذار الجريمة سهلة مقبولة » .

الصهيونية :

يرى العقاد ان الصهيونية حركة سياسية في نشأتها الاولى . لانها لم تعرف بين اليهود قبل قيام المملكة اليهودية في بيت داود عليه السلام .

والتاريخ يؤكد وجهة نظر العقاد فقد بقيت اورشليم بعد موسى عليه السلام بعدة قرون ملكا لليبوسيين وسكنها معهم بنو بنيامين كما جاء في سفر القضاة الى عهد كتابة هذا السفر ، ثم تغلب عليها بنو يهودا كما جاء في التوراة فاحرقوها ولم يقيموا فيها . ثم جاء الملك يهواش من ذرية ابراهيم عليه السلام. فهدم سور اورشليم واخذ كل ما فيها من ذهب وفضة ورجع الى السامرة .

فلم تكن صهيون تعرف باورشليم قبلة مقصودة عند اليهود قبل قيام

المملكة الاخيرة ويومئذ اصبحت موعدا لعودة الملك مرة اخرى بعد زوالـــه واتفقت على ذلك كلمة الساسة المطالبين بالدولة وكلمة الكهان على السواء.

ولا فرق بين الصهيونية الدينية والصهيونية السياسية في النتيجة الواقعة. وانما يقول الدينيون ان دولة صهيون الموعودة .. يقيمهـا مسيـح منتظر من نسل داود لانهم لا يعترفون بالمسيح بن مريم عليه السلام . ولا يعتبـرون ان الدولة السياسية تحقق احلامهم المنتظرة في آخر الزمـان يوم يعود اسرائيـل ويتسلمون مفاتيح السيادة على العالم أبد الآبدين .

وحول تلفيق وافتراء الصهيونية يقول العقاد : « ومما يؤكد تلفيق الدعوة الدينية في مسألة الصهيونية الحديثة ان امام هذه الصهيونية الاكبر ــ تيودور هرتزل ــلم يفكر فيها الا بعد سنوات من صيحته الاولى في سبيل « خـلاص اليهود» وانما كانت فكرته الاولى تحويل اليهود الى المسيحية وانشاء مدرسة في فيينا لابتداء هذه المحاولة واقناع الجاليات اليهودية بين الامم الاخـرى بمحاكاتها ثم نظر اليهود فوجدوا لهم « لزوما » في دسائس الاستعمار ومساعيه الخفية والظاهرة ووجدوا « لزوما » في عصر الصناعة والطرق التجارية خلال بلاد الدولة العثمانية ووجدوا لهم «لزوما» في عصر المسألة الشرقية وتفاهم الدول المستعمرة على تقسيم تركة الرجل المريض ومنها فلسطين فجاءت الصهيونيـة بعد ذلك كله وليدة السياسة كما كانت وليدة لها في اقدم عهودها » (١).

وعن مسألة اضطهاد اليهود يرى العقاد ان الاضطهاد وقع بالفعل ولكنهم هم المسؤولون عن اضطهادهم ومن ناحية اخرى هم لـــو ملكـوا فانهـــم سيكونون اشد الناس اضطهادا لغيرهم وان اسرائيل تستدر عطف الامم تحت دعوى انها مضطهدة كما يشير العقاد الى روحها العنصرية حيث يقول في نفس الكتاب:الصهيونية مسؤولة عن كل فاصل تقيمه بينها وبين امم العالم لانها من قديم الزمن تقسم العالم الى قسمين متقابلين : قسم اسرائيل وهم صفوة الخلق واصحاب الحظوة عند الله لغير سبب الا انهم ابناء اسرائيل وقسم اخر يسمونه

(١) راجع ــ الصهيونية العالمية ص ٢٢ ــ العقاد .

قسم الامم او الجوييم ويشملون بـه جميـع الناس مـن جميـع الاقـوام والاجناس » (١) .

ويدلل العقاد على ان اسلوب الصهيونية في الدعاية كاذب بمصر فيقول : غير الصهيونيين فيها جاليات من اليونان ومن الارمن ومن اخواتنـا ابنـاء الامم العربيةوالشرقية ونظرة سريعة الى الناجحين من كل جالية ترينا بالحساب والارقام انهم لا يقلون عن الناجحين من الصهيونيين ويبقى بعد ذلك فارقان عظيمـان الفارق الاول ان الناجحين من هذه الامم ينجحون فـي التجـارة والزراعـة والصناعة والعلوم والفنون وان الصهيونيين على خلاف ذلك قلما ينجحون في عمل غير السمسرة والتجارة والفارق الآخر ان الجاليات الاخرى تعمل وحدها ولا تستند الى عصبة عالمية من ابناء قومها منتشرة في ارجاء العالم وليس منهـا طوابير خامسة مبثوثة في كل بقعة تعاونها سرا وجهرا وتحارب من ينافسونهـا ويزاحمونها كما يفعل الصهيونيون .

والحق ان العقاد في مقالاته ودراساته وكتبه كان خير مفنـد لدعـاوى الصهيونية مؤكدا انها حركة سياسية مبنية على التفرقة العنصرية اكثر منها حركة دينية .

العنصريـة :

وحين يهاجم العقاد العنصرية كنظرية فانه يتتبع تاريخها واصلها ككلمـة هي في الاصل تطلق على اصول بنـي آدم ويشير الـى ان تقسيـم العناصر البشرية معروف قبل ظهور كلمة العنصرية نفسها فقد ظهرت صور الاجناس على هياكل الفراعنة قبل الميلاد بأكثر من الف سنة وقسم ارسطو الناس الـى سادة وعبيد ، والرومان قسموا الناس ايضا الى قسم الخاصة وهم الرؤساء ، وقسم العامة وهم الارقاء . ولا يجوز للقسم الاخير ان يتزوج من امرأة في القسـم الاول .

وحتى بعد الميلاد عرف لقب الشريف ليكون عنوانا لكل ذي منصب او جاه.

---

(١) نفس المرجـع السابق .

وفي القرن السابع عشر .. عرف تقسيم الرعايا الى اصل حر كريم، واصل مستعبد هجين . وفي القرنين الاخيرين دخلت العنصرية في طور الدراسة العلمية .

واصبح مألوفا ان تقسم الاصول البشرية على حسب الاختلاف بينها في اللون والشعر وشكل الانف ولون العين وتركيب الجمجمة وطول القامة وخصائص الدم .

وحول هذا التقسيم هناك من يعتدل وهناك من يتطرف .

فالمعتدلون يقولون ان الادميين كلهم من نوع واحد وان اختلفت الاجناس والملامح والالوان ، والمتطرفون ينادون بتعدد الانواع والاصول على حسب اختلاف القردة العليا في تطورها . فمن البشر من يرجع اصله الى الغوريلا ، ومنهم من يرجع الى الشمبانزي ، ومنهم من يرجع الى الاورانج او تانج ، ومنهم بين بين على اقتراب من هذه السلالة تارة واقتراب من تلك السلالة تارة اخرى .

وغاية التطرف في هذا الرأي هو قول العالم الالماني هرمان جوش الذي تولى ترويج الفلسفة العنصرية في عهد النازيين فانه يزعم ان الخصائص البشرية مقصورة على الشماليين ، وان الاجناس الاخرى وسط بين البشر والقردة وربما كانوا اقرب الى طبقة القردة منهم الى طبقة بني آدم .

قال : « واذا سأل سائل ما بال غير الشماليين وهم اقرب رحما الى القردة يتناسلون من الشماليين ولا يتناسلون من القردة ؟ فالجواب ان الدليل لم يقم بعد على انهم وفصائل القردة لا يتناسلون » ما الصواب وما الخطأ من هذه المزاعم والاقاويل .

يمكن ان يقال على الاجمال ان الصواب هو جانب البحث والاحصاء منها وان الخطأ هو جانب المفاخرة والمطامع السياسية .

فالثابت الذي لا شك فيه هو اختلاف الاجناس في الملامح والعادات وبعض المزايا البدنية والنفسية،ولكن الشك .. كل الشك في رد هذا الاختلاف الى فرق حاسم دائم في صميم الفطرة التي لا تقبل التبديل . ولا تزال تسجل

السيادة لقوم ، وتسجل العبودية على آخرين • او لا تزال تسجل لبعض الاقوام ملكات التفكير واذواق الفنون وتسلب الآخرين هذه الملكات والاذواق •

فالعوامل الطبيعية قد تنشىء المزايا الموقوتة في بعض الاقوام ولكنها تنشىء هذه المزايا بعينها في الاقوام الآخرين اذا صادفتهم تلك العوامل واحدثت فيهم آثارها •

والعوامل الطبيعية قد تسلب كما قد تعطي • وقد سلبت الآريين حينا واعطتهم حينا آخر • وكذلك فعلت في تكوين الامم السامية ومنهم الامة العربية •

ويتساءل العقاد عن اصل العنصرية كما يراها الفريق القائل بالتفرقة العنصرية فيقول : هل اثبت العلم او التاريخ شيئا من هذه الدعوى التي بشر بها الفيلسوف المستشرق في زمن الاستعمار ؟

كلا على التحقيق •

بل الذي ثبت كما قلنا في كتابنا عن اثر العرب في الحضارة الاوروبية هو انه لا اختلاف هناك في اصل الطبيعة بين العقل البشري في الاغريق والعقل البشري في السلالات الشرقية التي ذكروها وانما يقع الاختلاف لاسباب موضعية تجوز على الاغريق كما تجوز على المصريين والبابليين والعرب والفرس والهنود •

وانما امتاز الاغريق بالبحوث الفلسفية في زمن من الازمان لسبب واضح: هو ان هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من ابناء الدول الشرقية العريقة وهي لم تكن مباحة لهم لمزية اصيلة في طبيعة التركيب كما وهم القائلون بذلك الرأي المتعجل العسوف ولكنها ابيحت لهم لان بلادهم نشأت وتطورت دون ان ينشأ فيها ملك قوي وكهانة قوية ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت في مصر وبابل لكان شأنهم في اسرار الدين والمسائل الالهية كشأن البابليين والمصريين •

فالبلاد التي تجري فيها الانهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث في اصول الاشياء وحقائق

التكوين وتتولى شؤون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الافتئات عليه والا كان المفتئت كالمعتدي على نظام الدولة ومحراب العبادة .. ولو نشأ لليونان دولة كهذه الدول وكهانات كهذه الكهانات لما اجترأوا على التعرض لمسائل الخلق والخالق وطبائع الكون ومكونه بين سواد الناس اذ حدث للاوروبيين ما حدث في الشرق حين قامت في بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث في حقائق الدين واسرار الطبيعة وقوانين الوجود .

فبطلت الفلسفة والدراسات العلمية في القرون الوسطى وحيل بين الناس وبينها الا باذن من رجال الدين في حدود النصوص المقررة كما كانوا يفهمونها ويبيحون فهمها واستطاعت الكهانة الاوروبية ان تفعل ذلك وهي حديثة العهد لم تبلغ من العراقة مبلغ الكهانة المصرية والبابلية اذ كانت تعد اعوامها بالعشرات والمئات القليلة وقد غبرت على الكهانات القديمة الوف من الاعوام بعد الوف.

ان رينان كان خليقا ان يعرف فضل الشرقيين على اليونان حتى في الدراسات الكونية والفلسفية لو سأل نفسه لماذا لم تظهر الفلسفة اليونانية بادىء الامر في غير اسيا الصغرى والجزر الاسيوية ولماذا لم تظهر الفلسفة اليونانية في جزيرة كريت قبل اتصال الاغريق بمصر وبابل وقد كشفت الحفريات عن حضارة اغريقية في الجزيرة من قبل التاريخ .

لقد ارضاه ان يحصر المزايا العقلية العليا فيمن يسميهم بالآريين فوقف عند منتصف الطريق ولم يفتح عينيه على جميع الحقائق التي احاطت به في هذا المنتصف من الطريق ، وهكذا رضي المستشرقون والمستعمرون كما رضي رينان على عجل ولو انهم اصطنعوا الاناة لرجعوا بالفوارق العنصرية الى قسطاسها المستقيم .

اما القسطاس المستقيم في هذه المسألة التي حاقت اباطيلها بالاوروبيين كما حاقت بالشرقيين فهو ثبوت الاختلاف بين الاجناس البشرية وثبوت الاسباب الطبيعية في تعليل هذا الاختلاف فكل ما جاز على الشرقيين من هذه الاسباب فقد جاز مثله ويجوز مثله من بعد على الاوروبيين وغير الاوروبيين .

القسم السابـع

المبادىء والافكار

الحريـــــة

الديمقراطيـة

المســـاواة

المبادىء والافكار

لماذا فتنت كتابات العقاد الجماهير ؟

ولماذا استهوى العقاد الشعب بمقالاته بينما كان يؤلب عليه كبار السياسيين ؟

ولماذا أحب القراء العقاد السياسي وفهموه بينما عاتبوا العقاد الاديب وخاصموه ؟

والاجابة عن هذه التساؤلات وغيرها بكلمة واحدة هي ان العقاد رجل .. مبادىء .

نعم : العقاد رجل كان يرى المبدأ ارضا صلبة يعيش عليها .. او يموت عليها

لقد كان في وسع العقاد ان يملك سيف المعز وذهبه .. لو انه تهاون في اقل القليل من كرامته . بل لو انه تردد في رأي كان قد ابداه او تنازل عن امر يرى انه الحق .

العقاد ــ كما يذكر كامل الشناوي ــ كان يثير الاعجاب به والحقد عليه.. فقد كان يستهوي الشعب بمبادئه وآرائه ومواقفه ، يستهويه بمقالاته وعباراته وكلماته .. باسلوبه الجاد الملتهب القائم على منطق قوي ووطنية اشد

قوة .. في الوقت الذي كـان يؤلب عليه السياسيين الحزبيين ممن خاصمهم الشعب ورفضتهم الجماهير .. السياسيين الذين نصبوا من أنفسهم اولياء امور على مقدرات هذا الشعب ووصاة عليه .. السياسيين الذين كانوا يحكمـون بالحديد والنار والقصر والانجليـز .

الناس احبوا العقاد السياسي وفهموه .. لانـه كـان يخاطب عقولهـم ووجدانهم .. ويعرف الطريق الى اهتماماتهم الحقيقية . احبـوه لانهم شعروا انه واحـد منهم ربمـا يكـون والدا أو اخـا أو ولدا .. هـو منهم يحس بأحاسيسهم ويعبر عنها في قوة واخلاص .. احبوه لانـه ابتدع في السياسة مذهبـا يعبـر عن المشاعـر العامة .

لقد كان العقاد موفقا حين عرف كيف يكون مذهبه السياسي شعبيـا بينمـا يكـون مذهبه الادبـي ارستقراطيا . لقد استطاع ان يميـز الحـد الفاصل بين الاثنين معا .. فهو هنا يخاطب العامة وهناك يخاطب الخاصة ... في الاول كان يعبر عن الذوق العام ، وفي الثاني أراد ان يغير في هذا الذوق ..

أحبت الجماهير كتابات العقاد السياسية لانهـا انطبعت بصفـة معينـة كانت جديدة ولا شـك على اجيـال العشرينات والثلاثينات والاربعينات من هذا القرن .. وكيف لا تكـون جديدة وقـد وضع صاحبهـا الحرية في يمينه، والديمقراطية في يساره ، والمساواة امام عينيه ..

الحرية والديمقراطيـة والمساواة .. هذه الكلمات العظيمة التي قامت من اجلهـا الثورات .. وتناقلتهـا القرون . مبادىء للناس . هذه المعاني الثلاثة او المبادىء الثلاثة نلمحها ونستشعرها في كـل رأي او مـوقف او مطلـب للعقـاد ..

لقد تجلت معاني هذه الكلمات الثلاث في كلمة العقاد المشهورة .. التـي قالها تحت قبة البرلمان « الا فليعلم الجميع ان هذا المجلس مستعـد ان يسحق اكبر رأس في البلاد في سبيل صيانـة الدستور وحمايته » ولنتأمل هذه الكلمة

ولنتدبرها . فسوف نرى كم هي تتضمن في كل جانب من جوانبها .. المطالبة بالحرية والديمقراطية والمساواة .. جملة لا تصل مفرداتها الى العشرين تحوي هذه المعاني جميعا .. وتقوم لها الدنيا وتثير لها حفيظة السلطان وتشغل الرأي العام اياما وليالي بل وشهورا . فقد تربصوا لقائلها ليوقعوه في شرك السب في الذات التي لا تمس .. ولا بد ان يقع تحت طائلة القانون فيعرفهم مجرم وآثم ومذنب .. ولا بد لمن يتصف بهذه النعوت من عقاب وجزاء .. وهكذا نال العقاد عقابه وجزاءه بالسجن .

معنى هذا ان العقاد كان مع هذه الكلمات الثلاث «الحرية ، الديمقراطية ، المساواة » وليس ضدها تمشيا مع خطة الصفحات السابقة تلك التي تسجل مواقفه السياسية ..

وحين يكون العقاد مع هذه المبادىء الثلاثة فهو بصورة او باخرى يتخذ موقفا حادا ممن يعارضونها من كبار السياسة في مصر او في خارجها .. واعداء الحرية كثيرون واعداء الديمقراطية اكثر واعداء المساواة اكثر واكثر .. ومن هنا فالحديث عن هذه المبادىء ورأي العقاد فيها وايمانه بها هو في حد ذاته موقف من اعدائها وخصومها ..

فهو حين يؤمن مثلا بالحرية .. فهو لا بد وان يتخذ موقفا من اعدائها وفي مقدمتهم الاستعمار الانجليزي الموجود في ذلك الوقت والملك واذنابه من الاقطاعيين والرجعيين .

وهو حين يؤمن بالديمقراطية .. فهو عدو للحاكم الذي يفرض ارادته بالحديد والنار ويسطو ويتسلط على مقدرات هذا الشعب واعراضه .

وهو حين يؤمن بالمساواة .. فانه لا بد وان يكون عدوا لانصار مجتمع الطبقات .. ذلك المجتمع الذي يرفض تذويب الفوارق بين الناس .

بايمانه بهذه المبادىء والافكار .. لا بد وان يكون في معركة مستمرة مع اعدائها من السياسيين والحزبيين .

الحريـة :

والحريـة هي ذلـك الشيء الذي يصعب تعريفه لفرط بداهته وبداهة حتميتـه وقداستـه .

الا ان الحرية التي اخذت الاهتمام الاوفر والاكبر من العقاد هـي اولا واساسا .. الحريـة السياسية . وليس معنى ذلـك التهوين او التقليل مـن شأن الحريـات الاخرى كحريـة الفكر وحريـة القول وحريـة الضمير .. بل على العكس ليس هناك تهوين او تقليل مـن هذه الحريـات .. فالحريـة السياسيـة هي المجال الحيوي الذي تترعرع فيه كل الحريات .. فحيث تبلـغ الحريـة السياسيـة رشدهـا وتبسط نفوذهـا .. تتألق الحريات كلها .

لهذا فالحديث عن الحرية من خلال آراء العقـاد وكتاباتـه .. يشمـل الحريـة السياسية ومـا يتفرع عنها من حريات .

وللانصاف يعتبر العقاد في طليعـة كتابنـا السياسيين الذين اهتموا بهذا المبدأ طوال حياته امرا جعل البعض يعتبرونه ممثلا لهذه الحريـة بأجلى معانيها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر وصفـه نجيب محفوظ كاتبنـا الروائـي بانـه الحريـة بكـل مـا تعني من ابعاد .. فهـو الحريـة اذا التمسنا لشخصيته فكرة يرمز بهـا اليهـا .. فالحريـة هي الجمال في فلسفته وهي الديمقراطية في سياسته ، وهي الفرديـة في رأيه الاجتمـاعي ، وهذه هي القيم التي دافـع عنهـا وسجـن في سبيلهـا واضطهد كثيرا من اجلها . ومنهـا استلهم ادبـه على تعـدد جوانبه فكـان رائدا كبيرا من رواد الشعر الرومانتيكي الثائر ، وكان ناقـدا فذا يدعـو الى تحريـر العقل والشعور مـن سلطـان السلف والتقاليد وكان كاتب سيرة يؤمن بالعبقرية باعتبارهـا القوة الخالقـة والموجهة وسط الاحـداث والمجتمعات وكان قصاصا تحليليا سيكولوجيا من طراز عال .. والتحليل النفسي هـو اخطر الوسائل للتعبيـر عـن الفـرد اذا احتلـت فكرة الفردية في ذهن المؤلف المكانة الاولى بين حقائق الحياة .

ولم يتخل العقاد عن قيمه . ولم تثبط همته في الدفاع عنهـا طيلة خمسة

وخمسين عاما ، بالرغم مما تعرضت له هذه القيم فـــي رحـــاب واسعـة من الارض من التطوير او الزوال فكـان مثالا للاخلاص والشجاعة .

ولا شك ان وصف العقاد بالحرية .. وصف منصف لـه .. فباسم هـذه الحرية والمطالبة بهـا جاع وشقي ودخل العديد من المعارك وسجـن مرة .. ولكنه لم تفتر عزيمته ولم يتسرب اليأس اليه بل ظل صامدا شامخا يدعو الـى هـذا المبدأ العظيـم في حياتنا .

وحديث العقاد من كتاباته عن الحرية .. حديث طويل ربمـا يغطي اغلب صفحاتها ان صراحـة او ضمنيا . ولا عجب فـــي ذلـك اذا اعتبرناه مـن المفكريـن الليبراليين .

فهو حين يحدثنا عن الحريـة بوجه عام يرى انهـا تكون مطلقة ما دامت الجريمـة مقيدة .

ولا حرية لاحد اذا تيسرت للجريمة اسبابها وتعذر علـى حراس الامـن والقانـون ان يتعقبوهـا ويتخذوا العدة لمنعها قبل انطلاقها .

واذا صدق هذا على كل جريمة فهو اصدق ما يكون على الجريمة الكبرى التي لم تعرف لهـا مصر مثيلا في تاريخهـا . ولعلنا لم نعرف لهـا مثيـلا في التاريخ الحديث بين امم العالم قاطبة .

جريمة لا تقنع بما دون قلب الدولة كلها . والغلبـة علـى مشيئة الامة بأسرها . لا تقيم وزنا للارواح لان المبالاة بالارواح « تنطـع » في رأي اولئك الزعانف الذين حدثتهم نفوسهم بتدبيرها وتنفيذها . لا تقيم وزنا للحرية في حق من حقوقها او في واجب من واجباتها :

حرية القاضي فهي تفرض عليه ان يسخر ضميره لمرضاتها وتقتله اذا حكـم على مجرم من مجرميها .

حرية المحقق فهي توجب عليه ان يطمس الحقائق التي تدينها ويرســـل حبالها على غواربها وتقضي عليه وعلى مئات من زملائـه بالموت اذا كشـف الحقيقة التي تريد ان تطمس معالمها .

حرية السياسي فهي توجب عليه ان ينسى الخطر على نفسه اذا وقف في طريقها .

حرية رجل الامن الذي لا يدعها تخرب ما تخرب وتقتل من تقتل وهـو ناظر اليها .

حرية الصحفي فهي تملي عليه ما يكتب ولا تبالي ان تنسف عليه صحيفته وما فيها اذا اجترأ على مخالفتها .

حرية كل مصري عامل في بلاده ممن تفرض عليهم الاتاوات وتنذرهم في ارواحهم ومرافقهم كلما خرجوا على طاعتها.

ليس للحرية من هذه الحريات حساب عند اولئك الزعانف الذيـن ركبوا رؤوسهم وغلوا في طغيانهم وخيل اليهم ان عباد الله من دونهم همل مباح لا حق لاحدهم في رأي او حياة الا باذن منهم ولم تكن حرية من هذه الحريات قائمة اليوم لو لم تؤخذ هذه الطغمة في ابانها بالحزم الذي احبط كيدها ورده الـى نحورها . ولو لم يكتب الله السلامة لهذه البلاد من شرورها . وقد اوشكـت ان تعصف بكل ما كسبته في حاضرها وماضيها وكل ما اعتدته لمستقبلها وكـل ما ادخرته لاعقابها .

لم تكن حرية من هذه الحريات قائمة في يومنا هذا حتى تلك الحرية التي تأذن لقوم من العابثين ان يتباكوا على الحرية لان القانون يقيد الجريمة ولا يقيد الامناء العاملين على منعها واستئصال شأفتها .

ولو لم تمتنع الجريمة لعلهم كانوا يذرفون الدموع من عيون لا تبصـر نور النهار ، ولا تحمد للجريمة انطلاقها من عقالها .

ان الذي امتنع من شر المجرمين قـد امتنع ، وجازت المغالطة فيه لانـه لم يقع فهل من مغالطة تجوز فيما تحقق من تدبير المسؤولين الذي افلح اليوم حيث لم يفلح قط تدبير قبل اليوم ؟ .

اي قانون تضيق مصر باحكامه اذا كفل لها حماية ابنائها في معاهد العلم والدراسة ؟

اي شيء يبلغ من تقدير مصر ما يبلغه حرصها على الجيل الناشىء من ابنائها واحفادها ؟

لقد انقطع اذى المفسدين عن هذه الذخيرة الغالية منذ طوق نشاط اولئك المفسدين وتعقبهم المسؤولون بما ينبغي لهم من الحيطة والوقاية .

لقد مضت اربعة شهور ولم يرتفع للفتنة صوت في معهد من معاهد التعليم .

فهل كانت تمضي اربع ساعات ولا نقول اربعة ايام او اسابيع على غير فتنة في تلك المعاهد من اقصى القطر الى اقصاه ؟

ان المغالطة تجوز في كل اثر من آثار الوقاية الا في هذا الاثر الملموس الذي لا ريب فيه .

وكل ما تفرضه الشرائع من الاحكام يسير في جانب هذه الغاية وحدها من غير حاجة الى غاية تضاف اليها.

فهل حرية المجرمين في العبث والفساد اغلى على العابثين المتباكين من مستقبل يضيع على عشرات الالوف من ناشئة الامة وعتاد الملايين من الاباء والامهات ؟

لكن الامة بخير والحمد لله .

انها بخير وستظل بخير ما دامت تعرف واجبها كلما جد الجد ووضح اليقين الذي تترفع به عن مهازل الاهواء .

هي بخير ما دام فيها حاكم يعرف واجبه وقاض يعرف واجبه ونائب يعرف واجبه وحارس أمن يعرف واجبه وجمهور يعرف واجبه . وان يقظة الجمهور هذه لأدعى ما يدعونا الى الغبطة والارتياح في هذه الحملة المباركة على عناصر الاجرام لانها هي الضمان لسلامة الامة قبل كل ضمان وبعد كل ضمان .

بل نحن نلمس دلائل الخير في يأس المجرمين وقد ظهرت عليهم عوارضه. كما ظهرت عليهم عوارض التهافت والانخذال . ولعلهم يعلمون اليوم قسوة المسخرين المستأجرين عليهم فهم لا يبضون لهم بالعطاء الا على مقدار التهور اليائس الذي يدفعونهم اليه فلا رحمهم الله من يأس مسخريهم، ولا رحمهم الله من يأس يناط به رجاء امة مبتلاة بهم وهي حقيقة ان تبلغ رجاءها من القضاء عليهم باذن الله عما قريب .

واول ما يندرج تحت الحرية .. هي حرية الفكر . والحق ان العقاد لم

يكن في هذا المطلب نظريا يكتفي بالقول والنظر ، وانما كان عمليا يقوم بالتطبيق والعمل •• فآراؤه في الحرية لم تكن مجرد شعارات وكلمات وانما كانت مواقف واعمالا •• ولنذكر له موقفه من قضية كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين •• لقد كان موقفه التأييد التام في وقت كان ينتظر فيه منه الخصومة التامة • لاسباب كثيرة اولها منافسة الدكتور طه حسين له وهذه هي فرصته في القضاء عليه ، وثانيها لانه كان في ذلك الوقت كاتب الوفد وهو الحزب المناهض للحزب الذي ينضم الى صفوفه طه حسين والمعروف بحزب الاحرار الدستوريين وكانت فرصة له ايضا للهجوم على هذا الحزب من خلال ذلك الموقف بالذات ، وثالثها هذا الاجماع الذي اتفق على ان طه حسين استفز المشاعر باعتدائه ــ كما قيل في ذلك الوقت ــ على بعض المقدسات •• لكن رغم ذلك •• لم ينجرف العقاد ولم يتنكر لمبادئه •• واولها مبدأ الحرية •• تلك التي تتيح للكاتب ان يكون حرا فيما يكتب او يبدي •• فانبرى مؤيدا الدكتور طه حسين وداعيا الى مزيد من حرية الفكر •

ونفس هذا الموقف اتخذه ايضا من كتاب«الاسلام واصول الحكم» للشيخ علي عبدالرازق • مع العلم انه كان ينتظر منه موقف غير هذا على اعتبار ان الشيخ علي عبد الرازق كان ينضم الى صفوف الاحرار الدستوريين •• وغيرها من المواقف التي تؤكد ايمان العقاد بحرية الفكر علما وعملا ، نظرية وتطبيقا •

والسبب في ذلك ان العقاد كان يرى ان حرية الفكر هي شيء أعم من حرية الاراء كما نفهمها على انها جزء من الانسان معزول عن الشعور والاخلاق والبواعث العملية واسباب المعيشة •

وهو يقول : حرية الفكر هي حرية التعبير عن الشخصية الانسانية بكل ما تشمل من حس وادراك وخلق ومزاج ومجهود • وحرية الفكر بهذا المعنى هي شيء لا يختلف عن حرية الحياة او حرية الوجود •

فسيان ان تمنع الانسان ان يحيا ، وان تمنعه ان يفكر ويستوفي جوانب «الشخصية» التي تبلغ تمام مظاهرها في التمييز والتفكير •

وسيان ان تمنع التفكير وان تمنع التعبير عن التفكير ، لان الفكرة التي لا ترى ضوء الشمس هي فكرة ميتة او هي فكرة حية ولكن حياتها هي سبب الالم والكبت والفساد •

واذا كانت حوادث الدفاع عن حرية الفكر لم تبلغ ما بلغته حوادث الدفاع عن حرية الحياة من الكثرة والعنف . فذلك لا يدل على ان حرية الفكر اقل من حرية الحياة . لكنه يرجع الى اسباب متى اتضحت ظهر لنا ان الفكر والحياة في الشخصية الانسانية شيئان قلما يختلفان .

ان الافكار عند الجمهرة الغالبة من الناس تتشابه وتتقارب بحيث يكفي للتعبير عنها منزع واحد هو المنزع الشائع بين السواد في زمن من الازمان .

ثم يواصل العقاد في مقاله هذا عن الحرية الفكرية كلامه عن الفرق بين حرية الفكر عند الرجل العامي وعند الرجل الممتاز وينتهي الى قوله :

وغاية الفرق بين القضاء على الحياة والقضاء على الفكرة ان الحياة يقضى عليها مرة واحدة ثم ينتهي الاشكال فيها بين القاتل والمقتول اما الفكرة فقد يطول اجل القضاء عليها اياما او شهورا او سنوات . فاذا كان صاحبها يصابر قاتليها احيانا فليس ذلك دليلا على ان تأجيل الدفاع عن الحياة مستحيل حين تهدد بالهلاك خلافا للفكرة التي يجوز تأجيل الدفاع عنها ذهابا مع الامل في صيانتها وتغليبها بعد حين .

ويختم العقاد مقاله مستشهدا بكلمة «انجرسول» الخالدة عن الحرية والتي يقول فيها : « ايتها الحرية رفرفي ابدا على الافق البعيد ولا تظلي ابدا حلما في خيال الغيور والمصلح والشاعر المفتون . بل هلمي الينا واتخذي لك سكنا بين بني الانسان » ..

لست ادري ما عسى ان ينبثق عنه رأس العالم من المكتشفات والمخترعات والآراء ، ولست ادري ما عسى ان تنسجه الاعوام المقبلة من سرابيل المجد والفخار ، وليس في ميسوري ان احلم بما سوف ينال من الفتوح والغنائم في ميادين العقول . لكني ادري وانا انظر الى بحر المستقبل اللجي ان شاطىء الحياة لن تمسه نغمة أنفس ولا بركة اندر من الحرية على رجل او امرأة او طفل صغير .

والعقاد عندما يؤرخ للحرية يرى ان هناك ثلاثة الوان من الحرية .. بدأت بحرية الرأي او القلم وحرية الريشة ثم حرية الازميل واخيرا آلة العزف .. يشير الى نقطة هامة وهي انه من الخطأ القول بان حرية الرأي كانت

محبوسة او مقيدة منذ فجر التاريخ .. لانه لم يكن هناك رأي يحجر عليه او يقيده وفي ذلك كله يقول العقاد : حرية الرأي قوة لا تقف في طريقها قوة .

ومن الخطأ ان يقال ان حرية الرأي كانت محبوسة او مقيدة في عصور التاريخ القديم فان الواقع انه لم يكن هناك رأي فلم ينطلق الرأي لانه غير موجود او غير قادر على الانطلاق ولم تدع حاجة من الحاجات العامة الى حبسه او تقييده .

فلما وجد الرأي وجدت حرية الرأي على الاثر . لان السلاح نفسه ينكسر في وجه الرأي الحر ، ولا يصمد لمقاومته وليس من الميسور لاحد ان يحكم بقوة السلاح عشرات الملايين من الادميين الذين يخالفونه في الرأي لان الحكم يتطلب اشياء كثيرة غير اخضاع المحكومين بالقوة ولان اصحاب القوة انفسهم قد يسري اليهم رأي المحكومين فيضم القوة اليه .

وكان الناس قديما يحكمون على حسب حاجتهم الى الامن والمعيشة، لا على حسب حاجتهم الى الرأي والمذاهب الفكرية .

كان المحكومون لا يطلبون نوعا من الحكومة غير الذي يطلبه الحاكمون. فكان الراعي والمرعي متفقين على قاعدة الحكم او على اصول الحكومة . وكان غضب المحكومين غضبا على اشخاص يسيئون سياسة الرعية . ولم يكن ثورة على الاصول التي تقوم عليها سياسة الدولة .

فاذا ثاروا فليست هي ثورة رأي و لادعوة الى فكرة جديدة . ولكنها ثورة قوة مادية على قوة مادية من نوعها . ثورة اجساد على اجساد ، لا ثورة عقول على عقول او افهام على افهام .

اما السلطة الدينية في الزمن القديم فقد كانت سلطة مطلقة يوم كانت معلومات المتدينين لا تدعوهم الى الشك في العقائد التي تعززها تلك السلطة. فلما وجد الشك وجدت الحرية معه ووجدت على قدره واتفق كثيرا ان عقيدة جديدة تنقض عقيدة قديمة . فكان يتفق ايضا ان تجري العقيدة الجديدة في مجراها على حسب تمكنها من النفوس وان وقفت لها قوة السلاح بالمرصاد.

ثم نما نصيب الفرد من الحرية على حسب نصيبه من العلم والمعرفة والدوافع النفسية فأصبح الانسان يحكم برأيه ولا يكفي في سياسته ان يحكم

على حسب حاجته الى الامن والمعيشة • بل اصبح له رأي في الخطط التي يستقر عليها الامن وتحسن بها المعية فبلغت حرية الرأي قوتها التي لا تصمد لها قوة ولا تزال في ازدياد كلما ازدادت مع الزمن حرية الاحاد •

وكان قسط الفنون من هذه الحرية على حسب حاجتها الى الصراحة من جهة ، وعلى حسب الخطر منها على ذوي السلطة من جهة اخرى •

فكان الجهاد في سبيل حرية القلم اظهر من الجهاد في سبيل حريه الريشة والازميل • وكان سبقها الى طلب الحرية على ترتيب صراحتها وخطرها • فسبق اللسان ثم تلاه القلم ثم تلته الريشة والازميل ثم تلاها المعزف لانه اقل الفنون حاجة الى جهاد السلطة والمتسلطين •

سبق اللسان لانه كان قبل المطبعة اقوى من القلم • وكان هو اداة الخطاب الاول بين طالب الحرية ومن يخاطبهم ليطلبوها مثله •

ثم جاء دور القلم حين شاعت القراءة وشاعت وسائل نقلها الى العدد الاكبر من المتعلمين •

ولم تكن بالريشة او الازميل حاجة الى مثل هذا الجهاد في طلب الحرية• لان الصورة تجمع بين الحاكم والمحكوم في تعبير واحد او تعبير متقارب فاذا كانت صورة ثائرة تصدى لها من يمنعها ووجب لها في هذه الحالة جهاد كجهاد الألسنة والاقلام •

ومن نظرية العقاد في الحرية نستلهم ثلاث ملاحظات حول ممارسة الحرية نفسها اولها انه يرفض القول بأن القوانين والعقوبات هي التي تحجر على الفكر •

وثانيها : ان طالب الحرية ينبغي ان يكون حرا وليس عبدا •

وثالثها : ان المجاراة والمحاكاة دون تفكير او اقتناع يحول الحرية نفسها الى ضرب من الجمود •

وعن ذلك يقول : وقد يظن ان القوانين والعقوبات هي التي تحجر على الفكر وتجبر المفكرين على السكوت •• كلا فلا يحجر على الفكر غير الفكر ولا قوة تصد العقيدة غير العقيدة ففي الزمن القديم كان البابوات فيه والملوك يحرقون من يقول بدوران الارض • من ذا الذي كان يساعدهم على ذلك الطغيان

ويمد لهم في تلك الجهالة ؟.. ليست هي الجيوش ولا السجون لان الجيوش اليوم والسجون اكبر واضخم مما كانت في كل زمان ..ولكنهاعقيدةالناس .. ان القول بدوران الارض بلاء يجر عليهم غضب الله ويحرمهم رحمة السماء. فهذه العقيدة هي التي حجرت على العقائد التي كانت تخالفها وتشذ عنها فلما بطلت لم يقدر كل بابوات الارض وملوكها على ان يهدروا في سبيلها شعرة واحدة من تلك الرؤوس التي كانت تطيح في كل مكان بغير حساب وليس في قوانين العالم اليوم نص يلزمك ان تلف رقبتك برباط لا فائدة له وليس هو بأجمل ما تزان به الرقاب ، ولكن هب ان رجلا عزم على ان يخلعه ولا يعود اليه فماذا تظن هذا الرجل ملاقيا من الناس..الفاقة والازدراء فهو لا يقبل في الوظائف ولا ينال رتب الدولة ولا يدعى الى البيوت ولايقابله الناس مقابلة الجد والاعتناء واذا لج في امره نسبوه الى الجنون وعاملوه معاملة المخلوعين المهدرين . وقد يكون به شيء من الجنون او لوثة من الشذوذ ولكن ليس لانه خلع رباط الرقبة الذي يقيده ، بل لانه استهدف لتلك المحنة وصبر عليها من اجل شيء لا يضير .

قلنا اننا نريد ان نكون احرارا في طلب الحرية لئلا نطلبها كما يطلبها العبيد المسخرون فمن تلك الحرية التي نريدها ان نعرف حدود حرية الفكر نفسها وان نفهم انها ضرورة عجز لا تستحب لو كان الناس قادرين على الانصاف في منع الافكار السخيفة الشائهة واطلاق الافكار الصائبة الجميلة فليست اباحة الحرية الفكرية لكل انسان الا ضرورة الجأنا اليها علمنا بعجزنا عن التمييز وقلة انصافنا للمعارضين . والا فلو فرضنا ان اختراعا ظهر اليوم فعرفنا به كل فكرة تستحق ان تذاع وكل فكرة تستحق ان تمنع بلا خوف من الغلو والتفريط او من الاجحاف والمحاباة فمن ذا الذي يدعو الى اطلاق الحرية الفكرية لكل من ارادها الا ان يكون متهوسا او جاهلا بمعنى ما يقول فنحن حين نأذن لكل فكرة بالظهور كمن يقبل جبلا من التراب لئلا يخسر جوهرا قد يكون مخبوءا فيه او كمن يغربل آكاما من الهشيم طمعا في كيلة من الحبوب وفي ذلك اسراف لا يسوغه الا العلم بأن الحجز المطلق على الافكار اسراف شر منه واقرب الى المجازفة والفقدان .

ومن الناس من ينصرون كل حديث على كل قديم مخافة الاتهام بالرجعية

والجمود ومن تسألهم ما رأيكم في الديمقراطية او في محاكاة الاوروبيين ، او في المساواة بين الرجال والنساء في جميع الحقوق او في وصف الصحـراء والابل في الشعر الحديث . او في غير ذلك من الامور التي يكثر فيهـا الجدل بين الجامدين والمجددين فتلفيهم من انصار كل جديد واعداء كل قديم . ومـا كان عن علم ذلك الانتصار او ذلك العـداء ولكنـه عن مجـاراة كمجاراة الجامدين لحكم العادة وآراء الشواذ . فهذه الحرية ضرب آخر مـن الجمود ، لا نريدها لمصر ولا نفضلها على عبادة القديم الذي تنعاه على المقلدين ولسنا احرارا حين ندور مع الافكار الطارئة كما يدور طلاب الازياء مع كل عارضة تروج وكل خاطرة تعن في الاذهان فلنكن جريئين على الجديد جرأتنا عـلى القديم ، ولنتعود ان ننقد الحضارة الاوروبية كما ننقد ما سلف من حضارات طويت الان بالحسن والقبيح وللمرضي فيهـا والمغضوب عليه .

والملاحظ ان موقف العقاد من الحرية لم يتغير طوال حياته .. فهـذه العبارات التي نستشهد بها من كتاباته تمثل مراحل مختلفة من مراحل عمـره وتفكيره .. ولكنها واحدة في فكرتها عن الحرية .

الديمقراطيـة :

والديمقراطية ليست نظاما للحكم وحده بقدر ما هي منهج للحياة كلهـا وغايتها ان ترد الاوطان الى شعوبها وان تضع جميع قوى الاقتصاد والسياسة والاجتماع .. في خدمة الانسان معتمدة في انجاز ذلك كله على العدل .

بيد ان مفهوم الديمقراطية كنظام للحكم يشكل قاعدتها الاساسية .. وهذا المفهوم مستبين وواضح . فهي تعني ان تكون الدولة التي هي « سلطة السيادة والدستور الذي هو قانون السيادة ـ والحكومة التي هي سلطـة التنفيذ ـ ان يكون هذا كله ممثلا لسيادة الشعب على جميع مقدرات سلطته وسياسته» .

انها تعني ان تكون الامة مصدر الحكومة ومصدر القانون .. وان تملك حقها الكامل في نقد الحكومة ونقد القانون .

الديمقراطية تعني ان يكـون للشعب ممثلون ونواب يجيئون ثمرة اقتراعه

الحر .. بحيث يمثلون السيادة المباشرة للشعب . ويتمتع من يشاء منهم بحق المعارضة السياسية في شكلها القانوني وكيانها المستقل . هي تعني ان يكون هناك رأي عام « يتمتع افراده بحقوق الانسان الحر تغذيه صحافة حرة وافكار طليقة ومناقشات لا تعرف التردد ولا الاحجام » .

هي تعني ان يتوفر الامن النفسي والاجتماعي والقانوني لكل افراد المجتمع ومواطنيه .

هي تعني ان تختفي الامتيازات السياسية ليأخذ مكانها حق تكافؤ الفرص على جميع مستويات العمل السياسي والوطني .

هذه هي الديمقراطية كنظام للحكم .. ليكن اسمها ما يكون .. لكن لنذكر دائما ان هذا هو جوهرها وهذه هي خصائصها .

والديمقراطية حين تعمل وفق خصائصها هذه دون تعويق لها او انقاص من نفوذها فانها لا تقف عند حدود وظيفتها السياسية بل تتخطاها الى وظيفتها الاجتماعية فتجعل الثروة القومية ملكا للشعب . كما جعلت السلطة السياسية في يد الشعب .

والعقاد يؤمن بالديمقراطية كنظام واسلوب حياة .. ولقد كانت محنته في حياته انه دائما يحلم بهذه الديمقراطية وينادي بها في وقت صمت الآذان عما ينادى واغلقت العيون عما يكتب .

ولعل السر في دفاع العقاد عن الديمقراطية هو تقديسه للفرد .. انه يقول صراحة «انا ادافع عن الديمقراطية لانها تؤمن بحرية الفرد . وتصلح الناس اصلاح الاحرار المكلفين لا اصلاح العبيد المسخرين » ..

ولا يتعاطف مع غير الديمقراطية من نظم ومذاهب سياسية لنفس السبب تقريبا حيث يقول : ولكني أمقت المذاهب السياسية الاخرى لانها تسلب الحرية الفردية . ولا تحل المشكلة الاقتصادية فتحرمنا الكرامة ولا تكفل لنا الطعام . وهذا هو الحرمان الذي لا عزاء فيه . ولا موجب لاحتماله والصبر عليه الى زمن طويل ..

العقاد يدافع عن الديمقراطية . لانها تؤمن بقيمة الفرد ويمقت غيرها لانها تنكر هذه القيمة للفرد . وايمانه بهذا الفرد الذي قدسته الديمقراطية

جعله يعارض الكثير من المفكرين حيث يقول : يأخذ بعض الناس بالقـــول القائل ان الفرد نتيجة منفعلة وليس بسبب فاعل في الحوادث التاريخية، وان العظيم لا ينبغ في امة الا اذا تمهدت له دواعي الظهور من تكوين تلك الامة. فالعوامل الاجتماعية اذن هي موضع البحث والالتفات وليست عظمة العظماء ولا جهود الافراد . وهذا مذهب مبالغ فيه قد جنح اليه الاشتراكيون عـلى الخصوص ، لانهم يردون العوامل كلها الى المجتمع وعناصر تكوينه ومعيشـة ابنائه ، ولكنهم مهما يبالغوا في هذا فلن يستطيعوا ان يزعموا ان العظمـاء والصغراء سواء . وان النوابغ لا يقدرون على عمل يعجز عنه المحرومون مـن النبوغ . ومتى كان مسلما ان النوابغ يعملون وان عملهم لا يذهب سـدى. فهذا هو المهم الذي يستحق النوابغ من اجله دراسـة الدارسيـن واعجـاب المعجبين .

يسأل السائلون الفارغون : من صاحـب الفضل في السباحـة ؟ المركـب او البحر او الريح ؟

وهذا سؤال فارغ كما قلنا لان السباحة كلمة لا معنى لها اذا انفرد المركب او انفرد البحر او انفردت الريح . ففي الساعة التي تلفظ فيها كلمة السباحـة البحرية . تتمثل لنا كل هذه العناصر مجتمعات . ولكنهـا تتمثـل او لا تتمثل تعجز كل العجز عن انكار حق المركب في اتمام السباحة وحـق المسافر فـي اختيار بين مركب ومركب وحـق الشركـات فـي انشاء المراكـب ورصـد المسافات كيفما كانت البحار والرياح .

وكذلك العظمة المشهورة كلمة تستلزم وجود الادميـين الذين يشتهـر بينهم العظيم بغير فلسفة ولا تعمق ولا استطلاع لغيبيات ، ولكـن مـاذا فـي هذا مما ينفي اذ العظيم افعل من الصغير وان هذه الافعال جديرة بالتقديـم والتأخير في سير الامور .

فالفرد شيء والعوامل الاجتماعية شيء . ومن قال ان الفرد لا يهـم فقد انكر الغاية من اصلاح المجتمع كله . لان كل اصلاح لا ينتهي الـى الاهتمام بالافراد فهو اصلاح تركه وانجازه سواء .. »

كان هذا تعليقا ورد ضمن مقال للعقاد عن فلسفة التراجم فـــي مجلة

الرسالة القديمة عام ١٩٤٣ . وهو يكف عن مناقشة هذه الفكرة ولا ينتهي قط من سؤال نفسه : هل تتعارض رعاية الفرد مع الاهتمام بالمجموع ؟ اليست رعاية الافراد فردا فردا ، هي التي تتحول في النهاية الى اصلاح اجتماعي شامل ؟ اهناك تعارض منطقي او فلسفي بين رعاية الافراد وتكوين المجتمع السليم .

ودأب العقاد دائما على مناقشة فكرة الحرية والفردية والمجتمع في مقالاته . جاء في مقاله تحت عنوان ذبح الفقراء لا يحل مشكلة الفقر بالرسالة القديمة سنة ١٩٤٣ : وانني لا اقول ان الحرية وحدها تكفي الانسان وتغنيه عن الطعام . ولكني اقول ان المذهب السياسي او الاجتماعي الذي يسلبنا الحريـة يسلبنا اعز نعمة في الحياة الانسانية ، بل يسلبنا كرامة الانسان ، ويستحق منا المقت والازدراء . وانا لا اقول ان ازالة الفوارق الاقتصادية بين الطبقات ترمي الى تقييد حرية الفرد . ولكني اقول ان تقييد الحرية الفردية لازالة هذه الفوارق نعمة لا يرحب بها رجل كريم .

العقاد ينادي بالديمقراطية التي تعلي من قيمة الفرد وتدافع عنه ، لا التي تنزل من هذه القيمة وتسلبها .. فالفرد في رأيه ليس كما مهملا الى جانب المجتمع او الى جانب الاحوال الاقتصادية . انما هو شيء يماثل هذه وتلك . انه « وليس الفرد لغوا الى جانب المجتمع او الاحوال الاقتصادية ولكنه شيء والمجتمع شيء والاحوال الاقتصادية شيء . وليس من الضروري اللازم . لادراك حقيقة من الحقائق الاجتماعية والفلسفية ان تلغي شيئا من هذه الاشياء .

وتغليب الشؤون الاقتصادية ، او تغليب الدوافع المادية على دوافع الحياة في الافراد ، هو في الواقع قدرية جديدة يلجأ اليها العاجزون في زماننا هربا من التبعة كما لجأ العاجزون فيما مضى الى قدرية القرون الوسطى .

كان العاجزون فيما مضى يقولون : ماذا نصنع ؟ وما الحيلة ؟ هذا قدر مكتوب لا حيلة لنا فيه فأصبح العاجزون في زماننا يقولون : ماذا نصنع وما الحيلة ؟ هذه ضرورات الاقتصاد التي تسيطر على ارادة الافراد . فلا لوم عليهم ولا تقصير من قبلهم ، وانما اللوم لوم المجتمع والتقصير تقصير الاحوال .

واحسسنا بخطر هذه القدرية فاثبتنا وجود الفرد الى جانب وجود الدولة او المجتمع . ورأينا ان الفرد قد يكون قوة فاعلة كما يكون نتيجة منفعلة . وان الاصلاح الذي يلغي حريـة الفرد فساد شر من كل فساد . ومقاييس التقـدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال : فاذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تتـاح للحقير ويحرمها العظيم واذا قسناه بالغنى فقد يغنى الجاهل، ويفتقر العالـم. واذا قسناه بالعلم فقد تعلم الامم المضمحلة الشائخة وتجهل الامم الوثيقة الفتية. الا مقياسا واحدا لا يقع فيه الاختلاف والاختلال وهـو مقيـاس المسؤولية واحتمال التبعة .

فانك لا تضاهي بين رجلين او امتين الا وجدت ان الافضل منهما هـو صاحب النصيب الاوفى من المسؤوليـة وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته ولا اختلاف في هذا المقياس كلما قسـت به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد او بين الهمجي والمدني او بيـن المجنون والعاقل او بين الجاهل والعالم او بين العبد والسيد او بيـن العاجز والقادر او بين كل مفضول وكل فاضل على اختـلاف اوجـه التفضيـل ». « فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع» ان اساس الديمقراطية في رأي العقاد ، هو الايمان بكفاية الفرد والاعتقاد بالذكاء الانساني والتصديق بمزايا تعاون الملكات واختلاف النفوس على الخير العام .

ولفرط ايمانه بهذا الفرد ، فهو يطالب دائما ان يكون شريكـا في الحكم .. ذلك ان الفكرة التي ترمي اليها الحكومة الديمقراطية هي تمكين اعضـاء المجتمع وافراد الشعب جهد الطاقة من المشاركة في الحكم واتاحة الفرصة التامة الحرة لهذه المشاركة . وقد تحقق هذا النوع من الحكم الى حـد مـا فـي الديمقراطيتين الكبيرتين الديمقراطية الانجليزية والديمقراطية الامريكية .

وقد عرفت الديمقراطية بانها حكومة الشعب بالشعب وللشعب . ويتبين من مضمون هذا التعريف ان الحكومة الديمقراطية لا تضطهـد فريقـا مـن الشعب لتناصر الفريق الاخر ولا تقسو على حزب من الاحزاب ولا تستـذل طبقة من الطبقات وانما تلتزم روح الاعتدال والتسامح . ومعنى حكومة الشعب ان رغبة الاكثرية يجب ان تتحقق ولكن على ان تراعي شعـور الاخـاء نحو

الاقليات لانهم كذلك جزء من الشعب فحرب الطبقات واضطهاد الاقليات ومقاومة الاحزاب تتنافر جميعها مع الديمقراطية .

والديمقراطية تؤمن بالحرية الفردية وضرورة انماء الشخصية الانسانية وترى ان الدولة وجدت من اجل الفرد وان الفرد لم يوجد من اجل الدولة وهي لا تفرط في الثقة بالدولة ولا تنزلها منزلة العبادة والتقديس ، وواجب الدولة هو ان تهيىء للفرد المجال وتمنحه الفرصة لانماء خير ما فيه . واسمى واجبات الدولة هي تمكينه من اظهار قدراته ومواهبه . واذا لم تكن الديمقراطية هي خير انظمة الحكم والمثل الاعلى له فانها على الاقل اهون الحكومات احتمالا واقلها عيوبا ومساوىء . فضلا عن انها تجنبنا الكثير من المزالق والعديد من الاخطار .

والحكومة الديمقراطية لا تفرض علينا عقائد خاصة ولا تأخذنا بمذهب معين في الاخلاق والاداب لان التفكير الديمقراطي يؤمن بان آراء الانسان الاخلاقية والسياسية هما من اختصاصه وشؤونه فمن حقه ان يكون له الحرية فيهما دون تدخل الدولة . فالدولة لا تفرض علينا كيف يجب ان نعيش وعلى اي نمط نفكر . وانما عليها ان تدفع عنا العقبات التي تعترض جهودنا ، وتعوق تفتح ملكاتنا . وان تخلق الاحوال التي تيسر لكل انسان اختيار طريقته في الحياة ، وان يعيش طبقا لاختياره . فالدولة تمكن كل فرد من تلقي العلم ليثقف عقله ، وتتهذب روحه ، ويستطيع ان يدرك الحق ويميز القيم وتنمى ملكاته الانتقادية حتى يستطيع ان يتخلص من عبودية الاعتماد على تفكير الغير والانسياق الى آرائه. وتزوده باسباب التفكير المستقل .

وهي لا تمكن الفرد من الاستئثار بالسيطرة والنفوذ وتحتاط لذلك اشد احتياط . لانها قد تعلمت من التاريخ واحداث الماضي العظيمة وعبره الاليمة ان البشر لا يمكن ان يؤتمنوا على السيطرة غير المحدودة على مصائر اخوانهم البشر ، ومن الواضح ان الذين عليهم ان يخضعوا للقانون يلزم ان يكونوا هم الذين يقررون القوانين الصالحة فليس يكفي ان يكون الذين في ايديهم مقاليد السلطة موهوبين حكماء ليضعوا احسن القوانين بل يلزم ان تتفق كفايتهم مع الحرص على اسعاد الناس وتحري سن القوانين التي يريدونها .

وتلائم احوالهم النفسية وظروفهم الاجتماعية وتجاوب مطالبهم وتلبي حاجاتهم وخير للناس ان يعيشوا في ظلال قوانين ناقصة ، ولكنها ملائمة لحاجاتهم ، من ان يرغموا ارغاما على قبول نظم كاملة مسلمة من العيوب . والطبيعة الانسانية في مختلف العصور ملأى بالمتناقضات والغرائب فهي تلتمس قوانين ملائمة لها . لا ان ترغم على قوانين كاملة .

وقد جاهدت الديمقراطية جهادا عنيفا متصلا لتحقق هذه الاراء ووقفت الى حد لا بأس به في ان تكتسب للانسان حق المساهمة في تقرير نوع الحكم الذي يخضع له وفرض القوانين التي تسري عليه وهو حق يجمل بنا ان نقدره ونحرص عليه ونعمل على التوسع فيه والاستزادة منه ، والديمقراطية بطيئة في اعمالها وغير براقة في مظاهرها وقد لا تثير الخيال بروعة مشاهدها وفخامة مناظرها ، والذين يعهد اليهم في الحكم قد يرتكبون الاغلاط ، ولكن فضيلة الديمقراطية هي التجربة والمحاولة والتجديد الذي يتبع ذلك. والذي لا يصلح للحكم في بادىء الامر قد يصبح صالحا بمثابرته على أداء واجبه واستفادته من اغلاطه . وخير ان يعمل الانسان العمل رديئا ليتعلم كيف يتقنه بعد ذلك من ان يسلب الفرصة لعمله على الاطلاق .

كذلك يرى العقاد ان الديمقراطية قابلة للتطور والنماء . في حين ان اكثر المذاهب المناوئة لها تميل الى الجمود والمحافظة . ومعظم المحافظين ينكرون الرغبة في التغيير الاجتماعي الواعي لانهم يعتقدون ان النظم لا تصنع صنعا ، وانما تنمو نموا بطيئا غير محسوس به وانها من عمل التاريخ وفي بعض الاحيان يخلعون عليها القداسة فيقولون انها ارادة الله .

ويتفق العقاد مع الرأي القائل ان الديمقراطية ، لا ترى بأسا في تغيير القوانين ، وتعديل الشرائع حسب المصلحة ومستلزمات الاحوال الطارئة المتجددة . والمحافظون يحاولون ان يزخرفوا عيوب النظم السائدة ويستروا مساوئها . ويتكلفون اظهار الحكمة فيما اصبح متنافرا مع الظروف المستجدة صونا لمصالحهم وابقاء على نفوذهم ..

هكذا كانت فكرة العقاد عن الديمقراطية وهكذا كان يراها .

المساواة :

والذي يؤمن بالحرية والديمقراطية .. لابد وان يؤمن ايضـا بالمساواة. فالديمقراطية السياسية قيمتها بلا ريب .. لهذا كان العقاد مؤمنا بالمساواة كمبدأ واسلوب حياة .

ونظرية المساواة تقتضي ان يكون لكل إنسان الحق المتساوي في التعبير عما يريد بالكلام او بالكتابة . وان لكل انسان الحق في الاستماع لـه او مخالفته وتفنيد حججه ، ومنح اي رأي من الاراء امتيازا خاصا معناه محاولـة منع الحق من الظهور وفرض الخطأ .

وحين يتحقق ذلك .. تحقق اسمى غايـات الانسان .. علـى اعتبار ان اسمى غاياته هي انماء شخصيته فليس هناك غاية في الحياة اسمـى مـن ان ينمي الانسان مواهبه الى اقصى حد مستطاع ، ويحقق امكاناته ، وقد ظهـر وعي العقاد بصحة فكرة المساواة مبكرا وبانها ضرورية ضرورة الحيـاة .. ذلك في كتاباته التي نذكر منها هذا المقال الذي علق فيه على ترجمة فتحي زغلول شقيق سعد زغلول لكتاب جوستاف لوبون الـذي يهاجم فيـه الاشتراكيـة ولا يعترف بالمساواة .

وقد انبرى العقاد يفند اقوال جوستاف لوبون في مقـال كبيـر نقتصر هنا بما يخص المساواة ورأيه فيها حيث يقول : اما فيما خلا وصفه لـروح الامة وشرحه ما لهذه الروح من التأثير في تكوينها فالكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والاشتراكية . يخيل اليك ان الدكتور لوبون يكتب عن المسـاواة بقلم شارل الاول او لويس السادس عشر وانه يكتب عن الاشتراكية بايعـاز من روتشيلد او روكفلر فتراه ينعي على مبدأ المساواة ولكنك لا تعلـم منـه كيف يكون عدم المساواة وتراه يتشاءم من الاشتراكية كما يتشاءم الناس من نعيب البوم ولا يعلمون لذلك التشاؤم سببا .

فمن اقواله عن المساواة : غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية . فقاموا ينشرون في النـاس فكرة المساواة بين الافراد وبين الشعوب .

خلبت هذه الفكرة اذهان الجماعات فارتكزت في عقولهم ارتكازا قويـا

وآتت أكلها بعد زمن يسير • فزعزعت اسس الجمعيات الاولى وولدت اعظم الثورات ورمت امم الغرب في اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها الا الله • ثم يقول : الا ان العلم تقدم واثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وان الهوة التي اوجدها الزمان في عقول الافراد والشعوب لا تزول الا بتراكم المؤثرات جيلا بعد جيل • ثم يقول بعد ما تقدم : ما من عالم نفس ولا من سائح ذي نظر ولا من سياسي مجرب الا وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالي ، اعني مذهب المساواة الذي قلب الدنيا رأسا على عقب ، واقام في القارة الاوروبية ثورة ارتج الكون منها واذكى في القارة الاميركية نار حرب الاجناس • وصير جميع المستعمرات الفرنسية في حالة محزنة من الانحطاط • ومع ذلك فقلما يوجد بين اولئك المفكرين من يقوم في وجهه بمعارضة ما •• »

كل ذلك جرى من سريان مذهب المساواة على ان دعاة المساواة لم يشتطوا في مذهبهم ولا قالوا ان الناس طبعوا على غرار واحد في العقل والفضل • وهل ترى ان دعوتهم الى التساوي في الحقوق امام القانون تعطل تنازع البقاء بينهم وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم ؟ أليست هي احرى ان تفسح المجال لهذا التنازع وترفع العوائق التي يضعها في طريق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار ؟

يحق لاعداء المساواة ان ينكروا على دعاتها كل الانكار ويحق لهم ان يحجروا عليهم بأن العلم تقدم ، واثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة • يحق لهم ذلك اذا كان دعاة المساواة في شك من هذه الحقائق • او اذا كان قد قام منهم قائم بمنى العامل الجاهل بان يتبوأ منصة الفيلسوف في الجامعة او يسول له ان يطالب بوظيفة الطبيب او المهندس ولكننا نعلم ان داعيا كهذا لم يقم ولن يقوم لان مديري البيمارستانات لا يفرطون في مثله اذا ظهر وكل ما يمني به الداعي الى المساواة ذلك العامل الفقير انه يكون متساويا مع سائر الناس في الامن على حياته وهل في ذلك من ضير ؟؟ ومتى كان مبدأ المساواة لا يمنع انسانا حق التمتع بثمرة تفوقه في المعارف او المواهب العقلية على سواه فأي ضير فيه ؟

يصم الدكتور هذا العصر بانه عصر الجماعات وانه يبيح للفرد الجاهل من

الحقوق السياسية ما يبيحه للمتعلم وان صوت الدكتور الفيلسوف كصوت الزارع الغبي في انابة النواب وانتخاب الحكام •• الى آخر ما يقول في تنديده بروح الديمقراطية ولكنه ينسى ان التساوي في اصوات الانتخاب ليس الا تساويا صوريا وان لكل انسان من الاصوات في الواقع بقدر ما له من العقل والقدرة على اقناع سواه باختيار من هو افضل من غيره للنيابة • وكذلك يصبح اكبر الناس عقلا واستعدادا للاقناع اكبرهم قسطا في سياسة بلاده • فان كان بعض الموسرين يستعين بالمال على شراء الاصوات ويستخدم تلك الاصوات المتعددة في غرض واحد • فذلك ما يشكو منه الاشتراكيون الذين ينقم عليهم الدكتور لوبون •

وهبنا ابطلنا اليوم مذهب المساواة فمن يا ترى يحكم بين الناس ويقدر لكل منهم ما هو أهل له من الحقوق السياسية والادبية ؟؟ اترانا نلجأ في ذلك الى الحكومة ؟

ذلك ما يأباه الدكتور لانه يريد ان يقصر عمل الحكومة على الضروري الذي لا يسع الافراد القيام به فاولى به وهذه ارادته ان لا يدعها تتدخل بين الناس ، حتى في ترتيب اقدارهم وتمييز درجاتهم ، كانما هم كلهم موظفون في دواوينها • فلم يبق اذن الا ان تترك الناس يدعي كل منهم من الحقوق ما يقدر على تحصيله بذراعه • وبمثل هذا النظام تثوب الى الصواب• ولا نكون قد تركنا اضغاث احلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا لاتنا اذا تركنا اضغاث احلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا كنا اول ضحاياها فما المساواة الا بين المنحطين وهي مطمح آمال صعاليك العقول يحلمون بها وهم باحلامهم من التعساء الخ الخ ـ أليس كذلك ؟؟

والعقاد يرى ان عدم المساواة التي تجاهلها لوبون من شأنه تقسيم المجتمع الى فريقين فريق يصدر الاوامر ، وفريق يقوم بالتنفيذ ويحرم من الحرية لان افراد هذا الفريق وهم الاكثرية يقضون اعمارهم اسرى الحاجة سجناء الفقر الذي لا ذنب لهم في ايجاده واحتمال اصفاده • وفي يد الفريق الآخر التوجيه واستقلال الرأي • وقد مكنته من ذلك الظروف لا القدرة الشخصية•

وعدم المساواة الاقتصادي يؤدي الى عدم المساواة في التعليم فتصبح

الاستفادة من المعرفة مقصورة على عدد قليل من الناس ويظل الكثيرون عاجزين عن عرض قضيتهم وبيان حاجتهم ولا ينعمون بخيرات المدينة ولا يقدرون قيمة ميراث الحضارة واذا قلت الرغبة في المعرفة وغابت عن المدارك معاني الحياة السامية تنبه الحيوان الراقد في جوانح الانسان ٠

وعدم المساواة في الحياة الاجتماعية معناه فقدان الحرية في عالم العقل والتفكير لان استبقاء عدم المساواة يستلزم صياغة العقول على نمط خاص وتوجيهها وجهة معلومة وفي كثير من الامم يتخذ الاغنياء الصحافة اداة لتوجيه الرأي العام لمصلحتهم عن طريق الاعلانات او امتلاك الصحف وهذا التوجيه او الايحاء يحاول اخفاء العيوب ويصور الامور على غير حقيقتها ٠

واثر عدم المساواة محزن لانه يجعل الطبقة المتوسطة منهومة بطلب الثروة مشغولة بحب الامتلاك فتفني جهدها في هذه المحاولة ٠ ولا تجد متسعا لتحصيل القيم الروحية السامية ٠ ويصبح الفن والادب والفكر بوجه عام في موقف حرج فهو من ناحية مضطر الى ان يترضى الاقوياء الذين يملكون السيطرة والنفوذ ومن ناحية اخرى هو حريص على ان يتملق شعور الشعب الجاهل الذي لم تصقل غرائزه ولم يهذب عقله ولم يصل اليه ضوء الاستنارة ٠

ولتوضيح رأي العقاد في المساواة وقيمتها بالنسبة للمجتمع نسجل هنا مقالا كان قد كتبه في مجلة الازهر في نوفمبر عام ١٩٥٩ وفيه يحدد معنى المساواة في كل من الدين والفلسفة المادية فيقول :

« المساواة خير ومصلحة اذا اريد بها انها تعطي كل ذي حق حقه ٠ وانها تحول بين كل انسان وبين العدوان على حق غيره وتسوي بين جميع الناس في حدود المعاملة ٠

ولكنها شر ومضرة اذا اريد بها ان تمنع المزايا والكفايات وتجعل الناس جميعا كأنهم فرد متكرر لا فرق بينهم في الصفات ولا اختلاف بينهم في الاعمال والاخلاق ٠ ولا تمييز بينهم في التبعة والغاية ٠

وهذه المساواة على كونها شرا ومضرة ٠ هي استحالة تامة من جهة وحالة لا يتمناها العقلاء الراشدون ان جاز تحصيلها من جهة اخرى ٠

فهي استحالة تامة لان عوامل الاختلاف بين الموجودات جميعا ولا سيما الموجودات المركبة اعمق جدا من ان يحيط بها سبب واحد او جملة محدودة من الاسباب ولا سيما تلك الاسباب التي يسمونها في مذهب الماديين بالاسباب الاقتصادية .

وحسبنا مثل واحد من كواكب الفضاء ونجومه وأجرامه المختلفة فليست هناك اسباب اقتصادية كالاسباب التي تعمل في المجتمعات الانسانية ولكننا لا نرى بين ملايين من الكواكب نجمين اثنين يتساويان في الحجم والضوء والسرعة والموقع والتركيب وسعة المدار .

فان لم يكن هذا المثل كافيا فلننظر الى مثل آخر من عالم النبات الذي يحسب من الكائنات العضوية فخذ من الغابة الواحدة شجرة واحدة . وخذ من الشجرة الواحدة غصنا واحدا ومن الغصن الواحد فرعا واحدا . ومن الفرع الواحد ورقة واحدة فانك لن ترى لهذه الورقة شبيها قط في طولها وعرضها وشكل استدارتها او استطالتها وخطوط نقوشها وحوافيها ولن ترى ورقتين تتشابهان في الصبغة او في توزيع اللون بين اجوائهما .

فاذا كانت اسباب التنوع بين الكائنات بهذا العمق الذي لا يسبرغوره وبهذه الاصالة التي لا يحصرها سبب واحد ، ولا جملة من الاسباب المحدودة ، فمن المسخ المشوه لتكوين الاحياء الانسانية على الخصوص ان نقصرها على شبه واحد وهي على تركيبها المتشعب احق بالاختلاف من اجرام الكواكب واوراق الاشجار ولهذا تعتبر المساواة استحالة بعيدة كما تعتبر مصابا حيويا غير مرغوب فيه ان تأتيوما هو بالتأتي على وجه من الوجوه .

وكل ما هو مستطاع ومرغوب فيه فانما هو منع الاختلاف الظالم بين الناس واطلاق عوامل الحياة الحرة التي تؤدي الى تنويع مزايا الحياة وتوفير نصيبها من الكفايات والصفات وتوسيع مداها من الحقوق والواجبات وهذا ما صنعه الاسلام ولم يصنعه ولن يصنعه مذهب هدام .

يسوي الاسلام بين الناس جميعا فلا تمييز بينهم في حقوق الانصاف وحقوق المعاملة ولا فضل لاحد على الاخيرين بغير اعماله واخلاقه التي تجمعها

كلمة التقوى • وهي كلمة تجمع فيها كل ما ينطوي في اداء الواجب ورعاية الحدود واجتناب المحظورات •

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » •

وهذا هو الانصاف اصدق الانصاف وانفع الانصاف

واما ما عدا ذلك فالمساواة فيه ظلم وبخس للحقوق

هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة •

لا يستوى الخبيث والطيب

وينشأ عن هذا التفاوت في الصفات ما لا بد ان ينشأ عنه من التفاوت في الارزاق • ولكنه لا يبيح لصاحب المال ان يحسبه حكرا له ولا يأذن لطائفة من الناس ان تحصر الاموال بين يديها •

هذه المساواة هي الحق الواجب وهي الرضا للناس احادا وجماعات فما من مصلحة الانسانية جمعاء ان يتساوى فيها العلم والجهل والسعي والكسل والطيبة والخبث والفطنة والغباء ، وما من أحد يرضى عن هذا التساوي ويطلبه ويجعله اساسا للمعاملة في المجتمعات الانسانية الا ان يكون من اراذل الخلق الذين وطنوا انفسهم على الاخلاد الى الضعة واستراحوا الى نصيبهم من الجهل والعجز واضمروا الحسد والضغينة على من يسمو بهمته الى نصيب فوق هذا النصيب •

والمسألة هنا ليست بمسألة الاصلح الانفع فحسب • ولكنها مع هذا مسألة الممكن الذي لا يتأتى غيره على طول الزمن وما تأتى قط ولو في زمن قصير •

فالمساواة التي يدعيها اصحاب التفسير الاقتصادي للتاريخ لا تتم في مجتمع من المجتمعات الانسانية ولو قبض على زمامه اصحاب هذا التفسير عشرات السنين • بل هم كلما تقدموا في مجتمعهم سنة بعدوا به عن مساواتهم واضطروا على الرغم منهم الى التسليم بالعوامل الحيوية والعوامل

الكونيـة التـي لا تسمح لحظـة واحـدة بالغـاء الفـوارق والمزايا بين بيـن الاحيـاء •

فلم يمض جيل واحد على مجتمع من المجتمعات التـي يفرضون عليهـا مبادئهم الماديـة التى ظهرت فيه طبقات من الرؤساء والخبراء والمديرين يتفاوتون قبـل كل شـيء في احوال المعيشة الاقتصاديـة من مسكن وملبس وطعـام ورياضـة ونفوذ وحظوظ من المال والمتاع •

وكل مـا يستفاد من تلـك المساواة الموهومة انهـا سلبت عشرات الملايين قدرتهم على التقدم لانهـا قتلت فيهم عوامل الامل والحـذر التي تستحث الخاملين والكسالى الى السعي والطموح ، اذ كـان الباعث الاكبر على نفض الكسل والخمول ان يشعـر الخامل الكسلان بالخوف من عاقبة الضعـة وبالحافز الى التقدم واستثارة ما فيه من حسن الاستعداد للعمل وطلب المزيد ، وان الملاييـن من الخلق ليفقدون هذا الحافز الطبيعي اذا ايقنوا انهم مطمئنـون الى مصيرهم عامليـن او غير عامليـن •

وينتهي الامر بتلك المساواة المادية الى ظلـم محيط لاتفلت الامـم ولا الاحاد من سوء عقباه واول المظلومين اولئك الذيـن يتخيلـون انهم هـم الموعودون بالانصاف والعدل والرعاية فان العاجز الذي يحرمه المجتمـع حوافز الهمـة لهو المظلوم والمسكين الذي يبلـغ من ظلمه ان يجهل انه مظلوم ويرضى عن ظالميـه • واقبـح ما في هذا الظلم انه نزول يأبى للنازل ان يصعد باختياره وانـه يسوي الاعلى بالادنى حيثمـا استطاع فاذا نظر المتساوي الى حضيضهم الذي يسمونه المساواة لـم يجدوا دونه منزلة يهبطون اليهـا فهي مساواة ليس دونها مكان يتسع للمزيد من الهبوط وهـم يتجنبون فيهـا الاعلى علـى الدوام ولا يتجنبون ما هو ادنى وانمـا المساواة شرف حين ترتفع بالادنى الى ما هو اعلى منه وحين تعطي الرفيع حقه وتأبى عليه ان يجور علـى حق غيـره ، وحين تكـون انصافا للعاجـز لانها تستنهضه الى القدرة وانصافا للقادر لانها تكافئه علـى المزيـة ولا تعاقبه عليهـا بحرمـانه من جرائها وحين تكون فـي اعماقهـا انصافا للفطرة السليمة التـي فطرت على التفاوت والتنوع من اجرام الفضاء الى ذرات العناصر في المادة الصماء وذلـك هـو انصاف الحق والخير

وهو انصاف الاسلام ذلـك هـو الانصاف الذي لا يحرم الانسان العاقـل روحه وضميره ولا يلغي فيه بواعث الهمة والطموح الى الكمال وترجمه بلغة الاقتصاد فنقول انه يفتح ميدان العمل للعاملين ويحميه غوائـل الافراط والتفريط من جانبيه فيأبى على القادريـن ان يحصروا الثروة بين ايديهم ويأبى للعاجزيـن ان يفقدوا نصيبهم فيوليهم مـن ثروة الامة كلهـا اكثر من ثلاثة في المائة بين زكاة ومعونة وكفارة ونافلة محسوبة فـي كل عام من الثروة كلهـا لا مـن ربحهـا الزائد في ذلـك العام •

وينهي العقاد مقاله بهذه الكلمة : « نوعـان من المساواة تختار بينهمـا الانسانية فلا تحار في الاختيار وفيها بقية من الخير » •

انك حين تقرأ المساواة في رأي العقاد تخرج بنتيجـة لعله يرددها كنغمة وهي : ما احوج عالمنـا اليـوم الى المساواة خاصـة وقد ضاعفت الحروب من حاجتنـا الى هذه المساواة •



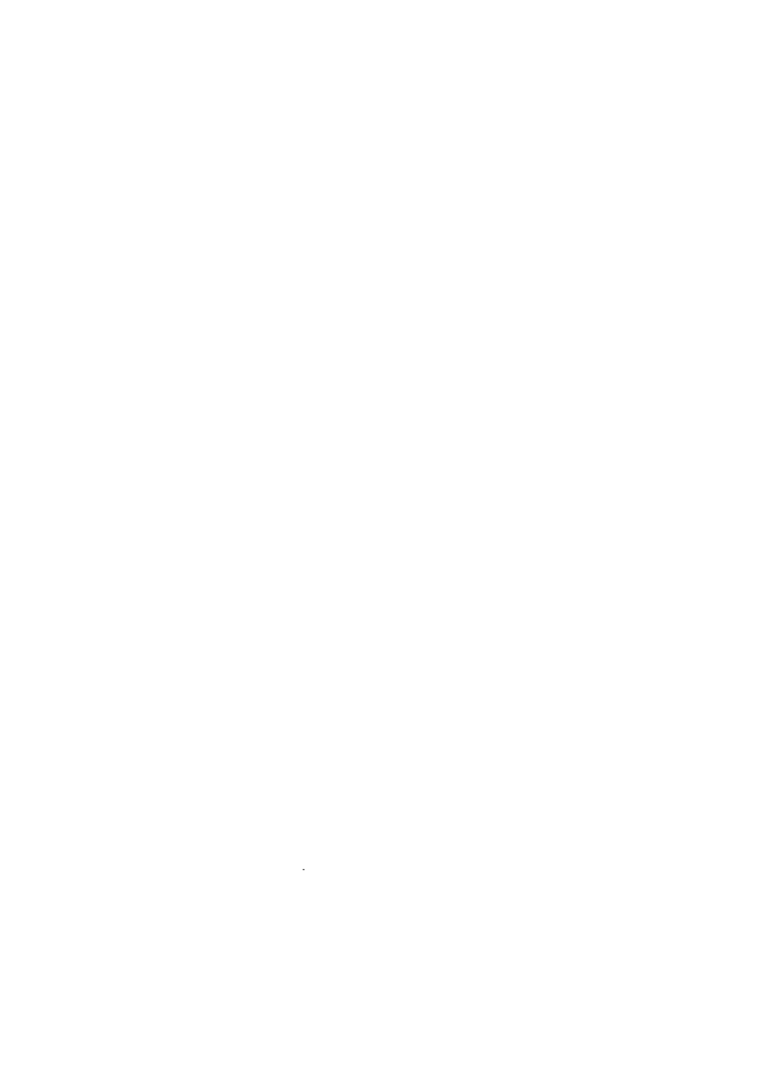
القسم الثامـــن

الحركات الدينية

الاخوان المسلمون

التبشيـــر

الاستشراق



الحركات الدينيـة

في رصد مواقف العقاد من الحركات الدينية ملاحظة تثير الدهشة فلـو اخترنـا من هذه الحركات الدينيـة حركة الاخـوان المسلمين وحركة التبشير وحركة الاستشراق . نجده يرفض الثلاث . وهنـا تكـون الدهشة والغرابة فالذي يرفض حركة التبشير لا بد وان يكـون من جماعة الاخـوان المسلمين او على الاقل لا يرفضهـا والذي يرفض حركة الاخوان المسلمين يتعاطف مع حركة الاستشراق العالميـة . وقـد تزول هـذه الدهشة وتلـك الغرابـة اذا تذكرنـا اننا امـام العقـادالذي اجمع القراء في العالم العربيفـي ذات يـوم على انـه قوة تغلب جميع القوى التي تحركهـا خصومات الـرأي او الاعيب الدعايـة من حولهـا مع انه ليس لديه من سند الا عون من الله (١)

والعقاد بين مفكرينا يتميز بانه استطاع ان يحارب الاضداد والاقويـاء دون كلل او تبرم او تراجـع .. مـع ان هذا النوع من الحـرب يعتبر مـن اقسى واوعـر الحروب .

حارب الشيوعية والصهيونية والاستعمار والتبشير والمتجرين باسم الدين الاسلامـي كمـا حارب طغيـان اصحاب الاموال وطغيـان السياسة من جانب العصر ومن جانب الاحـزاب .

من كان يحارب الشيوعية كان جديرا بثناء المستعمرين والمبشرين . ولكن كيف يثني هؤلاء على من حارب الاستعمار والتبشير ؟

---

(١) راجع مقال العقاد بيـن اوليائه واعدائه محمد خليفـة التونسي ـ العقاد دراسة وتحية ص ١٠.

ومن حارب الالحاد فهو ذو حق في التهليل والتكبير من اصحاب الدعايات باسم الدين . ولكن كيف يثني هؤلاء على من يبغض المفترين على الاســـلام بغضاءه الملحديـــن ؟

ومن حارب الرأسمالية والاقطاع فهو ذو حق من التأييد والترحيب مـــن اتباع المذهب الماركسي ، ولكن كيف يثني عليه هؤلاء الاتباع وقد هاجم مؤسس مذهبهم ماركس اعنف هجوم ووصفه بأنه عالة وعاطل الخ .. ومن حارب هتلر وموسوليني فهـــو أكيـــد ذو حق وحظوة لدى ابناء صهيون ولكن كيف يثني هؤلاء علـــى من أيقـــن بان طغيـــان النازيين والفاشيين اسلم واكرم من لؤم صهيـــون وابناء صهيـــون .

هؤلاء الاعداء الجبابرة لو تسلطوا على جبل لخسفوا به والقوه في اليم .. ولكـــن العقـــاد في مواقفـــه الصلبة الصامدة اثبت من الشم الرواسخ كمـــا يقـــول الشاعـــر .

والعقاد لا يهمه في اتخاذ موقفه الا ان يكـــون الى جانب الحق

فلا مانع من ان يهاجم الاخوان المسلمين ويتخذ منهم موقفـــا مع انه صاحب اكبر عدد من الكتب الاسلاميـــة عرفته المكتبة العربيـــة واكبـــر مدافـــع عن الاسلام بالحجـــة والمنطق .

ولا مانع ايضا من ان يهاجم الحركة التبشيرية ويتصدى لهـــا حين بدأت تهاجم الاسلام مع ان ثقافتـــه وبناء عقله اسهمت فيه كتابات الاجانب .

ولا مانع ايضا من اتخاذ موقف من حركة الاستشراق بعد ان تعامل مـــع افرادهـــا وحادثهم وحاورهم من خلال الكتب .

لا مانع من ذلـــك ما دام هـــو العقاد .. ذلك العقل الموسوعي والثقافـــة الواسعـــة والايمـــان بالنفس .

والآن هل نحـــن في حاجـــة الى مزيـــد من التوضيح لمواقفه من حركة الاخوان المسلمين وحركتي التبشير والاستشراق هذا مـــا تحـــاول ان تجيـــب عليـــه الصفحـــات التاليـــة .

الاخوان المسلمون :

هذه الجماعة التي اسسها في الاسماعيلية الشيخ حسن البنا عام ١٩٢٧ على انهـــا جمعيـــة دينية لا دخل لهـــا بالسياســـة . سرعان مـــا تحولت الــــى

السياسة والاكثر من ذلك اتجهت الى اسلوب الاغتيالات السياسية .

ولعل تطورها من مجرد جماعة دينية الى جماعة سياسية تحاول ان تملي ارادتها حتى عن طريق الارهاب والقتل هو الذي جعل العقاد يتخذ منها موقفا حادا منذ عام ١٩٤٨ .

فحين كانت هذه الجماعة اهدافها دينية لم يهاجمها العقاد .. مع ان العقاد في الفترة التي بدأت مع انشائها عام ١٩٢٧ خاض اعنف المعارك التي لمسنا بعضا منها في الصفحات السابقة . بمعنى انه كان من العنف بحيث لا يتقاعد عن اتخاذ موقف من جماعة دينية كالاخوان اذا رأى انها بدأت انحرافا .. لكن يبدو ان الذي اثار العقاد وجعله يتخذ من هذه الجماعة موقفا حادا عنيفا هو سلسلة الاغتيالات التي نسبت اليها واهمها بالنسبة للعقاد اغتيال محمود فهمي النقراشي عام ١٩٤٨ رئيس الوزراء ورئيس حزب السعديين بعد اغتيال رئيسه السابق احمد ماهر . والمعروف ان العقاد كان يكن محبة وصداقة للنقراشي امرا جعله يحزن حزنا طويلا لاغتياله ومن هنا ومن كره العقاد لاسلوب العنف في السياسة بدأت حملته على الاخوان المسلمين بعد انشائها باكثر من عشرين سنة .

فهو يقول في جريدة الاساس في ١٧ يناير ١٩٤٩ (١) اجمع المصريون على استنكار تلك الجرائم الوحشية التي يقدم على ارتكابها افراد العصابة التي كانت تسمى بجمعية الاخوان المسلمين ومن حقها ان تسمى على الاصح بجمعية « خوان المسلمين » ولكن فريقا من الذين بحثوا في اسرار تلك الجرائم يتوهمون ان جناتها الاشرار يساقون اليها بدافع من الايمان المضلل ويحسبون ان ادخال هذا الايمان الى عقولهم الملتوية يحتاج الى قدرة نفسية او قوة من قبيل القوة المغناطيسية لما استطاعوا ان يشحنوا عقول الاحرار بذلك الضلال ولا ان يدفعوا بهم الى ذلك الاجرام .

وهذا هو الوهم الذي يفرض للمجرمين شرفا لا يرتفعون اليه وهو شرف الايمان ولو كان ايمانا مضللا منحرفا كل الانحراف عن مقاصد الاديان وبخاصة مقاصد الدين الاسلامي. فكل ما يحتاج اليه اولئك المجرمون

(١) راجع العقاد بين اليمين واليسار ص ٢٧٧ ـ رجاء النقاش .

ليندفعوا الى الاجـرام هو تحريك ما في نفوسهم من طبيعـــة الشر والغرور والطمـع ولا حاجـة بهـم بعد ذلك الى ايمـان يتعب فـي تعليله المضللون او يدل على قدرة اولئك المضللين »

ثم يقول العقاد بعد هذه المقدمـة :

« ان فقيـد الوطن ــ النقراشي ــ رحمه الله قد أراح هذه البلاد مـن عصابات كثيرة قبل هذه العصابة الاجراميـة ومنها عصابة « الخط » المشهورة التي كانت تعبث بالفتـك والسلب والنهب في اواسط الصعيد والخط لم يدع لنفسه انه امـام من ائمة الديـن ولم يدع لـه احد شيئا من العلم او القدرة على التدجيل باسم العلم او الدين ومع هذا فقد استطـاع ذلـك المخلوق ان يجمع حوله اربعين او خمسين رجلا يجازفون بالحياة في سبيل طاعته ويجازفون بالخروج على القانـون والشريعـة تنفيذا لامره .

فهل كانوا محتاجين الى ايمـان مضلل يسوقهم الى المجازفـة بالحيـاة وعصيـان الدولة واعـلان الحرب على المجتمـع كله بغير نظـر الى عواقب الاجـرام ؟»

كلا لـم تكـن بهم حاجـة الى ايمـان قويم ولا ايمـان منحرف ولـم تكـن بهم حاجة الى ايمـان قوي ولا ايمـان ضعيف وكل ما احتاجوا اليه هو تحريك طبيعة الشر والطمع والغرور : الشر الذي يستخف بالحياة البشريـة ، والطمع الذي يتطلع الى ما في ايدي الناس ، والغرور الذي يخيل اليهم انهـم ابطال لانهم يقتلون ويسلبون . ولقد استطاع الخط ان يستغل هـذه الغرائز المنكوسـة ويدفع بهـا الى المخاطـر ويحارب بهـا الامة والدولـة دون ان يستعين علـى ذلـك بعقيدة دينيـة بـل استطاع ان يستغلهم مع علم اصحابها علم اليقين انهم يعصون امر الله كمـا يعصون امر ولاة الامور .

ثم يقول العقاد بعد ذلـك مستمرا في تحليله النفسي للمرشد وللاخوان علـى انهم « مجرمون » من فصيلة « الخط » بل مـن فصيلة اقل منـه ومن عصابتـه :

« ولقد يفهم الناس جميعـا موضع الشر والغرور في جرائم تلك العصابة التي تسمى بحق عصابة « خوان المسلمين » ولكنهم قـد يحسبون ان موضع

الطمع منهـا أخفى من موضع الشر والغرور • والواقع انه هـو الباعث الاول في نفوسهم على سفك الدمـاء واشاعـة الفوضى في جوانب هذه البلاد • فان الكلمة الاولـى التي تقال لهم هي ان الاسلام دين ودولة وانهم يعملون ليقبضوا بأيديهم على زمـام الدولة في يوم من الايام • يقال لهم هذا ، ويقال لهم معه ان ارهاب القضاء كفيل بنجاتهم من حكم الموت وانهم لا يلبثون ان يخرجوا مـن السجن ابطالا متوجين باكاليل الفخار متربعين علـى مناصب الحكم متصرفين في الانفس والاموال فان خانهم الجد العاثر ونفذ فيهم حكم الموت فهنا يأتـي الطمع الاكبر في جنات عرضهـا السموات والارض اذا بطلت الحيلة في مطامع الحكم والسلطان •

وينتهي العقاد الى ان تلـك حقيقتهم • وتلك حقيقتهم في حكم النفس فلا يرفعهم جاهل بهم فوق اقدارهم فما هم بمؤمنين مضللين فـي ايمانهم ولكنهـم مجرمـون في الصميـم •

ويعلق العقاد على بيان شباب الازهر في مقال بعنوان صوت حكيـم من شباب كريم نشر في ٤ فبراير ١٩٤٩ قائلا : وصل الي بيـان بتوقيـع شبـاب الازهـر يعرف فيه كاتبوه عن رأيهم في اولئك « الخوان » الذيـن كانـوا يسمون انفسهم بالاخوان المسلمين ويعملون ما يتمنى ان يعمله الصهيونيون وقد اعلن شيوخ الازهـر الاجلاء حكم الدين الاسلامي في جرائم الفتك والارهاب التـي تتابعت من تلـك الطغمـة الباغيـة فلا جرم ان تأتي الخطوة الاولـى في تقرير ذلـك الحكم مـن شباب الازهـر اكثر مـن يوكل اليهم أمر قيادة الدعوة في المستقبل القريب والذيـن يتجه اليهم أول ما يتجهون اولئك الدعاة الذين يستترون باسم الاسلام لقضاء مآرب واطماع يبرأ منهـا هـذا الديـن السمـح الحنيف •

ويقول العقاد في نفس المقال : « في شهـر واحد قامت حركات متآزرة في جميع الدول العربيـة تهدف الى غرض واحـد هو التخلص من القادة المخلصين الذيـن يقفـون من قضية فلسطين والعروبة موقف الاباء والكرامة فاضطرت الوزارة السوريـة برياسة مردم بك الى الاستقالة ولحقت بهـا وزارة الباجهجي بالعراق وفي الوقت نفسه اندلع لهيب المظاهرات المسلحـة بقيـادة الاخـوان المسلمين لاسقاط وزارة النقراشي فلمـا عجزت اليـد الاثيمة دفعت بمجرم من

مجرميهـا الـى اغتيال حياته الطاهرة وهو يصرف معركة لولا لطف الله لاودت بسلامـة الوطـن •

وكان رد فعل هجوم العقاد على الاخوان انهم انذروه اكثر من مرة ولكنه لـم يأبه لتهديدهم وقد ارسل اليه احدهم خطابا يقول فيـه للعقـاد « قذفت القاذفة » يريد ان يقول « أزفت الآزفة » ويهدده بالقتل•بل ووضع الاخـوان المتفجرات عند بيت العقاد واتصلوا به في الليـل وكان التليفون الـى جـوار النافذة وعندما رد العقاد اطلقوا على النافذة الرصاص ، ووضعـوا اسمـه في القائمة السوداء التي سينفذ فيهـا حكم الاعدام بعد ايام •

ويستمر العقاد في هجومه على جماعة الاخوان المسلمين وزعيمهم الشيخ حسن البنا فيخرج على الناس بحملة صحفيـة عنيفـة نشرتهـا جريدة الاساس ضد تلـك الجماعـة التي اسمت نفسهـا بذلك الاسم والتي كان يلقبهـا في مقالاته (بخوان المسلمين) فكتب ١٩٤٩/١/٢ بالاساس مقالا عنوانه « فتنـة اسرائيلية » جاء فيه : « والفتنة التي ابتليت بهـا مصر على ايدي العصابة التي كانت تسمي نفسهـا بالاخوان المسلمين هي اقرب الفتن في نظامهـا الى دعوات الاسرائيليين والمجوس »•

وهذه المشابهة في التدبير والتنظيم هي التي توحي الى الذهـن ان يسأل : لمصلحـة من تثار الفتن في مصر وهي تحارب الصهيونيين ؟

والسؤال والجواب كلاهمـا موضع نظر صحيح •

ويزداد التأمل في موضع النظر هذا عندمـا ما نرجع الى الرجل الذي انشأ تلك الجماعة فنسأل من هو جده ؟

ان احدا في مصر لا يعرف من هو جده على التحقيق • وكل مـا يقال عنه من المغرب وان والده كـان ساعاتيا في السكة الجديدة •

والمعروف ان اليهود في المغرب كثيرون وان صناعـة الساعات من صناعتهم المألوفـة واننـا في مصر هنـا لا نكاد نعرف ساعاتيـا كان مشتغلا في السكة الجديدة بهـذه الصناعـة قبل جيل واحـد من غير اليهـود •ولا يـزال كبار « الساعاتية » منهم الى الآن •

ونظرة الى ملامح الرجل تعيد النظر طويـلا في هذا الموضوع •

ونظرة الى اعماله واعمال جماعته تغني عن النظر الى ملامحه وتدعو الى العجب من هذا الاتفاق في الخطة بين الحركات الاسرائيلية الهدامة وبين حركات هذه الجماعة .

ويكفي من ذلك كله ان نسجل حقائق لا شك فيها . وهي اننا امام رجل مجهول الاصل مريب النشأة يثير الفتنة في بلد اسلامي . هو مشغول بحرب الصهيونيين ويجري في حركته على النهج الذي اتبعه دخلاء اليهود والمجوس لهدم الدولة الاسلامية من داخلها بظاهرة من ظواهر الدين .

وليس مما يبعد الشبهة كثيرا او قليلا ان اناسا من اعضاء الجماعة يحاربون في ميدان فلسطين فليس المفروض ان الاتباع جميعا يطلعون على حقائق النيات ويكفي لمقابلة تلك الشبهة ان نذكر ان اشتراك اولئك الاعضاء في الوقائع الفلسطينية يفيد في كسب الثقة وفي الحصول على السلاح والتدرب على استخدامه وفي امور اخرى تؤجل الى يوم الوقت المعلوم هنا او هناك .

فأغلب الظن اننا امام فتنة اسرائيلية في نهجها واسلوبها ان لم تكن فتنة اسرائيلية اصيلة في صميم بنيتها » .

وختم العقاد مقاله هذا بقوله :

وايا كان الامر فهي فتنة غريبة عن روح الاسلام ونص الإسلام وانها قائمة على الارهاب والاغتيال وكل ما قام على الارهاب والاغتيال فلا محل فيه للحرية والاقناع وجدير بالمسلمين ومن يؤمنون بالحرية والحجة من غير المسلمين ان يقفوا له بالمرصاد .

ولم يكتف العقاد بتلك المقالة عن الاخوان المسلمين بل نراه يكتب مقالات اخرى وصفهم فيها بانهم خدام للصهيونية جاء في احداها بعنوان خدام الصهيونية .

« امة مصرية مشغولة بفتنة هنا وجريمة هناك وحريق يشعل في هذه المدرسة واضطراب يستفحل في هذا المعهد ومؤامرات في الخفاء تغذي هذه العناصر المفسدة بالتحريض والتهييج وتزودها بالذخيرة والسلاح »

اهذه هي محاربة الصهيونية ؟

اهذه هي الغيرة على الاسلام ؟

اي خدمة للصهيونية اكبر من هذه الخدمة ؟ واي خذلان للاسلام اشنع من هذا الخذلان ، ان يهود الارض لو جمعوا جموعهم ورصدوا اموالهم واحكموا تدبيرهم لينصروا قضيتهم بتدبير انفع لهم من هذا التدبير لما استطاعوا . والا فكيف يكون التدبير الذي ينفع الصهيونية في مصر في هذا الموقف الحرج في هذه الفرصة المؤاتية لقضاء لباناتهم . ان لم يكن هذا هو التدبير الذي تشتريه الصهيونية بالمال والحيلة والجهد الجهيد ؟

ان العقول اذا ران عليها الغباء كانت كتلك العقول التي وصفها القرآن الكريم اصدق وصف لاصحاب الهاوية الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها واذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون .

هؤلاء الغافلون يمكن ان يقال لهم انها هي الفرصة السانحة للانقلاب اولئك هم الغافلون فرصة لمن ؟

فرصة للصهيونيين ؟ نعم ..

اما فرصة لمصر فمتى وقع في التاريخ انقلاب ودفاع في وقت واحد ؟

متى استطاع اناس ان يوطدوا انقلابا ويهيئوا اسباب الدفاع في اسبوع واحد او شهر واحد او سنة واحدة ؟.

أبت الرؤوس الادمية ان تنفتح لضلالة كهذه الضلالة لو كان الامر هنا عبث ومجون وانما هي مطامع خبيثة تتطلع وغرور صبياني يهاج . وشر كمين في الطبائع العوجاء يستثار .

وختم العقاد مقاله بقوله :

« وليس لهذه الامة من علاج غير علاج واحد وهو الشدة التي لا تعرف الهوادة والحزم الذي لا يعرف الابطاء » .

فيا رجال مصر هل انتم رجال ؟ .

ونرى العقاد في مواضع اخرى من حملته هذه يبلغ الشأو وهو يلوح لابناء وطنه بخطورة تلك الجماعة على السلام والامن ويشرح للمسؤولين كيفية معاملة هؤلاء المتآمرين فنراه يكتب مقالا تحت عنوان «فتنة اجنبية» جاء فيه :

انما نحن اليوم بحاجة الى محاكم كمحاكم الاستقلال التـــي استعـــان بها مصطفى كمال على حماية بلاده من امثال هذه الامور ، محاكـــم لا تقيدهـــا الحروف ولا الاشكال .

فما من عاقل في الدنيـــا يرى ان تنطلق شرذمة من الزعـــانف لا تساوي وزنها ترابا . لتهدد الامة كلها في سلامتها ثم يقال ان حرية القانون حق لامثال هؤلاء وان هذه الحرية حق حين تغل ايدي الملايين من الابرياء ولا تغل ايـــدي هؤلاء الوحوش الذين هم وصمة على الانسانية وعلى الحياة .

لقد كانت ابشع جرائم الاخوان في حق الوطن في تلك الايام، اغتيالهـــم النقراشي باشا ، اغتاله طائش من اولئك الذين سخرتهـــم الجماعة تحـــت اسم الدين الى ارتكاب جرائم القتل ، ونتيجة لذلك ذهب رجل من اعظم رجالات ذلك العصر خلقا وامانة وحبا للوطن وتضحية في سبيله .

وولي الحكم بعد النقراشي ابراهيم عبدالهادي الذي كان حينئذ رئيسا للديوان الملكي وعاش فترة لم يمر على مصر اقسى منها فالجيش في فلسطين يعاني حالة سيئة من الانهيار والتدهور ، والحملة الصهيونيـــة كانت قد بلغت اشدهـــا في الصحافـــة العالميـــة ثم مشكلات الاخوان المسلمين .

في يوليو سنة ١٩٤٩ قدم ابراهيم عبدالهادي استقالته وعهد بالحكم الى حسين سري فألف وزارة ائتلافية شملت كل الاحزاب بما فيها الوفد . ولكـــن الدوائر الانتخابية ومسألة تعديلها كانت الشغل الشاغل لتلك الوزارة فاصبـــح الائتلاف مستحيلا او متعذرا .

حركة التبشير :

وللعقاد مواقف باسلة من هذه الحركة بعد ازدياد نشاطها مما جعل الصحف تتناقل اخبارها . وكانت الجامعة الامريكية بالقاهرة هي مصدر هذه الدعايـــة التبشيرية وكان غريبا حقا هذا النشاط الذي ابداه المبشرون والذي لـــم يسمع بمثله من عشرات السنين . فقد امتد من القاهرة الى بور سعيد الى غيرها مـــن المدن وقد اسهبت صحف ذلك الوقت في وصف وذكر الاغراءات المادية التـــي لجأ اليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق غير الاسلام . ولقد كان العقـــاد

من اشد الناس تحمسا لمقاومة هذا التبشير اقتناعا منه بان هذه الحركة يقصد بها اضعاف ما في النفوس من ثقة بدين الدولة الرسمي ولما تنطوي عليه من قصد سياسي هو اضعاف معنويات الشعب باضعاف عقيدته بالاضافة الى انه رأى في هذه الحركة التبشيرية نفسها مقاومة لما يؤمن به من حرية الرأي فاغراء السذج والاطفال من المسلمين بهذه الوسائل المادية لحملهم على تغيير دينهم او حتى حملهم على تغيير رأيهم في الحياة هو محاربة دنيئة لهذه الحرية . وهو من ناحية اخرى استغلال للضعف الانساني كاستغلال المرابي حاجة مدينه ليقرضه بالربا الفاحش والتبشير فضلا عن كل ذلك مناف لقواعد الاخلاق ما دام يتم في الظلام ولا يصارح القائم به الناس ليناقشوه فيما يقول ويدعو وليبينوا ما فيه من زيف وفساد .

وكان من اثر هذه الحركة التبشيرية وموقف العقاد وغيره من المفكرين في مقاومتها بالطريقة العلمية المثلى . حيث فكروا وتدبروا فلم يجدوا خيرا من اعادة كتابة التاريخ الاسلامي بطريقة يقتنع بها المسلم وغير المسلم .

ولا شك ان العقاد فكر في مقاومة هذه الحركة بطريقة علمية واضحة تحكم العقل قبل العاطفة ولا ادل على ذلك مما نقرؤه في كتابه « ما يقال عن الاسلام » في صدر الحديث عن المبشرين ما يلي :

ولا يقل عن هؤلاء الكفرة في عداوتهم للاسلام ـ يقصد الماديين جماعة المؤمنين المحرفين ـ سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الاسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الاوروبية والامريكية فهؤلاء اصحاب مصلحة في تشويه الدين الاسلامي ، وتمثيل المسلمين على الصورة التي تذكي عند القوم جذوة التعصب وتملي لهم في الجهالة والغفالة فلا يسرهم ان تظهر الحرية لهم لمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير ولا يندر ان يكون المبشر ملحدا بالدين كله ولكنه يعلم انه يقطع موارد رزقه اذا كشف عن الحاده او قال عن الاسلام قولة حق وانصاف تمحو عداوة الاعداء وتضعف غيرتهم وحمايتهم للحملات التبشيرية في بلاد المسلمين فهو كاذب متعمد منتفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى الى علمها برضاه .

ويفرق الاستاذ العقاد بين هؤلاء المؤمنين المحترفين وبين المصدقين برسالتهم عند النظر الى اقوال المبشرين فيقول في نفس المصدر •

فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية بعاطفته فنظر الى الاشياء على غير وجهتها واخطأ الحكم عليها غير متعمد ان يخطيء او يصر على خطئه وربما لاحت فضيلة من فضائل الدين للذي ينكره او من فضائل اهله فلم ينكرها ولم يحاول ان يطمسها ويخفيها ولكنه يفسرها على سنة الاقدمين من المبشرين تفسيرا يوافق رأيه في عقيدته وعقائد المخالفين له من المستحقين لغضب الله في زعمه •

والعقاد يربط بين حركة التبشير وحركة الاستعمار فيفضح هذه الحركة التي تعمل باسم الدين فيقول :

« من الحقائق المفروغ منها ان الاستعمار والتبشير حليفان قديمان : يسبق التبشير الى البلد الشرقي ويتلوه الاستعمار ويحدث كثيرا — ان لم يكن دائما — ان التبشير يذهب الى البلد الشرقي بعلم الدولة المستعمرة مزودا بمالها موعودا بحمايتها مكفولا برعايتها • فاذا نجح التبشير ومضى في طريقه بسلام فذلك ما يبغيان واذا اصيب احد المبشرين ما يسوءه فذلك ما يبغيه الاستعمار على الاقل ، لانه يتذرع بهذه الاصابة للاحتجاج والمطالبة بحماية الارواح والحريات ولا تنتهي المسألة بغير غنيمة سياسية او اقتصادية تجنيها الدولة على حساب الدين •

ان التبشير والاستعمار حليفان غريبان وصديقان متناقضان فلا غنى لهما عن النفاق والخداع ولا بد لكل نفاق وخداع من يوم ينكشف فيه •

ان التبشير يدعو الى الدين والدين المسيحي بين الاديان الكبرى يحض على المحبة والمسالمة وينهى عن الطمع والكبرياء واحتقار الضعفاء والمساكين •

وليس في الاستعمار غير نقيض هذه الخصال ليس فيه محبة بل عدوان وليس فيه نهي عن الطمع والكبرياء بل هو الطمع والكبرياء سافرين غير مستترين وكله احتقار صريح للضعفاء وللمساكين • واي اختلاف بين نقيضين أبعد من هذا الاختلاف •

اي اختلاف بين عدوين لدودين ابعد من هذا الاختلاف بين هذين

الحليفين المتلازمين .

اي اختلاف في طبيعته اعظم من الاختلاف بين التبشير والاستعمار ؟

حركة الاستشراق :

بعد الثلاثينات اقتحمت الكتابات الاجنبية عن الاسلام ونعني بهذه الكتابات تلك التي صاحبت حركة الاستشراق العالمية ، والتي بدأت في اوروبا في اوائل القرن الثامن عشر او قبل ذلك يوم بدأت اوروبا تراجع معتقداتها وتتصل بالعالم الخارجي .. اتصال كشف ، وتقيس كل ما كانت تعرفه على الواقع والحقيقة .. وكان التراث الاسلامي هدفا من اهداف بحث المستشرقين حيث ظهرت بعض الكتابات التي تسيء الى الاسلام ونبيه الكريم وهذه الكتابات ان سلمت من غرض تشويه الاسلام كهدف فلا بد ان تقع فريسة اخطاء اخرى ليكون نتيجتها تشويه الاسلام ايضا مثل عدم توافر الامانة العلمية الواجبة او عدم الاحاطة بالاسلام دينا ونظاما وعقيدة او عدم التمكن من اللغة العربية فضلا عن بعض التعصب الديني وكثير من التعصب القومي .

وعلى الرغم من ان هذه الكتابات مضى عليها زمن طويل الا انها وقعت في ايدي جيل الثلاثينات ومنهم العقاد ذلك الذي ادمن القراءة باللغات الاجنبية فوجد كتابات تسيء الى الاسلام وليس هناك في الكتابات ما يستطيع الرد عليها ومناقشتها بالاسلوب المقنع المبني على الحجة والدليل . فأنت هنا تخاطب عقلا وليس عاطفة او وجدانا ومن اين تأتي العاطفة وهذا انسان انما اتى ليعتدي بقصد او بغير قصد على عقيدتنا .

حقيقة كان هناك من الكتابات العربية ما يقدم نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم ولكن بصورة تسيء الى الحقيقة بما تنسب اليه من معجزات وخوارق لا يصدقها عقل ولا هي تفيد في تأكيد رسالته النبوية وكان العقاد يلاحظ ان جيل المثقفين الجدد يميلون الى تصديق كتب المستشرقين لانهم يخاطبونه بما يتفق مع عقليته الجديدة واختلاف النتائج التي يصل اليها هؤلاء المستشرقون ما بين مقر بعظمة الاسلام ومنكر لها .. مع زعم كلا الفريقين بأن ما انتهى اليه بحثهما هو نتيجة للنظر العلمي المجرد .. هذا الاختلاف جعل الشك يتسرب الى

صحة هذه النتائج من ناحية ومن ناحية اخرى بدأ العقاد في استخدام المنهج الذي يقنع القارىء بصحة ما يقرأ . وبذلك قضى على زعم هؤلاء المستشرقين بأنهم وحدهم الذين يستخدمون المنهج العلمي في تناول المادة الاسلامية .

والحق ان العقاد تنبه الى خطورة الدس الذي تقوم به حركة الاستشراق العالمية مبكرا وكا نعنيفا حادا في رده على هذه الحركة حين ادرك انها ما كانت الا لتهاجم الاسلام دينا ونظاما ورجالا . انه يقول (١) ويكتب عن الاسلام في الغرب طلاب المعرفة من المستشرقين الذين نشأوا في العصر الحديث بمعزل عن دوائر التبشير ودوائر السياسة ومنهم من ينشد الرأي خالصا لوجه الحقيقة العلمية ولكنه مشوب بالقصور الذي لا مفر منه لمن يكتب عن الادب في لغة اخرى وليس هو من ابنائها ، ولا هو من الادباء في لغته التي نشأ عليها .

وبعضهم لا رأي له ولا ادب لانه لم يشتغل به ولم يتأهب له بعدته من الذوق والفطنة التي تؤهله للتخصص فيه ، فليست معرفته بالعربية عدة كافية له لتقدير الادب العربي لانه يعرف لغته ولا معول على رأيه في ادبها بين قومه .

ولقد كان موقف العقاد من حركة الاستشراق ذا وجهين فهو الى جانب شجبه لما تقوم به هذه الحركة من اساليب ملتوية لضرب الاسلام فانه رد عليها بكتب تفند اباطيلهم وبنفس المنهج الذي استخدموه وهو المنهج العلمي .

---

(١) راجع ـ ما يقال من الاسلام ص ٤ ـ العقاد



القسم التاسع

الشخصيات السياسية

الخديوي عباس حلمي
الملك فؤاد
الملك فاروق
سعد زغلول باشا
مصطفى النحاس باشا
مكرم عبيد باشا
محمد محمود باشا
عدلي يكن باشا
محمد توفيق نسيم باشا
اسماعيل صدقي باشا
محمد حلمي عيسى باشا
عبد العزيز فهمي باشا
د. احمد ماهر باشا
حسن نشأت باشا
مصطفى كامل باشا
احمد زيوار باشا
جورج لويد
احمد نجيب الهلالي باشا
عبد الخالق ثروت باشا
احمد عبود باشا
الرئيس جمال عبد الناصر



الشخصيات السياسية

مواقف العقاد من هذه الشخصيات التي لعبت دورا هاما في الحياة السياسية على مدى اكثر من نصف قرن .. جديرة بأن تغطي صفحات كتاب لا ان يستوعبها هذا القسم من الكتاب .. والحق ان هذه المواقف تعتبر هامة بالنسبة لحياتنا السياسية بصفة عامة ، هامة بالنسبة لصاحبها العقاد بصفة خاصة.

ان اهمية هذه المواقف بالنسبة لحياتنا السياسية هي انها تكشف لنا دائما عن مواطن الخلل والخطأ .. في الحياة السياسية على وجه العموم ، وتقوم بتعرية ما تنطوي عليه النفوس من مشاعر مع القضية المصرية او ضدها .

ومن ناحية اخرى فان هذه المواقف السياسية هامة بالنسبة للعقاد .. حيث قدمته للجماهير على انه ذلك الكاتب الاول للامة او انه صاحب القلم الجبار او انه هرقل العملاق .. الى آخر هذه الصفات والنعوت .. التي كانت بمثابة الاطار المناسب لاعمال العقاد الفنية والادبية والفكرية .

بل يمكن القول دون مبالغة او اسراف انه لولا هذه المواقف السياسية التي اتخذها العقاد من هذه الشخصيات . ما كان العقاد الذي عرفناه بعد ذلك عملاقا للفكر العربي او اميرا للشعراء او مدافعا عن الاسلام .. لولا هذه المواقف السياسية لاصبح دور العقاد مثل ادوار غيره من ابناء جيله ممن كانوا

يملكون مثله ادوات التفكير والتعبير وانتهت به الحياة الى ان يكون مجرد اديب او شاعر او ناقد او كاتب اسلامي لا اكثر ولا اقل • لا ان يكون هو العقاد الذي قال عنه طه حسين انه مثل ابي الطيب المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس لاكثر من نصف قرن من الزمان • وما زالت اعماله الفكرية ومواقفه الحياتية تشغلهم حتى بعد وفاته بسنوات وما اظن ان بحث او دراسة او مناقشة فكر العقاد سينتهي بعد زمن قريب بل سوف يستمر هذا البحث وهذه الدراسة وتلك المناقشة ويبقى ما استمر وبقي الفكر الجاد المستنير •

شأن العقاد في ذلك هو نفس شأن غيره من عمالقة اللغة العربية الذين اسهموا في بناء الحضارة العربية فتركوا تراثا خالدا يستحق الدراسة والبحث والمناقشة سنوات طوالا دون توقف •

والسبب الذي جعل العقاد هكذا هي مواقفه السياسية • تلك التي سلطت الاضواء عليه كشاعر عظيم يستحق ان يحل محل امير الشعراء احمد شوقي • وكناقد مجدد وكأديب يرى ان اللفظ لا بد وان يتضمن فكرة •

ومن عجيب الامور ان المتابع لفكر العقاد يلحظ انكارا ربما يكون مقصودا او غير مقصود ـ الا انه موجود على اي حال ، لهذا الجانب الهام من حياته وهو الجانب السياسي ولا يستطيع متابع لفكر العقاد ان يقول ان من مسببات عدم اهتمام العقاد نفسه بهذا الجانب لا يمكن ان يقال هذا الا اذا تصورنا ان العقاد نفسه يقوم بالدعاية لنفسه او يدعو صراحة الى بحث ودراسة هذا الجانب الهام من حياته وما اظن ان هذا من خصال العقاد او شيمه •

فالمادة موجودة ومتوفرة في بطون الكتب او بين صفحات المجلات والصحف السيارة او على اجنحة الاثير سواء كان العقاد هو كاتبها كتسجيل لمواقف او ان غيره قد ذكرها في معرض الحديث عن العقاد الاديب او المفكر او الشاعر •• المادة متوفرة •• هي تنتظر من يتأملها ويقدمها للناس لتكون سجلا حافلا بالقيم والمبادىء التي ارساها العقاد وبعض من ابناء جيله من الرواد في حياتنا السياسية •

والاهتمام بدراسة مواقف العقاد السياسية هو في حد ذاته اهتمام بدراسة المبادىء والقيم التي تمتع بها العقاد طوال حياته والتي صنعت منه ذلك الرجل العظيم •

اننا نرى العقاد من خلال هذه المواقف السياسية رجلا لا يحيد عن موقفه مهما كلفه ذلك من متاعب قد تصل الى ان تهدده بالموت جوعا او لا يستطيع الاستمرار في الحياة بمدينة القاهرة فيرحل عنها عائدا الى بلده اسوان ليضمن على الاقل ما يسد رمقه او ان يبقى في القاهرة ولا يجد ما يعيش عليه الا ان يبيع من كتبه كتابا او ان تسبب له هذه المواقف السجن تسعة اشهر او ان يصاب بمرض في رقبته لايفارقه الى ان مات .

حدث هذا للعقاد في الوقت الذي تنهال عليه المناصب فيرفضها وتعرض عليه الاموال فلا يقبلها لانه اتخذ موقفا من هذه المناصب والاموال اذا جاءت عن طريق فيه اهانة لكرامته ، وكم كان العقاد حريصا على كرامته .

والعقاد في مواقفه السياسية لا يذهب مذهب القائلين:ان الغاية تبرر الوسيلة او انه ممن يدافعون عن رأيهم بالباطل بالضبط كما يدافعون عنه بالحق .. انه رجل اخلاق بكل ما تعني كلمة الاخلاق من معان ودلالات . ويبدو ان الاخلاق في السياسة لا تفيد في كثير من الاحوال .

للاخلاق عند العقاد مكانة واثر . مكانة حيث انه لا يقول شيئا الا وهو يعلم انه الحق . واثر حيث كان يشتد على خصومه في عنف من يحمل في يده هراوة من حديد تحطم الرؤوس قبل اي شيء .

ومن هنا اصبحت لمواقف العقاد السياسية قوة يحسب حسابها في انتصار الجماعة التي ينتمي الى صفوفها وهزيمة خصومه هزيمة منكرة ربما تصل الى اسقاط وزاراتهم ، ذلك لان مواقف العقاد السياسية كانت في الاصل تحظى بتأييد شعبي لصدقها وامانتها وتجردها من كل ما يشوبها من اغراض او اهواء.

وكيف تأتي آراؤه عن غرض او هوى وهو القائل (١) ليس اقرب الى السعادة من المثل الاعلى الذي يسعدك كاسبا او خاسرا ، ناجحا او مخفقا ، غالبا او مغلوبا . في كل معركة يهمك ان تخوضها .

اما مثلي الاعلى الذي احب السعادة من اجله فهو اشتات من الصفات والمطالب تجمعها كلمة واحدة هي كلمة الكرامة .

الكرامة اذن هي مفتاح شخصية العقاد وهي ايضا المحرك الاول والاخير

---

(١) راجع ذكرياتي في صحبة العقاد ص ١١٦ ــ محمد طاهر الجبلاوي .

في اتخاذ مواقفه من الناس ومن الاشياء •

مواقف العقاد السياسية هي التي جعلته يرفض الكثير مما يتطلع اليه غيره من الادباء والشعراء والكتاب • لقد بدأت المساعي تتوالى من السراي لاجتذاب العقاد الى صف المنحازين اليها بشتى الطرق ، بعد خروجه من السجن، وعرضت عليه رئاسة الديوان فأبى ، وعرض عليه ان يؤلف كتابا عن الملك فؤاد يمنح عليه ما قيمته الان مائة الف جنيه وكان الوسيط في هذه الصفقة هو الدكتور محمد حسين هيكل باعتباره اديبا يستطيع اقناع العقاد ــ فكان جواب العقاد : « اذا الفت كتابا عن الملك فؤاد فلا بد ان اقول انه كان عدو الامة والدستور » فسكت الدكتور هيكل وعاد ليبلغ السراي جواب العقاد •

كان العقاد يفعل هذا وهو يشعر بسعادة ما بعدها سعادة واي سعادة تكون لانسان حين يرفض عرضا وهو محتاج اليه ، انه يحقق لنفسه استقلالها وترفعها وكرامتها في سبيل العقيدة • ان احتقار الانسان لنفسه ــ حين يفعل ما يشينها ــ اهول من كل احتقار يصاب به الانسان •

ومواقف العقاد من الشخصيات السياسية كثيرة وغزيرة هي في حد ذاتها تصلح مادة لكتاب ضخم وليس لصفحات قسم من اقسام كتاب ذلك لان هذه المواقف كثيرة بحيث يصعب جمعها داخل حدود ، بحيث يغطي الحديث عن الموقف الواحد صفحات كثيرة ، ولذلك ايضا فعرضنا لهذه المواقف الكثيرة والغزيرة سيكون اشارة الى مجريات الامور السياسية بوجه عام • ان لم يكن تسجيلا لفترة حاسمة من تاريخ مصر ابتليت فيها بالكوارث والمصائب وهل هناك كارثة وطنية اكبر من ان يجثم على صدر الوطن محتل غاصب • وهل هناك مصيبة افدح من ان يكون الحاكم لاهيا عن البلاد •• وهو آخر من يعلم بما يحدث فيها •

لهذا نقول دون مبالغة او اسراف • ان مواقف العقاد السياسية من هذه الشخصيات التي تحملت بامانة او بغير امانة مسؤولية الحكم ــ تعتبر في حد ذاتها تسجيلا لفترة حاسمة من تاريخ مصر •

يبقى ان نعرف هذه الشخصيات التي اتخذ منها العقاد مواقف •

شخصيات كثيرة في مقدمتها الخديوي عباس حلمي والملك فؤاد وابنه الملك فاروق وسعد زغلول والنحاس وَمكرم عبيد وعدلي يكن ومحمد محمود

وعبد العزيز فهمي وحلمي عيسى وجورج لويد واسماعيل صدقي وتوفيق نسيم ومحمد زيوار واحمد ماهر ومصطفى كامل وحسن نشأت ، واحمد نجيب الهلالي وعبد الخالق ثروت واحمد عبود واخيرا قائد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

الخديوي عباس حلمي الثاني :

في كتابه « حياة قلم » يقول العقاد : « ومما يحضرني من ذكرياتي فيما دون العاشرة ، انني رفضت كل الرفض ان البس البنطلون القصير يوم دخلت المدرسة في نحو السابعة من عمري وانني رفضت اشد الرفض ان اجيب نداء المعلم حين دعاني باسم (عباس حلمي) جريا على تقاليد ذلك العهد التي بقيت الى الان في اسماء المعاصرين .. فلم يكن احد من التلاميذ يدعى باسم ابيه ولكنهم كانوا يلقبون بالقاب حلمي وصبري ولطفي وحسني وشكري وما شاكلها على حسب المطابقة لاسماء المشهورين ، او الموافقة لجرس اللقب ورنينه في الاسماع ، فبقيت واحدا من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين ابناء ذلك الجيل ، ولولا اصراري على رفض اللقب المستعار لكان اسمي اليوم (عباس حلمي محمود) كما كتب في قائمة التصنيف اي توفيق الاسماء والالقاب .. »

وفي هذه نلمح موقفا مبكرا للعقاد من خديوي البلاد عباس حلمي .. فهو يرفض ان يلقب باسم ذلك الخديوي . ولعل ذلك راجع الى ما كان يسمعه الصبي الصغير من احاديث حول الثورة العرابية . وكيف ان الخديوي توفيق قد خان الامانة وهادن الانجليز وسلم البلد لقمة سائغة لمحتل ظل ثمانين عاما يعيث في الارض فسادا . وما عباس حلمي الا ابنا لهذا الخديوي وخليفة له في حكم مصر .. ومن هنا تنبهت كرامة الصبي الى خطورة هذا الحاكم، واصبح لا يطيق حتى اسمه .

وكثيرا ما نرى دفاع العقاد عن تسميته باسم (عباس) وكأنه له دخل في هذه التسمية فهو في كتاب «فاطمة الزهراء والفاطميون» يؤكد في المقدمة بان اسمه هذا ما كان الا لحب والديه لال النبي رضوان الله عليهم .. هو ينتسب الى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم .. جريا على عادة اسرته حين كانوا

يسمون ابناءهم وبناتهم باسماء آل الرسول . فاسماء اخوته جميعها تنتسب الى ذلك . ولهذا فليس اسمه منتسبا الى اسم الخديوي عباس كما قد يتبادر الى الذهن جريا على تقاليد تلك الايام التي ولد فيها .

ويكبر العقاد .. ويكبر معه موقفه الرافض للخديوي عباس حلمي هذا الموقف الذي يكاد ان يتحول الى جريمة العيب في الذات الخديوية والتي يمكن بسببها ان يدخل السجن حين يكتب مقالا فيه يهاجم سياسة ذلك الخديوي ونقرؤه حين يقول في كتابه «حياة قلم» تحت عنوان ثورة على الخديوي فيقول : «اذا كنت قد خرجت من صحيفة الدستور بأولية من اوليات الصحافة المصرية ، فهذه هي اوليتي التي خرجت بها من اول عملي في صحيفة يومية : اول صحفي مصري حصل على حديث من وزير عامل في الوزارة (١) او من رئيس شرقي كبير يسمع له رأي في السياسة .

وقد كدت ان اضيف اليها اولية اخرى ذهبت غير محسوس بها قبل ان تحبو من مهدها .

كدت اكون اول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة الى سياسة الامير في شؤون مصر وفي شؤون الاصلاح الازهري على التخصيص .

كانت سياسة الوفاق يومئذ في عنفوانها وكان مدار هذه السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية : سلطة الاحتلال، وبين السلطة الشرعية: سلطة الامير وقامت السياسة فعلا ــ بعد عزل اللورد كرومر ــ على اطلاق يد الخديوي في مسائل الحكم التي تعنيه ومنها مسألة الازهر والاوقاف ومسألة الرتب والنياشين.

وفي هذه الفترة تنمر الخديوي للحركة الوطنية وادار ظهره لطلاب الدستور وعمل جهده على استئصال نهضة الاصلاح في الازهر بعد وفاة الاستاذ الامام ــ الشيخ محمد عبده ــ واعلن عداءه لمدرسة القضاء الشرعي، وكاد يقضي عليها .

وثارت الثائرة على الخديوي من داخل الازهر وخارجه فتكلم مرة عن نهضة الاصلاح الازهري ، واقسم انه يغار على الاصلاح غيرة اصدق من دعوى المدعين الغيرة عليه ..

---

(١) نص الحديث بكتابنا «العقاد في معاركه الادبية والفكرية » .

وكتبت يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الاولى من صحيفة (الاخبار) التي كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ويحررها الاستاذ توفيق حبيب قلت فيه ما فحواه ان الملوك لا يحتاجون الى القسم لانهم يثبتون نياتهم بالاعمال لا بالاقوال .

وكان في وسعي ان اكتب هذا المقال في صحيفة الدستور لان صاحبها الاستاذ فريد وجدي ـ كان كما اسلفت من ارحب خلق الله صدرا لحرية الرأي وحرية المناقشة ولكنني قدرت له حريته هذه فلم اشأ ان احرجه في مسألة ترتبط بالازهر والاصلاح الديني ، وقد كانت له في العالم الاسلامي مكانة تشبه مكانة الاقطاب الدينيين .

فلما ظهر المقال في صحيفة الاخبار بتوقيع (ع الاسواني) قلقت لهالحاشية الخديوية وظنوا انه من ايحاء بعض المشايخ الازهريين .. فأكبروا هذا (التمرد) من معقل الخديوي الامين في ايامه فاستدعت النيابة صاحب الاخبار وسألته عن اسم صاحب المقال فأذنت له ان يطلعهم عليه ولعلهم اطمأنوا الى هذه النتيجة بعد ان علموا ببراءة المشايخ من الشبهة فانطوت المسألة ووقفت عند هذا الحد ، اشفاقا من اثارة القضية الازهرية في اطوار التحقيق والمحاكمة والدفاع وتعليقات الصحف واحاديث المتحدثين .

ولولا ذلك لسبقت نفسي بثلاث وعشرين سنة ، فكنت اول من حوكم على تلك العيوب الملكية التي يحملها اصحاب العروش ويحاسب عليها اصحاب الاقلام ..

هذه الوقعة التي يحكيها العقاد .. والتي كادت ان تعرضه للمحاكمة لها خلفياتها ..

فقد حدث في اوائل عام ١٨٩٤ ان اتصل الشيخ الامام محمد عبده بالخديوي عباس حلمي وتحدث الاثنان كما يذكر احمد شفيق باشا في مذكراته فيما يمكن عمله من خدمة الوطن وتحقيق امانيه في الاطار الذي يسمح به الانجليز للخديوي فاقترح عليه الشيخ محمد عبده ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الانجليز ولا يعارضون الخديوي في العمل لاصلاحها لانها دينية محضة وهي الازهر والاوقاف والمحاكم الشرعية ، واشار الشيخ على الخديوي ان يبدأ باصلاح الازهر واتفقا على ان يقدم الشيخ مذكرة بما يراه من وجوه

هذا الاصلاح ، وكتب الشيخ هذه المذكرة وفيها انتهى الى تأليف مجلس ادارة من خمسة اعضاء من اكبر علماء المذاهب .

تلك كانت قصة اللقاء التاريخي بين اعظم رجلين في ذلك الحين .

الخديوي كأعظم رجل في مصر بعرشه الموروث وولايته الشرعية وحقوقه الرسمية .

والشيخ الامام كأعظم رجل في مصر برجاحة عقله ومتانة خلقه وعلو همته وصدق وطنيته .

الخديوي اراد بتقريب الشيخ ان يستعين به على تعويض السلطة التي انتزعها الانجليز منه بسلطة في مجاله المأمون الذي لا تمتد اليه يد الانجليز .

والشيخ اراد بالتقرب الى الخديوي ان يسند ولي الامر في محنته مع السلطة الاجنبية وان يستفيد من رغبته في العمل سندا للمصلحين وعونا له على رسالته المرجوة بعد عودته من منفاه . وشتان بين نية كل من الرجلين .

وما دامت هذه هي النوايا .. فلم تمض فترة من الزمن الا والاثنان على خلاف ، فالخديوي لم ينس بالطبع حب السلطة الذي ساقه في الحقيقة الى طريق الاصلاح في هذا المجال الواسع ولم يلبث ان علم ان رجلا كالشيخ محمد عبده جدير ان يعينه في كل مهمة من مهام هذا العمل الكبير .. الا ان يكون عونا له على تسخير الازهر والاوقاف والمحاكم الشرعية للسلطة التي تفعل ما تشاء . واشتد الخديوي في طغيانه واستبداده وزين له فقدان السلطة التي سلبها منه المحتل — ان يتهافت على جمع المال من كل مورد مفتوح بين يديه ووجد هذا المورد مفتوحا على مصراعيه في خزائن الاوقاف ووصايا التركات وفي احتكار السيطرة على المحاكم الشرعية التي يتخرج قضاتها من بين يديه .

وتبين للشيخ الامام — كما يذكر العقاد — مسلك مريب للخديوي فهو يستبقيه للانتفاع بقدرته وشجاعته بل للاحتماء بمكانته الدينية احيانا في وجه السلطة الاجنبية ولكنه يحاذر ان يسلمه زمام التصريف والتدبير في مركز من مراكز الازهر المستقلة .. فتخطاه في التعيين لمشيخة الازهر مرتين وكان ترشيحه لمنصب الافتاء في الواقع حيلة مستورة لابعاده عن المشيخة .

وسر آخر يذكره العقاد في مسألة تقريب الامام من الخديوي . هو ان الاخير كان يطمح الى الخلافة ويريد ان يستمدها من الازهر ولن يكون هناك

من ينفذ له هذا المطمح الا الشيخ الامام .

وكثر الخلاف بين الاثنين واستحكم الجفاء بين الرجلين وكثرت دسائس الخديوي فكان ينفق من اموال الاوقاف العامة على اوقاف اسرته ومزارعه الخاصة .. وكف عن ذلك .. ولجأ الى حيلة اخرى هي تشديد الرقابة على الميزانية فاصطنع طريقه الاستبدال لحمل الديوان على اقامة المباني وتعمير الارض البور وعرضها بعد ذلك للمبادلة بينها وبين مزارعه التي لا تساويها في القيمة ولا في الجودة وكان اشهر هذه الصفقات صفقة ارض مشتهر وارض ديوان الاوقاف التي اعدت للبيع في الجيزة بثمن ارض البناء وفرق ما بينهما من الثمن لا يقل عن ثلاثين الف جنيه وظاهر الامر انها مبادلة بين مسيو اسمه زرفوداكي اليوناني الذي عرض على الديوان مزرعة مشتهر باسمه وقسم المباني في الديوان ولسوء حظ الخديوي ان موظفا من كبار موظفيه في القصر كان مندوبا عن ولي الامر بالمجلس الاعلى فكان رأيه كرأي المفتي في هذه الصفقة واراء الخبراء المختصين بتقدير المبادلات وثبت من معاينتهم ان هناك نقصا في تقدير احد البدلين وزيادة في تقدير البدل الاخر تبلغ جملتها خمسين الف جنيه فغضب الخديوي على موظفه الكبير وعزله من خدمته لانه لا يسأل عن سبب عزل الموظفين في ديوانه ولكنه لم يستطع عزل المفتي لهذا السبب ولا كان في حدود سلطته القانونية ان يعزله لغير سبب، فتمحل الاسباب للسخط عليه في غير مسائل الصفقات التي يتحاشى ان تثار للقيل والقال .

وكادت اوامره في الازهر ان تكون الغاء تاما لقوانينه التي وضعت لترفيه احواله وصيانة الكرامة الواجبة لعلمائه ومنع العبث بدرجاته العلمية ومراتبه الدينية فلم تكن كساوي التشريفة لعلمائه بأسعد حظا من الرتب والنياشين التي كانت تباع في الاسواق باسعارها المحدودة لكل درجة من درجاتها سوى ان الرتب والنياشين تباع بالمال وكساوي التشريفة تباع بالخدمات والسعايات في سوق الدعاية او سوق المتاجرة باسم الدين وان لمن اغرب الخواطر التي خطر للخديوي ان يسوم المجلس عليها انّ يرسل الى احد الاعضاء من يقترح عليه الاستقالة وبأمر رئيس المجلس ان يطلب كسوة التشريفة من الدرجة الاولى لامام قصره تمهيدا لتعيينه خلفا للعضو المستقيل . بهذا يتطوع المجلس لتحويل هيئته الموقرة الى اداة تجري اهواء الخديوي ولباقاته مجرى

القوانين وتحوي تبعاتها امام الناس على الرغم من الوف المخالفين له من الاعضاء ولا يبقى بعد ذلك اعضاء ينتظر منهم الخلاف غير محمد عبده وصاحبه عبد الكريم سلمان فلما تأخر صدور الطلب من شيخ المجلس بالانعام على امام القصر بالكسوة المطلوبة قال له مؤنبا في محفل التشريفات : الم آمرك بتوجيه كسوة التشريفة الى امام معيتي بدلا من الشيخ الذي ينوي ان يستقيل فتلعثم شيخ الجامع وبادر الشيخ محمد عبده الى الجواب قائلا : ان المجلس انما يعمل بالقانون الذي اصدره سموه فاذا بدا لسموه ان ينقضه ليجري الانعام بالكساوي العلمية على حسب رغبات سموه الشخصية فهو صاحب الشأن باصدار القانون بالنظام الجديد .

واكبر الظن عندنا ان تفويت المنافع لم يلهب من اضرام الغيظ في نفس الامير ما الهبه هذا الجواب الصريح من مفتي الديار، ومن مفتي الديار هذا؟ انه عند العالم الاسلامي اكبر مقام ديني علمي في زمانه ولكنه عند الامير لا يعدو ان يكون فلاحا بين الوف الالوف من اولئك العبيد الارقاء الذين خلقوا للسمع والطاعة عند كل امر وكل سؤال .

واذا صح ان يكون اضرام الغيظ عذرا للمتسلط المستبد المغلوب على استبداده فهذا هو العذر الذي قد يفسر ذلك الاسفاف الذي هبط بالامير الى الدرك الاسفل في حقده على ذلك الفلاح الجريء واستباحة ما لا يستبيحه الكريم ولا اللئيم العاقل في الكيد له والسعي الى اجلائه عن مقامه : مقامه في منصبه ومقامه في اعين الناس بين مشارق الارض ومغاربها ، ولم يكن ليخفى عليه انه كان اعظم مقام في بلاد الاسلام .

تلك هي خلفيات الوقعة التي جعلت العقاد يكتب مقالا يكاد يعرضه للمحاكمة فاذا اضفنا الى طغيان الخديوي ومثالبه التي سبقت والتي سجلها العقاد في فصل من كتابه عبقري الاصلاح والتعليم الامام محمد عبده تحت عنوان «مع عباس حلمي».. مسألة تخص العقاد نفسه وهي ايمانه العظيم بالشيخ الامام وكيف ان هذا الخديوي هاجم الشيخ الامام بعد وفاته هجوما عنيفا .. هذه المسألة تكفي لاتخاذ موقف للعقاد من هذا الخديوي.

العقاد في كتابه عن محمد عبده يقول : في ختام هذا الفصل ننشر بعض الفقرات من خطاب الخديوي الى موظفه الكبير احمد شفيق باشا حين علم انه

مشى في جنازة المفتي الشيخ محمد عبده مع كبار المشيعين فبعد ان سمح ادب العرش لذلك الخديوي المسكين ان يقول عن فخر وطنه بعد وفاته لو كـــان يعقل انها جنازة حارة والميت كلب ويمضي الخديوي قائلا : يظهر ــ والله اعلم ــ انكم اردتم بالسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت وهو على ما تعهدونه عدو الله وعدو النبي وعدو الدين وعدو الامير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعــدو اهله بل وعدو نفسه فلم هذه المجاملة ؟..

وهكذا كان رأي الخديوي عباس حلمي في فخر الاسلام وحجتــه الشيخ الامام محمد عبده ... فهل يحق للعقاد بعــد ذلــك الا ان يتخذ منه موقفا ؟

وليس رأي عباس حلمي في سعــد زغلول او قاسم اميــن بأقل حدة من رأيه في الشيخ الامــام .

لهذا لم يكــن غريبا ان يشب العقاد كارها حتى لاسم هذا الخديوي وان يتخذ منه موقفــا يكبر مــع الايام والسنين .

ان العقاد يسجل لهذا الخديوي سقطاته فيقول عنه مثلا : « ودون هــذا الحضيض من الابتذال في حق امير يهدده الاحتلال في كرامة عرشه ان يذهب في مساومة المحتلين الى حد الاعتراف باحتلال بلاده واستعراض الجيش المحتــل في ساحــة قصره والوقوف تحت العلم البريطاني يوم الاحتفال بعيــد ملـــك الانجليز تزلفــا منه الى العميد البريطاني ليغضي عن تصرفه بالوظائف الحكومية التي تحده القوانيــن عن محاسبة موظفيهــا بغير ادانــة يثبتهــا التحقيق ومنها وظائف المندوبين الحكوميين بمجلس ادارة الازهر ووظيفــة الافتاء التي يصدر بهــا قرار التعيين والعزل من وزارة الحقانية .

والعقاد يرى ان عباس حلمي هو مثل ابيه توفيق وجده اسماعيل .. كلهم يعملون على امتلاك السلطــة ولو على حساب استقلال البلاد حيث يقــول : « وتبين بعد الوقعــة الكبرى بين عباس حلمي الثاني والمحتلين ان النزاع كلــه فيما بينهم انما كــان نزاعا على نفوذ الحكم . ولــم يكــن نزاعا على حقوق الامة . ولا على مبادىء القضيــة الوطنية . وان عباسا كتوفيق واسماعيل من قبله ينازعــون السيطرة الاجنبيــة باسم الامة تارة . واسم الحقوق الدستورية تــارة اخرى . ولا يعنيهم في الواقع الا ان يستبدلوا سيطــرة في ايديهــم بسيطرة في ايدي الدول الاجنبية،ومن طلب منهم الحكم النيابي وشجع الاحرار

مـن رعيته علـى طلبه فانمـا يتخذ الحكم النيابي حجة على الدولة البريطانية عنـد شعوبهـا لانهـا تؤمن بـه في بلادهـا ويلتمس مـن وراء ذلـك ان يحكم من وراء النواب والوزراء ويستعيد لنفسه كل سلطانه المحدود او يستعيد القليـل من الكثير في مسائل التوليـة والعزل ومسائل الصرف والمنع علـى الخصوص .

وقد جرب طلاب الدستور اساليب اسماعيل وتوفيق في هذه المناورات وجربوا اساليب عباس بعدهما فتكشف لهم عـن ولع بالاستبداد في عباس لم يتكشف لهم مثله من ابيه وجده لانه لم يكد يحظى بقليل من السلطان على عهد سياسة الوفاق بعد عزل لورد كرومر حتى انقلب على شيعته وشيعة الحركـة الدستوريـة فساقهم الى السجـن واحدا بعد واحد . ثم الجأهم الى المنفـى باختيارهم فرارا من السجن والمصادرة . ولاح له شبح العزل بعد الوقعة الكبرى بينـه وبين المحتلين فقنع بالقليل الميسور واستعاض عن وفرة السلطان بوفـرة المال . يتهافت عليه حيثما وجد السبيل اليه بل ظهـر للامة قصارى امله مـن المحتلين بتسمية الحزب الذي ينتمي اليه ويرصد صحيفته للدفاع عنه في جميع اطواره وتقلباته .. فقد سماه حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ايذانـا للمحتليـن بالتسليم لهم بدعوى الاصلاح والقناعـة منهم بالمبادىء الدستورية دون الدستور الكامل على اساس سلطـة الامة ولم تذكـر في عنوان الحزب كلمـة عن الاستقلال ولا عـن الحرية الوطنية . كأنهمـا علـى الاقـل مطلب مؤجل الى ما بعد الفراغ من اصلاح الاداة الحكومية .

ويذكـر العقاد ملابسات هذه الوقعة الكبرى التي كانت نقطة التحول في سياسة الخديوي عباس حلمي الثاني مع الانجليز فيقول : « انهـا هي الحادثة التي اشتهرت بحادثة الحدود واصطدم فيهـا الخديوي بسردار الجيش المصري ــ الجنرال كتشنر المشهور ــ لانه صرح للسردار بانتقاده لحركات الفـرق العسكريـة ووجه انتقاده على الاكثر الى الفرق التي يقودهـا الضباط الانجليز فاستقال السردار وطلبت الوكالة البريطانيـة ترضيته واضطر الخديوي الـى استرداد كلماته وتوجيه ثنائه الى الفرق التـي اعلـن انتقادهـا عنـد عرض الجيش على الحدود ففعل راغمـا وهو يعتقـد انه نجـا من خطر العزل بقبول

هـذا الاتهـام » .

يذكر العقاد هذه الوقعة على سبيل التنديد بسلوك هـذا الخديـوي .

لكن موقف العقـاد يبرز من الخديوي عباس حلمي الثانـي واستبداده وفساده في مقال ينشره في ١٩٢٤/٨/٥ حيث يقول : « ظهرت في الحرب العظمى آيات من عناية الله وتدبير حكمته منها ـ بل اظهرها ـ انها قضـت على كثير من الملـوك والامراء الذيـن استبدوا بالملك وجاوزوا في الحكم مصالح الامم حتى كأن هذه الحروب نشبت لتقويض العروش المتجبرة وتأديـب الملـوك الجائرين فثلت كل عرش مستبد في ممالـك الجانبين وابقـت على العروش الحرة الدستوريـة فلم تمسهـا بسوء . وكان من شر هؤلاء الملوك والامراء الذيـن عصفت الحرب بسلطانهم واذهبت ريحهم عباس حلمـي الثانـي .. خديوي مصر السابق الامير الجاسوس الدساس .. الذي ابتذل كرامة الدولـة المصرية وحط سمعتهـا في الرغام » .

ويستطرد العقاد في مقاله هذا بعنف ولا يعبأ بأن هذه الدولة على رأسها ملـك تجمعه والخديوي عباس اسرة واحدة هي اسرة محمد علي فيصف عهده بالجشع واختلاس الاموال والاعتداء على حقوق الجماهير امرا جعلهـا تستنجد منه بعدو البلاد كرومر ويذكـر العقـاد كيف ابتذلت كرامة مصر وكيف كانت تباع الرتب والنياشين في المقاهي وبأي ثمن وكيف انه قرب السفلة من النـاس وابعد افاضل الناس وعلماءهم . ولم يكتف العقـاد بمـا كتب بل تجاوز ذلك الى الشعـر حيث كتب مهاجمـا الخديوي ودولة العار التي كان يرأسها فيقول :

أيا دولة العار التي لم يكـن لها عماد ولا ركن .. سوى اللؤم والحسد

الملك فؤاد :

موقف العقاد من الملك فؤاد يعـد في حد ذاته وساما علـى صدر المثقفين والمفكرين الذيـن عاصروا العقاد . ففي هذا الموقف تتجلى عظمـة الفكر وشموخه حين يتصدى للاستبداد والطغيـان . فيـه ايضـا ايمـان بمصير الانسان ومستقبله ، فيه ايضـا التزام بحقوق الجماهير التي اولته ثقتهـا في التعبير عنهـا .

لقد هاجم العقاد الملك فؤاد في البرلمان . وقال كلمته المشهورة ولم يكتف

بذلك وانمـا واصل هجومه او بمعنى ادق موقفه في الصحافة وكانت النتيجة المتوقعـة هي القبض عليه وسجنه .

والسؤال الآن : هل كان العقاد يستطيع ان يفعل غير مـا فعـل بحيث لا يقبض عليه او يزج بـه في السجن .

منطق الامور يجيب بالنفي فكيف يصمت كاتب الشعب الاول عـلى استبداد وطغيان عدو الشعب الاول الملك فؤاد ؟ كيف يتم هذا السكوت عـلى مليك جاء به الانجليز ليكون ملكا على البلاد دون غيره من ابناء محمد علي ؟ كيف يصمت العقاد وهو يرى هذا الملك يعمل بصورة دائمة على الانفـراد بالسلطة ويتآمر على دستور ١٩٢٣ . وبالتآمر مع اسماعيل صدقي تم تغييـر دستور ١٩٢٣ . واصدار دستور جديد كان الاعتراض عليه من الامة اعتراضا شديدا . ذلك لان هذا الدستور الجديد ضاعف من سلطات الملك (١) .

هنا وقف العقاد في وجه هذا الدستور او بمعنى ادق في وجه الملك فؤاد .. فهاجمه في البرلمان عام ١٩٣٠ وقال كلمته المشهورة : ان الامة على استعداد لسحق اكبر رأس في البلد يحاول ان يعبث بدستور البلاد .

وبالطبع هو كان يقصد الملك فؤاد .

وحالت الحصانة البرلمانية دون محاكمة العقاد . ولكن لم يكن هناك مـا يحول دون التفكير في اغتياله. ولكن الملك واعوانه خشوا غضبة الشعب على كاتبه الاول ذلك الذي لم يكتف بصيحته المشهورة فـي البرلمان بـل اعقبهـا بحملات نارية على معطلي الحياة النيابية،وممثلي الرجعية في الصحف التي ما كان يكتب في واحدة منها حتى تغلق ، فيأخذ مكانـه في غيرهـا . فزاد غضـب أولي الامر فاعتقلوا في هذه القضية التي اشتهرت باسم قضية البلطة اخا للعقاد اصغر منه والقوا به في سجن الاجانب رهن التحقيق انتقامـا من العقاد فـي شخص اخيه الى ان يأتي يوم تشفيهم منه .

وقبل ان تثبت براءة اخيه كان اولو الامر قد رأوا من الحكمـة وسـداد الرأي الا يؤخذ العقاد الكبير المشهور فأخذ اخوه الفتى غير المشهـور باختلاق التهمة له كما رأوا انه ليس من الكياسة في السياسة محاكمته على الكلمـة التي

---

(١) راجع العقاد بين اليمين واليسار ص ٢٩٦ ــ رجاء النقاش .

تحدى بها اكبر رأس علنا لما في ذلك من مساس بهيبة الملك فؤاد والاشادة بموقف العقاد . فاتجهوا وجهة اخرى هي ان يتربصوا له بالمرصاد فجعلوا الهم الاكبر للدوائر القضائية هي مراجعة مقالاته الصحفية ليجدوا فيها تهمة العيب في الذات الملكية . وهنا استدعي لمكتب النائب العام .. وتمت محاكمته وحبسه تسعة اشهر .

وهكذا كان موقف العقاد من الملك فؤاد ومن خلفه من الرجعيين .. موقف المعارضة على طول الخط..موقف الارتباط بمصالح الشعب..الذي كان يعارض الملك ويحاول ان يحد من سلطاته . ولا شك ان موقف العقاد من الملك فؤاد يعتبر اعظم موقف سياسي اتخذه في حياته وصفحة خالدة في تاريخنا السياسي بوجه عام .

الملك فاروق :

عندما ووجه العقاد بتهمة الاستظلال بجاه الملك فاروق ومدحه في عام ١٩٥٤ اعترض وطالب بالرجوع الى وثائق القصر وغيرها من الوثائق الرسمية لمعرفة موقفه من الملك وكتب مقالا عنيفا من جملة ما قال فيه : اما فاروق فقد لعنا اباه حرفيا .. فهل سمع احد اننا زحفنا على بطوننا الى عرشه يوم كان له عرش تزحف اليه البطون ممن تعلمون ولا تعلمون؟ انه على هيامه بذكرى ابيه قد تقرب الينا ولم نتقرب اليه وسئلنا ان نستقبله في بعض المناسبات يوم كان الناس جميعا يمدحونه ولم يكن احد يعيبه سرا ولا علانية فقدمنا له النصح في قالب المدح ووصفناه بما ينبغي ان يتصف به من تفدية الرعية وصيانة الاستقلال والحرية . ولم نطلب قط ان نلقاه الا وقد كان هو قبل ذلك طالب اللقاء وهذه سجلات القصر محفوظة يرجع اليها من شاء ..

في هذه العبارة القصيرة يتضح موقف العقاد من الملك السابق فاروق وكذا موقفه من ابيه الملك فؤاد وليس هذا بغريب على العقاد الذي كان يرى انه لا بد ان يكون «كبرناردشو» الذي دعي لزيارة الملك جورج فأجاب بانه يكون سعيدا اذا زاره الملك في بيته لا ان يكون كالمتنبي نعم لا كالمتنبي .. الذي كان العقاد يستصغر عظمته ، تلك التي تخنقها تبعيته للامراء وان كانت هذه التبعية وسيلة للعيش الرغيد المألوف في عصر المتنبي .

لقد كان العقاد ينقد هذا الرأي على الطبيعة فعلا .. فذات مرة (١) دعي لالقاء قصيدة في حفل ملكي اقيم بالصحراء الغربية بوصفه عضو البرلمان النائب عن هذه الدائرة والقى القصيدة وكان تعليق الملك السابق فاروق عليها لماذا لم تكن تقول هذا الكلام على عهد ابي الملك فؤاد ؟ فكان رد العقاد على هذا التعليق الملكي انه قد خرج على التقاليد الملكية وشق الصفوف منصرفا عن الحفل قبل ان ينصرف عنه الملك بل وغادر المنطقة كلها الى القاهرة .

وبالطبع كان فاروق يشير بهذا التعليق الى ان العقاد قد هاجم اباه الملك فؤاد من فوق منبر مجلس النواب .

هذا هو موقف العقاد من الملك السابق فاروق ولن يكون موقفه من ملك شاب بأقل من موقفه من ابيه الملك السياسي المحنك فؤاد .. لن يخشى العقاد صاحب المواقف الخالدة ملكا شابا ليست له خبرة ابيه .. هذه الخبرة السياسية.

رغم ان المنطق يرفض مهادنة العقاد للملك السابق يبقى السؤال لماذا لم يكن موقف العقاد من فاروق هو نفس موقفه من ابيه فؤاد ؟ وقد يزداد هذا السؤال حدة وعنفا او تزيدا وتجاوزا حين يطلقه فتحي رضوان كالرصاص على العقاد وقد اصبح جثة هامدة .. هذا السؤال الذي تضمنته صفحات كثيرة من كتاب عصر ورجال ومضمونه لماذا كان يمدح العقاد فاروقا ؟ (٢) .

بل وهذا هو الافدح نجد رجاء النقاش يتأثر بما ذهب اليه فتحي رضوان فيتهم العقاد بانه كان يؤيد (٣) فاروقا لانه اصبح ينتمي الى احد احزاب الاقلية المستندة الى الملك وهو حزب السعديين وتتحول مواقف العقاد فبعد ان كان يعارض الحكومات الرجعية التي تعتمد على الارهاب في الحكم يقف مدافعا عن هذه الحكومات مناصرا لها . ويتحول الى شن حربه على الوفد وعلى القوى الوطنية التي تقف في وجه الملك فاروق ، وتقف في وجه احزاب الاقلية. هكذا يذهب رجاء النقاش مذهب فتحي رضوان وهو امر مؤسف حقا .. ومصدر الاسف ان هذه العبارة صدرت في كتابه الذي نراه من انضج وافضل ما كتب عن العقاد ، والدليل على ذلك ان هذه الصفحات تعتمد عليه اعتمادا

---

(١) راجع عمالقة الصحافة ص ٤١ ـ حافظ محمود .

(٢) راجع عصر ورجال ـ فتحي رضوان .

(٣) راجع العقاد بين اليمين واليسار ص ٢٩٨ ـ رجاء النقاش .

رئيسيا كمصدر اساسي موثوق به •

والحقيقة غير هذا (١) فالذي يطلع على سير حوادث تلك الفترة •• يعلم ان معركة حامية نشبت بين العقاد والوفد كما رأينا في الصفحات السابقة بزعامة النحاس ومكرم عبيد لم يكن للعقاد فيها سلاح تجاه اسلحة الوفد المتعددة غير قلمه • وقد رأينا كيف لاقى العقاد آلاما مريرة كما رأينا كيف انكر هذه السياسة الوفدية وحض الناس على انكارها ويكفي ان تظهر روح هذه المرحلة التي دافع فيها العقاد عن فاروق في كلمة كان القاها مكرم عبيد عام ١٩٣٥ والتي قال فيها : الواقع ان من تتبع تطورات نهضتنا الوطنية يلحظ ان الوفد قد تطور الى زعامة وان الزعامة قد تطورت الى زعيم وان الزعيم فوق الجميع •

هكذا كانت سياسة الوفد •• سياسة الرجل الفرد او الحكم الدكتاتوري•• السياسة التي مارسها النحاس وكان من ابرز مظاهرها تكوين فرق القمصان الزرق لتكون يده التي يبطش بها بكل مخالفيه وعاثت تلك الفرق فسادا في البلاد وضاق بها الناس وشكوا فما اصغت الوزارة الى شكواهم وما زال الامر يتفاقم حتى لجأ الناس الى الملك ليدلي في هذه الحالة برأي ولكن الملك لا يحق له ان يتدخل في امر اقرته وزارة لها في البرلمان اغلبية وتحتمي بالدستور • كان المطلوب من الملك يومئذ ان يضع حدا لظاهرة القمصان الزرق وكان النحاس يرفض تدخل الملك محتميا بالدستور ووجد الملك نفسه في موقف حرج لان الشكوى في محلها والدستور يجعله مكتوف اليدين •

وهنا يبرز دور الرأي وخاصة اذا كان الرأي من واحد كالعقاد يرى الموقف دقيقا وخطيرا فهل يصمت ؟

بالطبع لم يصمت وما كان له ان يصمت في موقف كهذا •• بل اعلنها مدوية انه يساند الملك في التدخل من اجل اصلاح وضع خاطىء لقد قال يومها (٢) ومن الامور المعروفة ان جلالة الملك يعمل بواسطة وزرائه • ولكن هل معنى ذلك ان الوزراء يجوز لهم ان يخالفوا الدستور وان من حقهم الخروج على قواعده واصوله ما دامت لهم كثرة غالبة في مجلس النواب ؟

---

(١) راجع الحساني حسن عبدالله ـ الاداب ـ يونيو ١٩٦٧ ص ٦٢ •

(٢) راجع : البلاغ ٢٠ نوفمبر ١٩٣٧ •

ان قيام القمصان الزرق لا يخالف الدستور وحسب بل هو يخالف الديمقراطية في صميمها وهي شيء اعم من الدستور واولى منه بالغيرة والصيانة .. ومتى كان من حق الوزارة ان تحكم على الطريقة الدكتاتورية. وهي لم تتسلم الحكم الا على اعتبار واحد وهو انها وزارة ديمقراطية وهل في الدنيا اعجب من قيام وزراء دكتاتوريين في عهد ملك دستوري .. ونسأل بعبارة اوضح واصرح اذا كانت الوزارة لا تملك ان تسير على الخطط الدكتاتورية الا بموافقة صاحب الجلالة الملك فهل من حقها ان تعمل ما تتضمن هذه الموافقة بغير حصولها ؟ وهل يجوز للوزراء ان يشرعوا في البلد نظاما فاشيا وهم لا يعملون عملهم الا على اساس الديمقراطية دون غيرها .

بل ان العقاد كان اكثر وضوحا في مقالة اخرى من جملة ما قال فيها (١) من حق صاحب الجلالة ان يشير برأي في هذه المسألة لانه قائد الجيش الاعلى فيحق له ان يصون سمعة الجيش وان يمنع قيام هيئة عسكرية غير الهيئة التي هو قائدها وحافظ نظامها . ومن حق صاحب الجلالة ان يشير برأي في هذه المسألة لانه حامي الدستور المقسم على صيانته والولاء لقواعده واصوله فيحق له ان يأبى قيام الفرق التي اباها انصار الدستور والديمقراطية في ارجاء العالم قاطبة وعلى رأسها البلاد الانجليزية والبلاد الفرنسية، ومن حق صاحب الجلالة ان يشير برأي في هذه المسألة لانه ملك البلاد ورئيس الدولة الاعلى فيحق له ان يستمع الى الشكاية من رعاياه على اختلاف الهيئات والاحزاب وان يدل الوزارة على مواضع هذه الشكاية .. هذه الفرق مخالفة للديمقراطية والحياة النيابية ما في ذلك مراء ولا جدال . وقد يحسب بعض الناس اننا نعارضها اليوم لاننا نعارض الوزارة ولا نصبر على سيئاتها واخطائها فليعلم هؤلاء ان رأينا في هذه الفرق قديم اعلناه يوم اعلنا اخطار المذاهب الفاشية قبل ان يلتفت اليها الكثيرون في هذه البلاد وفي غير هذه البلاد ونشرناه في رسالة الحكم المطلق ـ قبل تسع سنوات فلا باعث لنا على نقدها غير الايمان بالحرية والخوف على مصر من عواقب هذه المذاهب التي لا يفهمها المقلدون هنا الا على ظواهر الازياء والعناوين .

---

(١) راجع البلاغ ٢٧ ديسمبر عام ١٩٣٧ .

واذا اضيف الى هذا العامل الذي جعل العقاد ينحاز الى جانب الملك ضد الوفـد ان الوفـد نفسه كـان يحتمي في هذه الفترة بالانجليز صراحـة وقد كان هذا مثارا لسخط الوطنيين الامر الذي جعل النحاس فـي خطـر وجعـل جماهير الوفد تخرج متظاهرة هاتفة النحاس او الثورة .

ومن هنـا يمكـن الحكم بأن العقـاد كـان على حق في موقفه من الوفد وعلى حق ايضـا في موقفه من الملك . لكـن الذي ليس على حق تماما هـو فتحي رضـوان .

فأيـن كان عام ١٩٥٤ يوم ان قال العقاد : اما فاروق فقـد لعنا اباه الـى آخـر هذه العبارة وما بعدهـا من عبارات عنيفـة لماذا لـم يرد وقتها ؟ لمـاذا لم يرو حياة العقاد ام ان الرد كـان لا يصلح الا بعـد وفاتـه بسنوات عديـدة ؟

ومن ناحية اخرى لماذا يتهم العقـاد بسلوكه هذا وقد فعلت مثله جماعة مصر الفتاة وهو واحـد من اقطابهـا ؟ هل ينسى الرسالة المنشورة في البلاغ بتاريخ ٣ اغسطس عام ١٩٣٧ التي وجهتهـا جماعة مصر الفتاة الـى الملك طالبة اصدار امره باستفتاء الامة في وزارة لا ترضى عنهـا الامة واجـراء انتخابات جديدة ؟ هل يحلل لنفسه ولجماعته عمل يحرمه على الآخرين .

ان تزييف التاريخ بهذه الصورة يصبح مصيبة ويتحول الى مصيبتين حين يتأثر بـه آخرون ويصير ثلاث مصائب حين يكـون لهؤلاء المتأثريـن قراء في طول البلاد العربية وعرضها مثل كاتبنا رجاء النقاش .

سعد زغلول :

كان سعد زغلول من طراز القادة الذيـن يجمعون حولهم الرجال ، كـان زعيما بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وكان سياسيا بكل مـا تحمل هذه الكلمة من دلالات ، وكـان انسانا امتزجت في شخصيته صفات الانسـان عندمـا يكون جديرا باسمه . وكان اسلوبه في العمل السياسي يتسم بمقومات الزعيم السياسي . وفي مقدمتهـا الدهاء والصبر والحيلة .. ولهذا كان مـن السهل على شخصيـة هذه مقوماتهـا ان يتعامل مـع العقاد خاصة . وانه كان معجبا به من قبل .. اعجابا وصل به الى ان يقول عنه حـين سئـل : « اديب

فحل لهقلم جبار ورجولة كاملــة ووطنية صافية واطلاع واسع ما قرأت لــه بحثا او رسالــة في جريدة او مجلة الا اعجبت بهــا غايــة الاعجاب . وهو لا يعالج موضوعــا الا احاط بــه جملة وتفصيلا احاطــة لا تترك بعدهــا زيــــادة لمستزيــد وله اسلوب ادبــي فريــد » .

لقد كــان سعد زغلول يفهم العقاد فهمــا جيدا خاصة وانه اختاره لكي يكــون كاتب الوفــد الاول . فكــان يعرف اعتداده بكرامته وبنفسه هذا من ناحية . كما يعرف ان انضمامه الى صفوف الوفد من شأنه ان يرهب خصومــه من السياسيين خاصة وانه يملــك قلمــا مقنعــا من ناحيــة ثانية يضاف الــى ذلك ان الاحتفاظ بالعقاد يحتاج الى التجاوز عن بعض نزوات عنــاده وتمرده وحبــه للانفــراد برأيــه .

وعلى هذا الاساس من احترام حريــة الفكر والايمــان بان الكاتب ينبغي ان يعامل باسلوب يحفظ له مكانته وكرامته تعامل سعــد زغلول مــع العقاد. وقد كسب الوفد كاتبا قوي الحجة خاض المعارك السياسية مع خصومه كمــــا حقق العقــاد لنفسه امجادا قلمــا حققهــا صحفي من قبل . وهــذه المرحلــة التي تعاون فيهــا العقــاد مع سعد زغلول يعبر عنها قائــلا : (١) « وقــــد لازمت سعدا سنوات ووافقته كثيرا، وخالفته كثيرا، كما يعلم القراء، فلا اذكر يومــا انه طلب مني او طلب من غيري امامي ان نكتب في رأي بغير مــا نراه . وانمــا كان اسلوبه في هذه الحالة ان يفتح باب المناقشة فيمــا يريــد الكتابة فيه . فان خالفناه واقنعنــاه لم يطلب منــا كتابة ولم يلمح الى طلبهــا اقــل تلميح ، وكثيرا ما كان يتلطف فيقول انت جبار المنطق يا فــلان .. وهذا هــو اللقب الذي تفضل فاطلقه على كاتب هذه السطور .

لكن على الرغم من ذلك .. على الرغم من ان سعدا كرم العقاد واصطفاه، فان ذلك لم يجعل العقــاد تابعــا بــل كــان لا يتردد ان يتخــــذ منـــه المواقف العنيفــة .

من المواقف التي تذكــر في هذا الصدد وتلقي ضوءا كاشفــا علــــى شخصية العقاد انه حين القى سعد زغلول في عام ١٩٢٤ خطبة العرش الاولى في البرلمان الاول بعد اعمال دستور ١٩٢٣ بوصفه رئيسا للوزراء كهان من المنتظر

(١) سعد زغلول سير تحية ـ للعقاد ـ ص ٥٥٧ .

ان يكتب العقاد تعليقا على خطبة العرش في البلاغ بوصفهـا جريـدة الوفـد الرسمية انذاك ولكـن البلاغ صدرت بغير التعليق المنتظر ، ولما عاتـب سعد زغلول العقاد في هذا اجابه بانه لـم يكتب لانه غير مقتنع بأن عبـارة الاماني القوميـة في السودان الواردة في خطبة العرش عبارة تعبر بوضوح عن حقوق مصر واشتبك العقاد مع سعد في لجاج طويل حول هذه النقطـة • فلمـا نفـد صبر سعد قـال : لو حاسبني كـل فرد في الامة حسابـك لعجزت عـن أعباء وكالتي عن الامة فأجابه العقاد بقوله ولكن ليس كل فرد في الامة عبـاس العقاد فابتسم سعد وقال: صدقت ليس كل فرد في الامة عباس العقاد (١) كذلك يذكر ان ادباء البلاد العربية حين اقاموا في ١٩٢٤ مهرجانا في القاهرة ليبايعوا فيه شوقي بامارة الشعـر ورأس هذا المهرجان سعد زغلول • وكان يومئذ رئيسـا للوزراء ومن المعجبين بشعر شوقي • لم يمنع هذا العقاد من مهاجمة المهرجان في جريدة سعد زغلول فقد كـان للعقاد رأي بالـغ السوء فـي شعر شوقي بسطه في كتابه : الديوان في النقد والادب قبل ذلك بعامين ، وبعـد ذلك في جملـة مؤلفات • وكـان سعد ايضا من المعجبين بأدب المنفلوطي فلما مـات المنفلوطي جادل العقاد سعـدا قائلا ان المنفلوطـي ليس الا منشئا فعجـب سعـد لهذا الاعتراض باعتبار ان المنشىء اديب خالق فاجابـه العقـاد انـه يقصـد ان المنلفوطي انمـا يكتب مواضيع انشاء على غرار ما يكتب في المدارس •

وهكذا كان موقف العقاد من سعد زغلول •

النحـاس :

لم يستطع النحاس زعيم الوفد الجديد بعد سعد زغلول فهم العقاد علـى حقيقته ولم يتوصل الى مفتاح شخصيته كما توصل الزعيم الراحـل واصطدم بكبرياء وعناد العقاد •• وكانت خسارة بالنسبة للوفـد ان يفتقـد كاتبه الاول الذي كان يرهبه خصومه السياسيون وكان السبب الذي جعل العقاد يخرج على الوفد كما رأينا في الصفحات السابقة هـو هجومه على الوزارة النسيمية في الوقت الذي كانت سياسة الوفد تهدف الى غير ذلـك حسب اتفاق مسبـق ومن هنا •• من بعـد لقاء الاسكندريـة العاصف بين العقـاد والنحاس بدأت

(١) راجع الدكتور لويس عوض الاهرام ٢٧-٢-١٩٦٤ •

الجفوة تأخذ طريقها بين الطرفين .

وها هو يعلن خروجه على الوفد وبراءته من الوفدية حيث يقول (١) رئت من الوفدية الف مرة ان كانت هذه هي الوفدية .

ما علمناها حين ايدناها الا حرية وكرامة فكيف نفقد حريتنا وكرامتنا لاننا نطلب الحرية والكرامة للناس اجمعين .

ما علمناها حين ايدناها الا الامة كاملة لا الامة منصرفة سائمة كما شاءت سياسة مكرم والنحاس فكيف تتعطل وظيفة النقد في امة كاملة من اجل وزارة لم ترفض للانجليز مطلبا ولم تحقق قط املا للمصريين .

واني لآسف ان يصير النحاس باشا بالوفد الى هذا المصير وان ينعكس المقصود من ثقة الامة على يديه فيصبح قصارى نفعه ان يتقرب بضمائر الانصار على مذابح الخصوم ولكني احمد الله ان قيض لي الحرية الكاملة وساق النحاس باشا نفسه الى اطلاق قلمي فيما يعقب به على الاعمال والاراء والهيئات والتبعات لا فرق بين النحاس باشا ونسيم باشا وسائر المسؤولين عن سياسة البلاد ويزيدني حمدا اني حين انفصل الرأي بيني وبين النحاس باشا ، وجماعته ، كنت انا في مكاني وكان هو الذي تحول عن مكانه واستقبل حياة الدعة والرخاء وحصر القضية كلها في التسبيح للوزارة المعبودة عسى ان تسبح هي للانجليز عسى ان ترق لنا قلوبهم بدستور ممسوخ او حكومة دستورية يصفون بها في لمحة عين وما كان انتظار الرحمة على هذا المنوال بالبرنامج الخطير الذي يفتقر الى زعامة ومشاورة وخطط ظاهرة وخطط خفية فيما به يلفظون . ولكنه برنامج قانع وادع سقيم عقيم ندركه ونحن نائمون ..

وفي مقال آخر يستنكر العقاد سياسة النحاس ويهاجمها قائلا (٢) (ليحيى مصطفى النحاس .. ليحيى مصطفى النحاس ..

اي والله ليحيى النحاس ايها الصارخ الناعب بما لا نعيه ولا ندرك معناه و لامرماه . ليحيى مصطفى النحاس في الاسكندرية التي عليها الآن من الاعلام البريطانية ما عليها من الاعلام المصرية .

---

(١) روز اليوسف اليومية ٣٠-٩-١٩٣٥ .

(٢) روز اليوسف اليومية ٢٨-١٠-١٩٣٥ .

ليحيي مصطفى النحاس في السودان الذي الغاه من سجل القضية الوطنية في اكبر مؤتمر عرفته هذه القضية .

ليحيي مصطفى النحاس في دواوين الحكومة ألتي يسيطر اليوم على كل ديوان مستشار بريطاني نافذ القضاء لان مصطفى النحاس (مبسوط) من الخبير الفني المزور بحق الاتصال .

ليحيي مصطفى النحاس في دار الجماعة التي ليس فيها اليوم رجل واحد يرضى لمد اقل مما يرضاه لها مصطفى النحاس .

ليحيي مصطفى النحاس في مسارحه وولائمه واعراسه وارزاقه وارزاق ذويه واهل بلده ومريديه .

ليحيي مصطفى النحاس في مصر التي لا تحيا اليوم ، وتطلب الحياة.ولماذا تحيا مصر ولماذا تطلب الحياة وفيها حنجرة تنهق ليحيي مصطفى النحاس.. ليحيي مصطفى النحاس .

لقد هان امر الزعامة الوطنية حتى اصبحت تصفيقة في اكف اللاعبين وزعقة في حناجر المتبطلين والمأجورين . واصبح اذنابها الغيورون اول من يسلم لك انها لا تعمل ولا تستطيع ان تعمل فيقولون وهم لا يعلمون انهم يقتلون الزعامة بايديهم ويسلمون لك كل حرف تقوله وماذا عسى ان يصنع مصطفى النحاس ؟ .

وكتب العقاد مقالا تحت عنوان ؟ « عقول عامة .. وسياسة طغاة » نشرته مجلة روز اليوسف في اكتوبر سنة ١٩٤٤ بدأه بقوله : « النحاس باشا قاعدة ولا تمثال فليس له حجم يرى بالعين اذا زالت من تحته القاعدة التي يقوم عليها . »

والقاعدة التي يقوم عليها هي بناء الوفد الذي اسسه وعلاه زعيم مصر الاكبر سعد زغلول رحمه الله .

فالنحاس باشا بغير سمعة سعد لا شيء . ليس بالخطيب وليس بالكاتب وليس بالمحضر الجذاب ولا بالمنظر المهيب .

وليس فيه من دواعي الشهرة الا مشابهته للعامة في الذوق والشعور والرجاء فهو لا يقيس الشهرة ولا العظمة ولا المجد ولا اقدار الرجال الا بالمقياس الذي يعرفه العامي في الاسواق والزفة التي تعجبه وتطربه هي الزفة

التي تعجب ذلـك العامي وتطربه بغير اختلاف كبير ولا صغير •

ولولا ان كلام هذا الرجل منشور في الصحف لجاز ان يأتـي في يـوم من الايـام اناس من مؤرخي العصر الحاضر يخطئون الحكم عليه وينسبون شهرته الى سبب غير سببهـا الصحيح •

لولا ان كلامه منشور يمكـن الرجوع اليه لجاز ان يقول قائل غدا : ان النحاس باشا رجل بلـغ رئاسة الوزارة لانه كـان من خطباء الجماهير الذيـن يملكون الاصوات ويجذبـون الانظـار بالكلـم الطنـان والدعـوة التـي تهـز الشعـور •

وليس بكثير ان يكون الرجل خطيبا من خطباء الجماهير او مشعوذا مـن مشعوذي الكلام الذيـن يسميهم الغربيون بالدمجوجين •

ولكن حتى هذا القدر القليل كثير على مصطفى النحاس •

لأن الرجل يتكلم منذ ثلاثين سنة • ولا يقول كلمة واحدة يهتز لها الشعور ويتناقلها السامعـون ويستغرق الساعتين والثلاث في الخطبة الواحدة ولا يعي منهـا سامعوه كلامـا يعيدونه في دقيقتين •

وكل خطبة من التفاهـة بحيث تخلو من الشعور كما تخلو مـن التفكير ومن حسن التعبير •

فهي كمحضر الجرد او سجل التركات او حجج البيوت التي تفيض بالارقام والتواريخ والعناويـن ولا تحتوي شيئا غير ذلـك يستعيده الذهن أو يملاه الخاطـر او يتحرك لـه الضمير •

ويعقـد مقارنة بين زعامة سعد زغلول الخالدة وزعامة النحاس المؤقتـة فيقول (١) : « لبث سعد في ميدان النهضـة الوطنية تسـع سنوات ثم انتقـل من عالم الحياة الى عالم الخلود فلولا ان كان هيبة لا بد لهـا من رئيس لما خطر لاحد من المصريين ان يجعل مصطفى النحاس خليفـة لسعد زغلول ولاستحال على زملائه انفسهم ان يتفقوا على اختياره لذلك المقام •

لو سألت في السنوات الاخريات ماذا ابقت الزعامة لمصطفى النحاس لمـا علمت لذلك سببا الا انه تكفل بتسهيل الوطنية المصريـة فجعلهـا من لهون الواجبات بعـد ان كان السر في اختيار سعد زغلول والاجمـاع على اختياره

---

(١) البلاغ ١٣-١١-١٩٣٧ .

ان المصريين قد ارادوا اخطر الرجال لاخطر الاعمال •

بل ويشير العقاد الى تهاون النحاس بالدستور حيث يقول (١) ماذا يكون مصير دستورنـــا اذا استبد بـه مصطفى النحـــاس وقلنـا لـه لا تستبد فقال اما انا فاستبد ويشيد معي اذنابي واتباعي واصهاري ومَـن شاء واما انتم فان رضيتم فذلـك شأنكم وان لـم ترضوا فاغضبوا ما بدا لكـم وانظـروا كيف يدوم الدستور •• والعقــاد حين يدرك ان النحاس قد تحول عن اهداف الوفد يكتب قائلا (٢) « ان صاحب المقام الرفيـع اعظـم رؤساء الـوزارات المصريين ربحا واقلهم خسارة باشتغاله في السيـاسـة دون استثناء واحـد من اولئك الرؤساء في القديم او الحديث او بين الاحياء والاموات •

فالنحاس باشا كـان قاضيا من الدرجـة الاولى او الثانيـة في ايـام الثورة الوطنية فأصبح وزيرا بعـد بضع سنوات واصبح رئيس وزارة بعـد بضع سنوات اخرى ولا نعلم رئيس وزارة وثب هذه الوثبة في سلم الترقية منذ كانت في هــذا البلد وزارات ومصطفى النحاس تولى الوزارة اربع مرات وليس بين الاحياء من تولاهـا اكثر من مرة واحدة ما عدا توفيق نسيم •• »

ويرجع بعض الكتاب مواقف العقاد من زعيم الوفد مصطفى النحاس الى عدة اسباب في مقدمتهـا ان النحاس نفسه كـان هـو السبب في اتخاذها حيث كـان طرازا من الرجال •• يميل الى فرض نـوع من السلطة الابوية علـى الجميع وكـان يميل الى الذيـن يذوبون فيه بالحب والطاعـة وكـان يشعـر بشيء من سوء الظـن في موقف المختلفين معه ولم تكـن اهتماماته الادبيـة والفكريـة بنفس العمق والاتساع كمـا رأينـا في شخصية سعـد زغلول الى جانب انه ــ النحاس ــ لم يكن يتمتع بمـا عرف عن سعد زغلول مـن دعابة ومرونة بـل كـان صريحا واضحـا لا يخفي انفعالاتـه حتـى مـا كـان منهـا قريبـا سهـلا وحتى مـا كـان ينبغي على السياسي الماكـر ان يخفيه ولا يظهره •• لهذا ولغيره من اسباب لم تستمر علاقة النحـاس بالعقــاد او الانضمـام الى صفوف الوفـد •

---

(١) البلاغ ٦-١١-١٩٣٧ •

(٢) البلاغ ٢١-١٢-١٩٣٧ •

يعتبر مكرم عبيد من المسؤولين عن الموقف الحاد والعنيف الـذي اتخذه العقاد من الوفـد وزعيمه مصطفى النحاس ٠ فقـد كـان من المنتظـر منـه كشخصية لها وزن في الحزب ان يتدخل لتقريب وجهات النظـر بين الطرفـين الا انه على العكس من ذلك اهتم في اشعال النيران بين زعيم الوفد وكاتبـه٠ وهذا في حـد ذاته يستدعي الدراسـة والبحث التي يتسع لهـا هذا المجال الذي خصص من مواقف العقاد ٠

لقد انبرى العقاد على صفحات روز اليوسف فكتب سلسلة من المقالات في الرد على مكرم عبيد الذي كـان قـد بدأ يهاجم العقاد بعد خروجه على الوفد في مقالات نشرهـا بجريدة كوكب الشرق التي كـان يرأسهـا الدكتور احمد ماهـر واخرى في جريدة الجهاد ٠

وتعتبر المقالات المتبادلة بين مكرم عبيد والعقاد من اعنف اساليب الهجـاء السياسي الذي نشرته الصحافـة في النصف الاول من القرن العشرين ٠ لذلك نسجل فقرات من المقالـة الاولـى التي كـان قـد كتبهـا العقاد في ٧ اكتوبر عام ١٩٣٥ في روز اليوسف ، والتي تبرز موقف العقاد من مكرم عبيد وتغنـي عـن اي تعليق حيث يقول : البهلوانات والمسرحيات طبيعـة في الدساس الدجال مكرم عبيد لا ينساها ولا تنساه ٠ هي في سطر واحـد من مقال او في عمل من الاعمال ٠ كمـا لا ينساهـا ولا تنساه في واقـع او خيـال ولا في تحضير او ارتجـال ٠

وعلى هذه السنة البهلوانية شرع في الاعلان عن مقاله البهلواني كل يـوم منذ خمسة ايام ٠ كمـا تصنع معارض الصور المتحركة في الاعلان عن المناظـر الجديدة قبل اسبوع من تغيير البرجرام ٠٠ وكمـا يصنع هـو حين يلقي الخطبة وتصدر الصحف ساعـة القائها وفيهـا بين السطور تصفيق شديد ٠٠ هتاف بحياة المجاهـد الكبير ٠٠ « تصفيق حاد متواصل » الى آخر المناظـر المحضرة والتعليقات المقدرة في لوحـه المحفوظ لوح التهويش والتهريج ٠

وسنعلم المجاهد الكبير او المخا‌ر الكبير ـ درسـا كان عسيرا عليـه ان يتعلمه لولا اننـا بحمد الله نعرف كيف نعلم امثاله من لئام التلاميذ ٠ سنعلمه

ان ينزل طائعا ــ او كارها ــ عن دعوى الارتجال التي ذهب فيها الى اقصى المدى من الغفلة والاستغفال • وسنعلمه اشياء كثيرة لم يكن يحلم بها وسيتعلم وانفه في الرغام لقد قال كثيرا يوم اعلن عن « بورجرامه » البهلواني وهو لا يعني ما يقول ولا يتعمد ان يقول فلم يبق لنا مزيدا على ما قال الا ان نشرح هذا الضرب الجديد من الارتجال •

لو بدأ مكرم عبيد حياته السياسية بمقال عن آخرة العقاد • لكان هذا المقال وحده كافيا لاستمتاعه بجميع القاب الكذب والنفاق والدسيسة التي كسبها في حياة طويلة جمعت بين اقذر السيئات واوخم الاضرار واحقر الاغراض •

فقد واجهته بالوقائع المشهودة التي لا تقبل التكذيب لأن سردها ــ مجرد سرد ــ كفيل باثباتها لكل عاقل • ولو كان من المغرضين المتحيزين قلت انه يعبث بكرامة الوفد • فيسبق اجتماعاته الخطيرة باعلان قراراته قبل انعقاد الاجتماع والاطلاع على المعلومات المكنونة لكي يرى الانجليز انه يملي على الوفد من الاراء كل ما يشاء وقلت انه يدس للناس حبا لنفسه لا حبا للزعامة ولا حبا لطائفته • ولهذا نقم عليه جميع الاقباط في الوفد قبل زملائه من المسلمين وقلت انه بيت نية السوء للصحيفة التي اكتب فيها قبل سبعة شهور من ظهور اي كلمة من الكلمات التي يتعللون بها زورا وتلفيقا في الزمن الاخير • ولهذا حرمها مصطفى النحاس باشا زياراته الشريفة التي يوالي بها المراقص والولائم والمسارح بلا توقر ولا اعتدال • وحرمها الدساس والدجال اخبار الوفد وخطب الوفد ورسائل الوفد قبل ان تنقضي عليها خمسة ايام •

وقلت غير هذا كثيرا من الوقائع التي يكفي تقريرها لاثباتها ايما اثبات •• فماذا واجهني الدساس الدجال حين واجهته بالوقائع الصادعة والدلائل القاطعة التي لا يجدي فيها الصراخ والخلط السقيم ؟ واجهني باختراعات من الاحاديث يستطيع ان يخترعها في كل ساعة وفي كل مكان •• لقيني العقاد مرة في الطريق وقال لي كيت وكيت •• تحدث العقاد مرة مع سعد زغلول فقال له كيت وكيت •• وخرج العقاد وسعد يقول كيت وكيت للحاضرين ولا يذكر لنا الدساس الدجال اسما واحدا من اسماء اولئك الحاضرين •• ويدعي الدساس

الدجال انني ما حملت على وزير المعارف ـ يقصد احمد نجيب الهلالي ـ الا لانه نقل صديقا او صديقين لي من القاهرة الى قنا واسيوط مع ان الشاهدين والغائبين والذاكرين والناسين في مصر يعلمون ان نقل هذين المظلومين لم يكن الا عقابا لهما هما البريئان على حملتي أنا التي حملتها على وزير المعارف انكارا لما يصبغ به التعليم من الصبغة الدنيئة ، ولما يسلطه من الاضطهاد والمحاباة على المبعدين والمقربين . ويزعم الدساس الدجال انني كاتب المنشورات لان في المنشورات ما يشبه المقالات التي اكتبها في هذه الصحيفة اليومية . فلماذا يا ترى لا يكون كاتبو المنشورات هم الناقلين عن تلك المقالات ؟ ولماذا لا يكون الكلام دائما شائعا لانه حق معروف للمئات واضعاف المئات ولقد اصبح « البوليس السري » عمدة للدساس الدجال في بياناته وتحقيقاته منذ اصبح البوليس السري والوفد الاثنين مع الوزارة في صف واحد . فلا عجب ان يكون مرجع الوفد اليوم تقريرات البوليس بعد ان كانت مرجعا لاتهام المخلصين وترويج اكاذيب المغرضين .

اما انني كنت اناقش سعدا فهذا صحيح لا ريب فيه . ولكنني كنت اناقشه في خطبة العرش وفي قانون الجيش وفي السياسة العامة ولا اناقشه لاقول له كما افترى هذا المأفون المأفوك : انني خلقت الوفد بسن قلمي.. ثم يكون كل ما يجيب به سعد على هذا السخف المزعوم بعد خروجي « داروا سفهاءكم» وكأنما كان سعد جبانا ذليلا كمكرم عبيد او كمصطفى النحاس . وكأنما كان سعد الذي يفتري عليه هذا المختلق رجلا آخر غير سعد الذي كان ينعت العقاد بالجبار ويفاخر به امام الاعداء والانصار.. ورحم الله سعدا الذي كان يستمع الى المناقشة في عمله وقوله وهو أهل للاستقلال برأيه . لولا ما فطر عليه من خليقة الحرية وروح الشورى. ومسخ الله خلفا له فوق ما مسخهم وهم ينفرون من مناقشة او معارضة ولو سألوا الرأي كل انسان لما بلغوا من الهداية ما يبلغه رأي سعد في استقلاله وانفراده .

ولولا ان الدساس الدجال مخبول يترنح ويتخبط من وقع الضربات التي صببتها على ام رأسه هذه الايام ، لما شككت لحظة في انه صديق حميم يريد لي الخير من حيث لا اريد . ولكنه في الحقيقة عازف اللب شارد البديهة

لا يعقــل ما يقول ، ولا يفرق بين التشريف والاتهام •

فهو يرغمني مأجورا ويقول في صدر هذيانه عن هذا المأجور : « بــدأ العقاد حياته العامة وحياته الصحفيــة بمراقبة الصحف المصريــة تحت اشراف السلطــة العسكريــة البريطانية اثناء الحرب العظمى •

لو ان باطلا من قرارة الجحيم سلطه الابالسة على الحق فمحا كل ما أسلفت من محمدة في حياتي العامة او حياتي الصحفيــة • الا هــذه البدايــة التــي يذكرهــا الدساس الدجال ــ لغفيت بهــا عــن محامد شتى ورجحت بهــا على كل مــا يدعيه هؤلاء المحتالــون الوصوليون من وطنية وجهاد •

كانت الحرب العظمى ولم يكــن للصحفي عمل ولا رجــاء في العمــل القريب وكنت اعرف الاستاذ عثمــان فهمي العالم الاديب الذي كــان يومئذ من كبار الموظفين بوزارة الداخليــة ثم اصبح مديرا لاسوان فمديرا لقنا • ثم احيل الى المعاش فخاطب الاستاذ جعفر والي في شأني • وكان يومئذ وكيلا للوزارة فصدر الامر بتعييني في قلم المطبوعات وانا على احوج ما يكــون الانسان وهو يطلب الرزق ويطلب الشفــاء •

فهل يعلم القراء كيف كــان عملي الذي يعيرني به الدساس الدجــال وانني لفخور بــه لو فقدت المفاخــر جميعــا في حياتــي العامــة او حياتــي الصحفيـــة •

انهم لا يعلمون وما كــان لهم ان يعلموا لولا مشيئة مكرم عبيــد وهو ينبش عــن دفائني فيمــا يتوهم وهــو يظهــر لي من الحسنــات ما لم يظهره وليّ ولا صديــق •

أبيت ان اعمل في قلم المطبوعات الا كما يعمل المصري في خدمة الامــة المصريــة •

فلم ينقض على خدمتي فيه اسبوع ــ اسبوع فقط ــ حتى دعاني مستــر هورتيلور وقال لــي :

ان لم يكن عطفك معنــا فلماذا تعمل في هذه الوظيفة ؟

قلت : انني لا افهم ما تعني •

قال : انك لا تتوخى الدقــة في مراجعــة الصحف • واراني اخبارا تركتها في بعض الصحف • وكان من حقها الا تترك محافظة على أمن الخواطر •

قلت : انني لا اجـد في هذه الاخبار مـا يمتنع نشره بين المصريين • وانني اقرأ في الصحف الانجليزيـة نفسهـا ما هـو أهم من هذه الاخبـار • فلماذا ينبغي ان يجهل المصريـون مـا يعلمه الانجليز المحاربون •

فنظر الي طويـلا ثم قال : هل انت من الحزب الوطني ؟

قلت : كلا ولكنني من المصريين •

قال : حسنا نحـن لا نتفق •

واشار اليّ بالتحية فخرجت وانا اعلم انني خارج من الوظيفة • وفارقت العمل بعد اسبوع واحد ، وانا لا اعلم متى تنتهي الحرب ، ولا اعلم متـى اعثر بعمل يكفيني بعض الكفاية في شؤون المعاش وشؤون العلاج • ولو كنت نذلا ماجورا كالاستاذ مكرم عبيد او كصديقه «الاستاذ الفاضل» توفيـق ديـاب لاستطعت ان ابقى سبع سنوات في تلك الوظيفة لا سبعة ايام وان اخدم « قلم المخابرات مع الخادمين وان ابشر للاستعماريين المصريين والشرقيين وان اغنـم الرضى والاعجاب من الوطني الغيور الدجال المحتال كما غنم الرضا منه الحصفاء الالباء الذين لا ينخدعون بالشرف كما تنخدع نحن البلهاء ولا يفضلون الفاقة على الهوادة في ايسر مبدأ من مبادىء «الوطنية» لو كانوا في حاجة الى القوت•

افهذه هي المعرة ايها المخبول؟

وهل عندك معرة اخرى من هذه المعرات التي ترتفع بها رؤوس وتنحنـي لها جباه الكاذبين المنافقين ••»

ثم تناول العقاد بالرد تلك التهمة التي وجهها اليه مكرم عبيد ونعني بهـا ان العقاد لا يكتب الا مأجورا ، فقال : يذكر المفضوح المهتوك المرتبات والاجور ويزعم انني جزيت نحاسه بالكنود والعقوق لانه كان يحسن الي من فضل ماله الغزير •

فليسمعها اذن كلمة صدق لا تنفيها الاقاويل ولا تخفيها الاباطيل •• انني ما تناولت قط من الوفد مرتبا وانا في غنى عنه • وانني ما تناولت مرتبا قـط وانا اجد الكفاية من عملي في النيابة او صحيفة من الصحف كروز اليـوسف او الجهاد او كوكب الشرق او مصر او المؤيد الجديد • وانني كنت اتنـاول مرتبا من الوفد يوم كانت الوزارات التي اهاجمها تغلق كل صحيفة اكتب فيها وتعرض علي مئات الجنيهات ولا تطلب مني عملا ولا قولا غير السكوت وانني

كنت استطيع ان اسكت لان الصحف كانت تقفل علي ابوابها • ولا حيلة لي في غلق الصحافة التي اكتب فيها ولكنني كنت اؤلف الرسائل كرسالة الحكم المطلق ورسالة اليد القوية • واطبعها على الرغم من رقابة المطابع تحديا لما يريدونني عليه من سكوت مأجور •

فاذا كان هذا عارا ــ يا وغد ــ فقل لي اخزاك الله فيم كان الوفد يجمع الالاف من الجنيهات بل مئات الالوف من الجنيهات باسم القضية الوطنية واسم الاعمال السياسية واسم الجهاد والمثابرة على الجهاد ؟ فيم كان الوفد يجمع التبرعات تارة باسم المكتب المصري في لندن ، وتارة باسم تخليد الزعيم الفقيد ، وتارة باسم المنكوبين او جزية مفروضة على الشيوخ والنواب والمرشحين ؟

فيم كان الوفد يجمع نحو ثلاثين الف جنيه صفقة واحدة من مكافآت الشيوخ الموقوفة اثناء تعطيل المجلس ولم يدخل منها مليم واحد في جيب شيخ واحد ؟ اتراه كان يجمعها ــ يا وغد ــ لتنفق انت منها سبعة عشر الف جنيه في لندن لا تقدم عليها حتى الساعة اقل حساب ؟

اتراه كان يجمعها لتقبض انت اجر الدعاية وقد كان خليقا بك ــ وانت ذو يسار ــ ان تتبرع بالالوف من عندك كما تطلبون الى الناس ان يتبرعوا من عندهم بالالوف ؟

اتراه كان يجمعها لتقبض منها انت عشرة الاف ولم تنزل عنها.الا الى ثمانية آلاف كما طلبت يوم احتاج سعد في باريس الى سكرتير يعرف الانجليزية •

اتراه كان يجمعها لينعم النحاس باشا وحده بمرتب يتقاضاه بغير انقطاع من سنة ١٢٠ الى ان تولى رئاسة الوفد فأصبح المال كله بين يديه ينفق منه على هدايا الغرام ومهور الزواج وعرابين الوسطاء والشفعاء ؟

من اين جاء النحاس بالسبعمائة الجنيه التي بذلها بين مهر وشبكة وهدية لخطيبته الاولى قبل ان يحال بينه وبين الزواج منها لاسباب لا يعنينا بحثها في هذا المقام ؟؟ اي والله على هدايا الغرام ومهور الزواج وعرابين الوسطاء والشفعاء ينفقون ويعيرون العقاد على ثلاثين جنيها يأخذها حين تحاربه القوة في رزقه ويلفظها حين يجد الكفاية من عمل صحفي يؤديه • ولقد علم الكثيرون

انباء ذلك الزواج المفسوخ وبقي الاكثرون لا يعلمونه الا على السماع البعيد.
اذن ما دام الصديق الوفي المدافع عن النحاس باشا يأبى الا ان يعلموه .

منذ سنتين عرفت السيدة عائدة مكرم عبيد صاحب الدولة مصطفى النحاس الى فتاة يخطبها الباشا للزواج فسخت الخطبة لاسباب قلنا ان بحثها لا يعنينا. فليعلموه اذن ما دام الصديق الوفي المدافع عن النحاس باشا يأبى الا ان يعلموه. المهور ونفح الوسطاء والشفعاء بالهبات هبات السلاطين،والامراء ، من مال الجهاد في سبيل القضية المصرية ومن مال الوفد الذي يعاب على العقاد ان يتناول منه القليل عند مسيس الحاجة اليه ولا يعاب بذل الكثير منه في سوق الغرام ونفحات الوسطاء والخدام . والان ماذا يريد الوفد ان يقول بذلك الكلام الذي ازرى به وبمصطفى نحاسه ولم يرتفع الى موطىء النعال من كاتب هذه السطور.

يستطيع كل انسان ان يكون شريفا في اتهامه وادعائه الا المهرج الخسيس فانه لا يستطيع الا التهريج والخسة في ثنائه وهجائه وكذلك كان الوفد منحدرا في الخسة الى حضيض اغوارها الموبوءة في غير ما طائل ولا اقناع الا التنفيس عن جحيم الضغن في صدره الحقود وعن بؤرة من الدنس في رأسه المخبول.

محمد محمود باشا :

بعد توليه مسؤولية الوزارة في ١٩٢٨/٦/٢٥ صرح محمد محمود باشا بأنه سيضرب بيد من حديد على كل عابث بالامن او مسبب لاضطراب النظام العام . واضاف في مذكرته الوزارية الخاصة بحل مجلس الشيوخ والنواب(١) لقد اصبحت الحياة النيابية اداة لطغيان تلك الفئة . يعني النحاس وسائر زعماء الوفد واستبدادها مستعينة باكثرية اضطرت الى ممالاتها او مداراتها بين رجل مخدوع فيها وآخر يخشى شرها ، وثالث يطمع في خيرها . ولذلك عجزت تلك الحياة النيابية عن تحقيق اخص ما يرجى فيها من انفاذ الاصلاحات في المرافق العامة .

ولما كان البرلمان في حالته الحاضرة لا يعين على الوصول الى الحالة الطبيعية التي تتوق اليها البلاد وجب الا يكون من ناحية اخرى عقبة في سبيل

---

(١) العقاد معاركه في السياسة والادب ص ١٣٦ - عامر العقاد .

الاخذ بالاسباب الموصلة لها . لذلك لا ترى الوزارة بدا من حـل المجلسـين وتأجيل الانتخابات الى الوقت الذي يرجى فيه ان تتجلى ارادة الامة على وجهها الصحيح .

بعد ذلك اعلن رئيس الوزراء الجديد محمد محمود بانه سيضرب بيد من حديد، اقرارا لما يريد، وبدأ سياسته هذه بأن منع الاجتماعات وكبـل الحريات وراقب ذوي الرأي .. فكان لا بد ان يستنفر المشاعر وان يستنفر العقول بهذه السياسة الاستبداديـة .. وكان العقاد في ذلك الوقت كاتب الوفـد الاول. وكما رأينا ان محمد محمود يهاجم الوفد ووزارته الاولى بعد وفاة سعد زغلول (وزارة النحاس باشا في ١٧ مارس ١٢٨) التي خلفها بعد اقالة النحاس وهنا شن العقاد حملة عنيفة على حكومة محمد محمود في مقالات نشرتها صحيفـة كوكب الشرق وصحيفة البلاغ فهو يقول مثلا في مقال بعنوان « مجنون في يده سيف»وبالطبع كان يعني بالمجنون محمد محمود،فلأجل ان تصبح مصر مستعمرة بريطانية قام محمد محمود في الحكم وافترى على المصريين ما افتراه من الكذب والتشهير، ولاجل ان تصبح مصر مستعمرة بريطانية صنعوا ما صنعوه .. » (١)

لكن من المقالات التي ما زال الضمير المصري الحر يذكرها باعجاب تلك المقالة التي نشرها ورددتها الجماهير لما فيها من سخرية مما قاله محمد محمـود باشا بأنه سيضرب بيد من حديد والتي جعل عنوانها «يد من حديد في ذراع من جريد » قال فيها « خطيب بلا هوادة .. ومن هو الخطيب» ؟ هو محمد محمود العيي الالكن المنكر الصوت المسلوخ المخارج كأنه عجائز الجواري ينشزن في محافل الزار . هذا هو خطيب الوفود ورب الجنود والضارب على الدنيا في غير هوادة بلسان من قصدير ويد من حديد (٢) .

وقف بين وفد قنا فتكلم وبين وفد ابى تيج فتكلم وبين وفد الجيزةفتكلم، وكان كلامه كله انه لا يهاود ، وانه سيضرب بيد من حديد وما علمناه يملـك الا تلك اليد التي تمتد في الظلام الى اختلاس منصب ليس له بأهل ولا هو من المؤمنين عليه . .فلو صح القول لكان احرى به ان يقول انه سيضرب بيد مـن ذهب فانها اليق بالذين يتسللون في الخفاء لاغتصاب ما لم ينالوه عـن طريق

---

(١) صحيفة كوكب الشرق ٢٦-١١-١٩٢٩ .

(٢) البلاغ ٥-٧-١٩٢٨ .

القانون والخلق الكريم .

خاطب المحافظين والمديرين فقال لهم انه امر بأن يعطوا من السلطة والنفوذ ما يسهل عليهم اداء مهمتهم على الوجه الاكمل فأما اللسان الذي يقول هذا فقد عرفناه فهو لسان الانجليز الذين طالما عطفوا وذابوا عطفا وحنانا على السلطة التنفيذية ورثوا لها رثاء الثكالى حين سلب البرلمان سلطتها وجردها من القوة الباطشة التي يريدونها لها ولا يريدونها للبرلمان .

هذا هو اللسان . واما اليد الباطشة الجبارة فلمن تكون يد الحديد نعني ونسأل : لمن تكون هذه اليد المستعارة في ذراع محمد محمود ؟

للانجليز ان شاء الباشا وهو لا بد يشاء هذه السمعة لانه يريد الارهاب والناس لا يرهبونه وهو اعزل من قوة الامة ومن قوة الشخصية ومن قوة الانجليز .

ولكن الانجليز لا يركبون يدهم الحديد في ذراع من جريد . فلا نظنها الا يدا ستبتر عما قريب .

وتتوالى مقالات العقاد العنيفة ضد الوزارة السليمانية نسبة الى محمد محمود سليمان .. وكلها تشكل في النهاية موقفا حادا من الاستبداد والارهاب والطغيان الذي مثله محمد محمود .

عدلي يكن باشا :

المعروف ان عدلي يكن باشا كان زعيما للاحرار الدستوريين وان حزبه كان من الاحزاب المنافسة لحزب الوفد الذي كان العقاد كاتبه الاول . الى جانب ان عدلي نفسه كان من خصوم سعد زغلول واذا اضيف الى هذين الاعتبارين ثالث هو ان العقاد لم يكن متعاطفا مع حزب الاحرار الدستوريين منذ نشأته .. حيث كان يمثل سياسة معينة قد لا تتفق وافكار العقاد كواحد من ابناء الطبقة المتوسطة التي لا تلتقي بأي حال من الاحوال بطبقة الاقطاعيين والرأسماليين الذين يتكون منهم هذا الحزب الجديد..لهذا ولغيره فان موقف العقاد من عدلي يكن باشا وحزبه موقف معروف ليس في حاجة الى تفسير.

لكن مما جعل موقف العقاد حادا على عدلي يكن والعدليين هو عدم جديتهم في تنفيذ دستور ١٩٢٣ الذي تمت صياغته وعدم التمسك بالنص الذي

يفيد بأن ملك مصر هو ملك مصر والسودان لا مصر وحدها .. كمـا يريـد الانجليز . وكما نعلم ان هذا الدستور كان سينفذ اثناء تولي عبد الخالق ثروت باشا الوزارة وهو قطب من اقطاب الاحرار الدستوريين وكتب (١) « لقد قلنا من قبل ان العدليين لا يضمرون الجد في طلبهم تنفيذ الدستور . لان تنفيـذ الدستور يقضي عليهم ويختم حياتهم السياسية ويبطل كل دعوى لهـــم ويقطع الطريق على عدلي وامثال عدلي فلا يسمع لهم بعدها ذكر في عالم السياسـة المصرية ذلك لان هذه الشرذمة التي تسمي نفسها بالاحرار الدستوريين لا تطمع في اغلبية الكراسي بمجلس النواب ولا في عدد محترم يرفع صوتها في المجلس وهذا معقول مقرر لا يكابر فيه القوم انفسهم ولا نحسبهم من الجانـب الآخر يطمعون في محاباة الوزارة الحاضرة لهم كما كانوا يطمعون في محاباة الوزارة الماضية فالنتيجة التي تنتهي اليها الانتخابات الحرة هي حذف اسم العدليين من سجل السياسة العامة وتعفية آثارهم شيئا فشيئا وما لهذه النتيجة يعمل القوم وما لهذه النتيجة بثوا دسائسهم مع الانجليز واعتقلوا ونفوا وصـادروا وانشـأوا حزبهم الملفق» .

اشتدت حملة العقاد على عدلي باشا وانصاره وفي هذه المرة يكتب العقاد مقاله السياسي بالبلاغ تحت عنوان «عدلي باشا يعود على رغـم انف البلاد» بدأه قائلا :

« وكان قدرا معلقا في عنق مصر ذلك الذي قيض لها وزراء الحماية منذ سبع سنوات . فأنشبوا في المناصب اظفارهم ونسجوا حولها خيوطهم وتعاهدوا على تداولها بينهم وتقسيم انصبتها المشاعة عليهم فلا تفلت من شريـك حتـى يتلقفها شريك غيره ولا تنتهي وزارة لاحدهم حتى تخلفها وزارة لصاحبه . واذا استثنينا بعض الوزارات الادارية التي اضطر وزراء الحماية الى التخلي عنها . الى أمد قريب فقد اصبحت وزاراتهم سلسلة متصلة ، وكأن القطر لم تتقلـب عليه هذه السنين الحافلة بالمواقف المضطربـة والنوب المتناقضـة والازمـات العصيبة غير وزارة واحدة باسماء متعددة فمن رشدي الى عدلي الى ثـروت الى عدلي مرة اخرى . وها هو عدلي يعود اليوم على رغم انف البلاد لتمثيـل الفصل الاخير من الرواية ويتم نعمته على البلاد ففي الوزارة الاولى قبل الحماية

(١) البلاغ ٤-٢-١٩٢٣ .

وشكرها وقال بلسان رئيسه : « ان مصر في حاجة الى حماية دولة عظيمة لكي تتمكن من بلوغ ما قدر لها » .

وفي الوزارة الثانية نصح للانجليز باتباع سياسة المنح من جانب واحد واليوم يعود لينشىء البرلمان الذي يبرم هذه السياسة ويريح بال انجلترا من هذه القضية .

من هو رشدي ومن عدلي ومن ثروت ومن صدقي ؟؟ ومن هؤلاء جميعا؟؟ انهم كلهم رجال سياسة واحدة هي سياسة الحماية فما معنى تعاقبهم على الحكم وقيام بعضهم في اثر بعض . والحوادث تتغير والازمات السياسية لا تقر على قرار ؟

وختم العقاد مقاله هذا الذي كشف النقاب فيه عن العلاقة التي كانت بين الاحرار الدستوريين والانجليز قائلا :

« تمطى عدلي باشا على كرسيه مرة في عهد وزارته الاولى وقال :«وزارتي هذه وزارة الثقة ولو سمعت ان في اسوان صائحا يصيح ليسقط عدلي لاستقلت الساعة» فليته كان سألني في ذلك الوقت فاني كنت في اسوان وقد سمعت بأذني ما لم يسمعه دولته على ان دولته بقي في الوزارة حتى حمته الحراب الانجليزية من الشعب الصارخ بذلك الهتاف فلم يستقل ولا شك انه عدل عن وعده ذاك كما عدل عن وعود كثيرة ولكننا نذكره فقد تنفع الذكرى .

محمد توفيق نسيم باشا :

اصرار العقاد على موقفه من نسيم باشا ووزارته كان سببا مباشرا لخروجه على الوفد ، وتغيير مسار حياته السياسية بشكل عام . وليس ما ادركه العقاد عام ١٩٣٥ بالنسبة لمهادنة نسيم باشا في اوج القلب الديمقراطي عام ١٩٣٥ امرا جديدا بل ان نسيم هو نفسه الرجل المهادن في اوج الغليان الوطني عام ١٩٢٠؛ ومن هنا ، يستغرب متابع لسير الاحداث ان يكون هذا هو موقف العقاد المتشدد من نسيم باشا ، واعلانه الجهاد ضد حكومته .

ومن غريب الامور ان ينزلق بعض الدارسين والمؤرخين فيرجعون هذا الموقف من العقاد الى اسباب شخصية متأثرا بما كتبه مكرم عبيد في معرض هجومه على العقاد حين خرج عليهم بأن السبب هو ان الوزارة النسيمية لم توافق

على نقل اثنين من اصدقاء العقاد احدهما محمد طاهر الجبلاوي من الصعيد الى القاهرة . هذه اقوال من مكرم عبيد ادلى بها في لحظة انفعال.. فلا يجوز ان نعول عليها او نبني عليها احكاما ومواقف لانه اذا كان السبب الحقيقي هو نقل موظفين صديقين للعقاد من الصعيد الى القاهرة كما يذهب مكرم عبيد في هجومه على العقاد لماذا لا يهاجم الوزير التابع له هذان الموظفان ؟ هل من الحكمة مثلا ان يهاجم سياسة وزارة من اجل نقل اثنين من الموظفين ؟

ان المنطق يرفض هذا التصور مؤكدا انه اذا كان العقاد يريد ان يطلب نقل هذين الموظفين فهناك عشرات الطرق والاساليب التي بها يمكن تنفيذ ذلك وتحقيقه غير هذه الطريقة التي تسببت في الكثير من المتاعب للعقاد نفسه .

ومن هنا يمكن القول بان هناك اسبابا اخرى لموقف العقاد من نسيم باشا منها ما هو قديم ومنها ما هو وليد الظروف التي كانت بعد تولي نسيم باشا الوزارة في وقت كان الغليان الديمقراطي في حالة من العنف لم تشهدها البلاد من قبل . فهناك دستور معطل ، ومحتل انجليزي يعمل على تعطيله بالاشتراك ولو عن طريق غير مباشر بالملك الذي يريد ان يحكم ويملك ويكون هو مصدر السلطات في البلد .

موقف العقاد يبدأ في سنة ١٩٣٤ حين تألفت وزارة محمد نسيم باشا الثالثة بعد استقالة وزارة عبد الفتاح يحيى التي سارت على سياسة سابقتها وزارة اسماعيل صدقي (١) وكانت الامة تطمع من وزارة نسيم ان تعيد الحياة النيابية ودستور سنة ١٩٢٣ الذي عطله صدقي من قبل بل وكانت الامة تنتظر من الوفد ان يطالبها بذلك خاصة وان رئيسه مصطفى النحاس اعلن تأييده لتلك الوزارة . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حكم نسيم الامة حكما فرديا غير دستوري فأثارت سياسته العقاد كاتب الوفد آنذاك ــ فأخذ ينقد الوزارة ولم يمض على توليها الحكم ثلاثة شهور محذرا الوفد ورجاله من تأييدها لانها صنيعة القصر والانجليز . ولكن النحاس لم يوافق على ذلك فحدثت مشادة بين العقاد والنحاس من جراء مقالاته انتهت بخروج كاتب الوفد من الوفد فأخذ ينشر حملاته الصحفية في صحيفة روز اليوسف اليومية مهاجما وزارة نسيم ومؤيديها فاضطر رئيسها الى ان يصدر في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ بيانا سياسيا

(١) ــ لمحات من حياة العقاد المجهولة ص ١٠٠ ــ عامر العقاد .

جعل عنوانه «بيان للناس» .

فكتب العقاد مقالا بروز اليوسف في اليوم التالي جاء فيه ان قصة الدستور في بيان نسيم باشا ـ على حد تعبير صديقنا الدكتور طه حسين ـ لقصة وانها لتختلف عن كل ما اذاعه المطبلون للوزارة النسيمية والمزمرون حين طلعوا علينا باسطورة منتصف شهر مايو الماضي ومنتهاه ثم باعجوبة الخريف والشتاء لكن ما لنا وللانشاء الذي يتطرق عليه التحريف والتصحيف او الشدة في التعبير والاساءة في التصوير .. وامامنا بيان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع ما يكفي سرده في ترتيب ، لتقديم القصة للقراء اصدق تقديم . ثم سرد العقاد تلك الوقائع التي احصاها فكانت ثلاثا وعشرين واقعة.

وفي مقدمتها :

ولي نسيم باشا الحكم وهو لا يقصد الى اعادة دستور ١٩٢٣ بالذات اذ اكتفى الامر الملكي الذي استصدره في ٣٠ نوفمبر ١٩٣٤ بأن يشير الى ان البلاد سيوضع لها نظام دستوري . ولما اراد نسيم باشا تنفيذ الامر الملكي الصادر له ابلغه المندوب السامي ان الحكومة البريطانية ترى ان البلاد قد تستفيد من تأجيل المسألة وان مصلحة البلاد تقتضي عند سنوح الفرصة ان يكون شكل الدستور الجديد موضع درس مهم يتناول جميع وجوه المسألة .

ولم يفت العقاد ان يعلق في نهاية مقاله هذا على الوقائع التي تضمنها بيان نسيم باشا فقال : وبعد افليست هذه القصة التي استخرجناها بكل امانة من بيان نسيم باشا مؤيدة التأييد كله لكل ما سبق لنا ذكره عن نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الانجليز ومن الدستور ؟

وقد قلنا منذ الساعة الاولى انه قد ولي الحكم متفاهما مع مستر بيترسون على ان يحكم مصر من غير دستور سنتين كاملتين . وان الدستور الذي يقدم لمصر بعد ذلك لا يكون هو دستور ١٩٢٣ بل دستورا جديدا محدودا .

اذن لم يكن موقف العقاد من نسيم باشا بسبب نقل صديقين له الى القاهرة ولكن المسألة كانت اكبر من ذلك وأهم . السبب هو ان هذه الوزارة سلكت طريقا فيه كثير من الالتواء والغموض . وتبين انها تمهد لنفسها وتعمل لحساب السراي تارة ولحساب الانجليز تارة اخرى ولم تحرك ساكنا في امر اعادة الدستور .

اسماعيل صدقي باشا :

يرى اكثر الدارسين لفكر العقاد السياسي (١) ان اعنف واروع معــارك العقاد هي تلك التي خاضها ضد اسماعيل صدقي منذ توليه رئاسة الوزارة عام ١٩٣٠ خاصة بعد ان اعلن اسماعيل صدقي الغاء دستور ١٩٢٣ واقترح ثـــم فرض دستور جديد يضاعف من سلطات الملك الاستبدادية ويؤكدها ويعصف بكافــة الحريات والحقوق الشعبية والفردية .

وهنا يبرز موقف العقاد الرائع الصلب ككاتب حر يناضل بقلمه من اجــل الديمقراطية في ظروف غاية في الصعوبة والتعقيد . وهل هناك ظرف اصعــب من ان يكون مليك البلاد ضده والحزب الذي ينتمي اليه سقطت وزارته بطريقة هي اقرب من الاقالة وليس الاستقالة . ليتولى اسماعيل صدقي الحكم فينفــذ خطط الانجليز الارهابيين بايد مصرية كما رأينا في الصفحات السابقة .

برز موقف العقاد من اسماعيل صدقي باشا من خلال مقالات وصفت بانها نموذج حي للكتابة الثورية العنيفة المتمردة الواعية في نفس الوقت . وليس ادل على عنف وحدة وثورية ما كتبه العقاد من ان الملك فؤاد وزبانيته وجدوا فــي حملة العقاد فرصتهم المناسبة للتحقيق معه وسجنه بتهمة السب في الذات الملكية بعد كلمته المشهورة في البرلمان والتي انقذه من السجن بسببها الحصانة البرلمانية.

ولا شك ان هذا الهجوم الذي شنه العقاد على اسماعيل صدقي الذي جاء لضرب الحرية والديمقراطية ولفرض الاستبداد والارهاب كان اعنف هجــوم ووجه به في حياته السياسية .

ان العقاد يسخر من هؤلاء الذيــن اطلقوا على اسماعيل صدقي لقب ابي الفلاح .. يسخر بطريقته التي عرف بها في الكتابة السياسية انه يقــول (٢) ابو الفلاح ؟ اي نعم ابو الفلاح المسكين الذي يلبون له في كل ساعة اباء وهو حائر بابنائه الكثيرين لا يدري ماذا يصنع معهم بكثرة هؤلاء الاباء .

يستطرد العقاد في مقاله الساخر قائلا : ان اسماعيل صدقي يستحق اللقب من الفلاحين ، استحقه اولا : بالجهد الجهيد الذي يبذله في حرمان الفـــلاح

---

(١) راجع العقاد بين اليمين واليسار ص ٦٢ ــ رجاء النقاش .

(٢) المؤيد الجديد ٧ سبتمبر ١٩٣٠ .

المصري من حق الانتخاب وحصر هذا الحق العام في اقل عدد مستطاع من غير الفلاحين ٠ واستحقه ثانيا : باهمال مشروع البنك الزراعي الذي قررته وزارة الشعب لانقاذ الفلاحين من براثن المرابين ٠ واستحقه ثالثا : بزيادة التعريفة الجمركية على السكر الوارد من الخارج دون ان يفكر في زيادة ثمن القصب الذي تشتريه الشركة من الفلاحين ٠ واستحقه رابعا : ببيع ثلاثين الف فدان لشركة كوم امبو دون ان يفكر في وقاية ارض الفلاحين الفقراء من النشع الذي يصيبها ويضطرهم الى ترك ارضهم وخدمة الشركة بأبخس الاجور ٠ واستحقه خامسا : بارضاء الاتحاد البريطاني الذي يسره ويسر اضرابه ان يهبط سعر القطن الى عشرة ريالات ٠ واستحقه سادسا : بهذه الازمة التي جلبها على الفلاح وغير الفلاح ، فهبط سعر القطن على يديه جنيهين اثنين في كل قنطار ٠ ولا يمكن ان نعلل ذلك بالازمة العالمية لان القطن يزرع في بلاد اخرى غير مصر ولم يهبط ثمنه اخيرا في واحدة منها كما هبط في هذه البلاد٠ واستحقه سابعا : بالبيوع التي يباع فيها اردب القمح بنصف ثمنه واقل من نصف الثمن في بعض الاحيان كانما اسعار المحصولات في حاجة الى المزيد من عوامل النزول والكساد ٠

ويعلق العقاد بعد ذلك بقوله :

« بهذا وما شاكله من خدمة الشركات واهمال الفلاح استحق صاحب الدولة والكفاءات ، ان يلقب بأبي الفلاح وان يكسب في اقل من ثلاثة شهور ما كسبه الحكام الروس في اكثر من ثلاثة قرون فلم يبق الا ان نهنىء الفلاح ونبارك له بالاب الجديد الذي انجبه في العهد الاخير » ٠

وكما نرى يفضح العقاد هنا بصورة قوية واضحة موقف اسماعيل صدقي حيث يكشف عن حقائق المصالح الرأسمالية التي يمثلها صدقي والتي تتجه الى ضرب الطبقات الشعبية في مصالحها اليومية بعنف وقسوة ويكشف هذا المقال عن مدى ما كانت تتميز به كتابات العقاد السياسية في سنة ١٩٣٠ من وعي دقيق بحقيقة المؤامرات السياسية ضد الشعب فلم يكن يهاجم صدقي هجوما سياسيا فقط بل كان يعمل على فضحه في الميدان الحقيقي لمؤامراته ضد الشعب ٠٠ واقصد بهذا الميدن ميدان الاقتصاد ٠

ويبدو ان موقف العقاد من اسماعيل صدقي باشا كانت له خلفيات فليست هذه هي المرة الاولى التي فيها يهاجم العقاد صدقي صراحة ٠ فقد هاجمه عندما

اختير رئيسا لديوان المحاسبة بدرجة وزير وكشف نوايا رئيس الوزراء الذي اختاره وكان في ذلك الوقت محمد محمود باشا . كما كشف اسماعيل صدقي نفسه في مقال له حيث قال (١) .

« ما معنى تعيين اسماعيل صدقي باشا لهذا المنصب الذي جعله البرلمان وسيلة للاشراف على تنفيذ مقترحاته ورغباته ولم يجعله عبثا لارضاء شهوات المناصب واتقاء عداوات الخصوم . ما معنى اختيار اسماعيل صدقي لهذا المنصب في عهد وزارة يرأسها محمد محمود ؟ معناه الذي يجب ان يكون هو ان محمدا محمودا يقول لاسماعيل صدقي في العلانية : يا اسماعيل باشا انت رجل عفيف طاهر الذيل نقي السمعة معروف بالرغبة في الاعمال المالية التي تجرب فيها قدرتك وتشبع فيها ميولك وتكون فيها مثلا يقتدى به في النزاهة والاخلاص وصدق النية والاستقامة فها نحن نعطيك هذه الفرصة السعيدة لتجرب فيها من نزاهتك واماناتك ما هو مشهور ومعلوم ومعروف ومفهوم».

هذا معناه الذي يقوله محمد محمود في العلانية .. اما المعنى الذي لا يقوله فهو : انك يا صاح خطر علينا وانت بعيد عنا فتعال معنا الى الحظيرة لنخربها على رأسك اذا خطر لك ان تخربها على رؤوسنا في يوم من الايام..

ولماذا تخربها وتفكر في خرابها وها انت في هذا المنصب السري تفعل ما تشتهي وتبلغ ما تروم ، كذلك يقول محمد محمود في الجهر والخفاء وانه لقول جدير بوزارة الاخلاق وحري بالقوم الذين نقضوا دستور امة لانهم قوم مصلحون لا لانهم طلاب منفعة منهومون بتوزيع المناصب وتقسم اسلاب الوظائف .

ثم استطرد العقاد في ذلك المقال قائلا :

« اننا نقول مع محمد محمود كل ما يريد ان يقول في اسماعيل صدقي.. نقول انه رجل امين عفيف ورجل طاهر السمعة شريف ، ورجل قدير في تناول المسائل المالية خبير بتدبير الصفقات الاقتصادية . كل ذلك نقوله ونتادي به ونضيف اليه من عندنا سطرا آخر على سبيل العلاوة والتوكيد . وهو ان اسماعيل صدقي رجل لا يبالي بمصلحته في خدمة المصلحة العامة ولا يفعل الا ما هو جميل وكريم .

---

(١) البلاغ ١٤ – ٩ – ١٩٢٨ .

ذلك مقرر محقق لا ريب فيه ولا جدال ولا خلاف ولا مراء ولكن مقرر محقق لا ريب فيه ايضا ولا جدال ولا خلاف ولا مراء . ان اسماعيل صدقي مستشار لشركات الدخان .

وان اسماعيل صدقي رئيس او مدير لشركة احتكار الادوية .

وان اسماعيل صدقي مستشار لشركة السيارات المعروفة باسم شفروليه .

وان اسماعيل صدقي له علاقات مالية بكثير من الشركات والمشروعات الاقتصادية .

وان اسماعيل صدقي عضو في مجلس الادارة ببعض المصارف المشهورة.

فاسماعيل صدقي هذا ليس بالرجل الذي تسند اليه الرقابة على مصروفات الحكومة واعتماداتها ، لان صاحب هذا المنصب يجب ان يكون بمعزل عن جميع العلاقات المالية وان تطمئن الشركات جميعها اليه وتعتقد ان علاقاتها معه قائمة على اساس المساواة في كل شيء .

عملت حكومة محمد محمود كل ما في جهدها لتصرف الناس عن الدستور بحديثها عن الاصلاحات الداخلية كردم البرك والمستنقعات واصلاح شؤون الادارة والقضاء ومقاومة ما اسمته الفساد والمحسوبية . ولكن مقاومة الامة لم تضعف ولم تغرها تلك الاصلاحات التي زعمت الحكومة القيام بها .

حلمي عيسى باشا :

المعروف ان العقاد كان من اكثر الناس ايمانا بجهود ونضال سعد زغلول. وهذا ما يدركه قارئ صفحات كتاب سعد زغلول سيرة وتحية وكذا مواقفه ضد خصوم سعد زغلول والوفد المصري ولا عجب فالزعيم الخالد كان من اشد الناس ايمانا هو الاخر بفكر العقاد امرا جعله يختاره كما رأينا كاتبا للوفد ويصفه بما لم يوصف به كاتب من قبل .

من هنا ..من هذين الاعتبارين وغيرهما نجد انه من الصعب على العقاد وهو في هذا الوضع ان يصمت امام اي تهجم على الزعيم سعد زغلول . وقد حدث ان هاجم حلمي عيسى باشا سعدا ابان جولته في الريف المصري عندما كان وزيرا للداخلية عام ١٩٢٥ ظنا منه انه بذلك الهجوم يستطيع ان يصرف الناس عن حب سعد زغلول وايمانه به واشتد هذا الهجوم من وزير الداخلية

حلمي عيسى باشا في كفر الدفراوي وهنا نهض العقاد ليرد هذا الهجوم وليدفع هذه الافتراءات والاباطيل التي يريد ان يلصقها حلمي عيسى بسعد زغلول فكتب العقاد مقالا بعنوان حلمي عيسى على الربابة والمقال من عنوانه يشعرنا بسخرية العقاد من هذا الوزير المهاجم حيث قال (١) ارأيت لو ان الله تجلى على عبده صاحب المعالي احمد حلمي عيسى باشا وزير الداخلية او احمد عيسى بصل كما يعرفه ابناء قريته ارأيت لو ان الله القادر على كل شيء تجلى على هذا العبد بمقام النظر كما يقول اهل الطرق . فالهمه الصواب من امره واطلع على حقيقة قدره . فنظر فاذا هو هو الذي يعلم فيما يعلم طوية نفسه ودخيلة عقله ومبلغ كفاءته وغاية جهده . ثم اذا هو هو وزير من وزراء مصر يسمع عنه ما يقال وتشد اليه او يشد هو الرحال ارأيت لو ان الله تجلى على ذلك العبد بذلك المقام كيف كنت تراه صانعا لساعته او يتولاه الذهول المطبق فلا يفيق طوال حياته .

ماذا اوزير وفي معاني الادارة من يعقل خيرا مما يعقل ومن يتكلم خيرا مما يتكلم ومن يبدو للناس ارزن فكرا وارفع قدرا ، واكرم خلقا واوسع صدرا من هذا المسكين المغيظ المحنق الذي لا يقوم ولا يقعد ولا يصحو ولا ينام ولا يأكل ولا يشرب و لايصدر امرا ولا يلقي قولا الا بما كان من سعد وما يكون من سعد وما يقلقه من سعد ، وما يحشو جوفه المشعر من بغض سعد . أوزير وفي صغار العمال من لو طولب مثل ذلك العبد بالحملة على سعد لسمع الناس منه ما يسمع ولنقل الناس عنه ما يروى ولكان له في اثناء كلماته ما هو جدير بان يتفكه منه ان اعباءه ان يقول في الرجل العظيم ما يصدق عنه. اوزير وهذه ربابته التي يطوف بها في المدن والقرى هجوا في سعد وتطفلا على عظمته في موضع الربابة التي يطوف بها شعراء الريف مدحا في الاجواد وتطفلا على وجه البلاد .

لا والله — ان الرجل لمغرور واي غرور وانه لقمين ان يشكر الله على هذه الحالة التي لا تحمد في كبير ولا حقير فانه لولا ذلك الغرور لعلم حقيقة نفسه وانه لو علم حقيقة نفسه لصعق كما قلنا او لتولاه الذهول المطبق ما عاش .

---

(١) البلاغ ٢٨ — ٩ — ١٩٢٥ .

ويواصل العقاد قائلا :

كثيرا ما يتظاهر امامهم .. امام طلاب المدارس بانه رجل صريح لا يستطيع ان يشتغل في الخفاء.ولاجل ان يتعلموا كيف يجيبون هكذا على اقوال رجل كهذا ما عليهم الا ان يرجعوا للمقالات الاخيرة التي تشير اليها صحف سعد فيروا انهم ينسبون اليه مقالات كتبها في الجرائد باسماء مستعارة وليس هذا بعمل الرجل الصريح الشجاع .

وكان من نتائج ذلك انهم ارادوا ان يلصقوا به مقالا كتبه المرحوم الشيخ محمد عبده في سنة ١٨٨١ وقد قبل هذا الرجل الذي يدعي الصراحة المقال لنفسه ولم يستطع ان يخط حرفا بقلمه بانه ينفي انه كاتبه وانما ترك صحفه تقول ذلك على ان الامر هين اذا كان ما في هذا المقال منطبقا على مبادىء سعد . فلماذا لم يكتب مقالا غيره بمعناه بامضائه جهارا في صحفه الآن خصوصا وان افكاره طبعا نضجت عما كانت عليه ابان اشتغاله صغيرا كمحرر في الوقائع الرسمية .

آمنت بحكمة الحكيم صدق والله من قال ان كلام هذا الرجل كالمخاط الذي يعلق بالثوب تمسحه فتشمئز منه وتتركه فتشمئز منه وكان الله في عون اولئك البائسين الذين يلقي عليهم مخاطباته في كل مقام » .

ان سعدا غير صريح لان : من نتائج ذلك انهم ارادوا ان يلصقوا به مقالا كتبه المرحوم الشيخ محمد عبده ولانه لم يكتب اليوم مقالا جديدا بمعنى مقاله القديم الذي كتبه في الشورى والاستبداد ، وانه غير صريح لانه نشر في الصحف فصولا بامضاء مستعار .. لهذا تحرك حزب الاتحاد بوزارته وجباته وصيارفته وعمده ومشايخه الى قرية كفر الدفراوي ليسمعوا الناس هناك رأيهم في نشر فصول الكاتبين ثم اعادة نشرها بعد سنين ولهذا ترك وزير الداخلية ديوانه واعماله في عهد كثرت فيه الجرائم واختل النظام واستبيحت المحارم والحقوق ليهذر بمثل هذا الهراء السخيف . ولهذا يجب ان يكون الناس اتحاديين يرتجلون هذه المخاطبات ولا يكونوا وفديين يرجعون الى ما كتب من المقالات في غير هذه الاوقات .

ولولا ان الانسان يشمئز من ترك كلام هذا الرجل كما يشمئز من الرد عليه لسكتنا عنه مغمضين الطرف عن قذاه ، ولكننا نستخير الله ، ونقول له

ولمن ابتلاهم الله بسماع كلامه ان الكتابة بالامضاءات المستعارة انما تنافي الصراحة اذا كان صاحبها لم ينطق قبلها ولا بعدها بما هو مثلها في الصراحة او بما هو اصرح منها . اما اذا عرف الرجل طول حياته بانه الابي الجريء الذي يقول ما يعتقد ويسمع القوة ما يعلم انه الحق والخير ويقدم على الرأي والعمل ويعرف انهما مغضبان عليه اصحاب الحول والسلطان — فمثل هذا الرجل لا يكون في عرف الناس جميعا الا صريحا شجاعا على الرغم من انفك يا صاحب المعالي وزير هذه الايام » .

وختم العقاد مقاله هذا بقوله :

« فاحمل ربابتك يا صاحب المعالي وطف بها هاجيا او مادحا الى حيث ينتهي بك المطاف . ان لك لصفحة قد خلقت لهذه الربابة وان الناظر اليك ليرى عليك وجها واحدا ركب على وجهين اثنين تنظر كل عين فيهما الى حيث لا تنظر الاخرى وتحمل كل (وجنة) فيهما من اللحم المتهدل ما يكفي لسحنة كبيرة كذلك خلقك الله ذا وجهين متناكرين يهرب كل منهما من صاحبه .

ولا اعتراض لمؤمن على خلقة الله فاحمل ربابتك هذه وطف بها والعب عليها ، واشكر الله على الغرور الذ ييخفي عنك قدرك ويواري عن بصرك وبصيرتك حقيقة نفسك فانما هو على الناس نقمة وعليك انت وعلى امثالك نعمة ورحمة .. »

عبد العزيز فهمي باشا :

عبدالعزيز فهمي احد مؤسسي حزب الاحرار الدستوريين وواحد من اقطابه وعمده .. وقع فيما وقع فيه حلمي باشا عيسى . حيث تهجم بالقول على الزعيم الخالد سعد زغلول . وشاع عنه ما شاع من الادعاءات والاباطيل والافتراءات والاكاذيب — في رأي العقاد — مما جعل العقاد يرد عليه بعدة مقالات مفندا ما جاء به من اقوال لا يجوز ان تقال في حق سعد زغلول ومن هذه المقالات .. مقال كتبه العقاد على صفحات البلاغ وينقله عامر العقاد (١)

(١) العقاد معاركه في السياسة والادب ص ٩٢ — عامر العقاد .

يقول فيه : « ان كــان في مصر رجل واحــد يحق عليه قبل ان يحق على غيره ان يشكــر للرئيس الجليل شكــرا جزيــلا وان يثني عليه ثناء جميــلا وان يتمنى له على طــول الامد بقاء طويــلا فذاك الرجل الوحيــد هو الــرئيس المسلوب وعساك ان تسأل من هــو هذا الرئيس المسلوب فاعلم وقــاك الله السوء ان هذا الرئيس المسلوب هو ذاك الذي تصدقوا عليه بالرئاسة لانهم لم يتفقوا على الرئيس ولــم يجدوا احدا غيره يسد سد الفــراغ وينــوب عــن القرعة وتهون على النفس منافسته ، ويظهــر للناس اختياره بمظهــر المواساة وجبر الخواطر ، لا بمظهر الطاعــة والتعظيم او الايثار والتقديم • فلـــو ان ثروة قبل ان يساويها في الوزارة فلاح صعيدي كمحمد محمود باشا يقـــال له صاحب الدولة ويستكثرون عليه صاحب عزة ولو ان محمد محمود قبل ان تضيع عليه امواله وآماله ويتقدم عليه من هــو اولــى بالرئاســة منه ولو انهم الهموا ان يداروا محمــد محمود بوسيلة غير هذه الوسيلة او يهونوا فقـــد الرياســة على الوكيل المتطلع اليهــا بغير هذا التمويه ولو ان منهم رجلا ينظر الى رئيسهم اليــوم نظرة الاحياء الذيــن ينافسون وينافسون او يقابل تميزهم عنــد الناس بشيء غير السخريــة والابتسام لو ان ذلــك كان او يكون • لمـا سمحت نفوسهم للرئيس المسلوب بهــذه الرياســة التــي يضحكــون بهــا ويضحكــون بهــا من حوله •• ولكنه رئيس الحيرة الذي يحل محل الخلــو ، وينوب مناب البطاقــة المؤذيــة بالفراغ يدلل بالالقاب كمــا يدلل الاطفـــال الصغار فأنت تعلم الآن ان ذلك الرئيس المسلوب هو المسكين عبدالعزيز فهمي رئيس الطغام الذيــن يصلحون لرعايته ويصلح لسماجتهم او هو رئيس الاحرار الدستوريين •

اما انه احق الناس بأن يثني على الرئيس الجليل وان يتمنى لــه البقــاء الطويل فقــد تعرفه اذا عرفتُ ان هذا المسكين ، مديــن بحياته كلها لسعد ، وانه لولا سعد لقضى نحبه منذ سنين او لقر في فراشه قرار السجين ولسنا نريد ان نذكــر لــك فضل سعد عليه اذ نــوه بذكره ورفع من مكانه وصرف الانظار عــن حماقته وسخفه فــان هذا فضل لسعــد على كثيريــن غير عبدالعزيـــز واضراب عبدالعزيز • وانمــا نريــد ان نذكــر لــك ان هذا الطيف المتردد على حوافي الحيــاة لــم يستبق الذمــاء على نفسه منذ سنين الا بقوة ما فيهــا

من البغض المتأجج والحقد الشديد على سعد زغلول وانه ان كانت فيه بقية تتحرك ، وتنطق وتقول وتعمل فتلك البقية انما هي من تلك النار المتوقدة التي تشعلها في جوانحه النقمة على سعد زغلول . فهو عتيق سعد وطليقه وهو حي عائش ما عاش سعد في هذه الدنيا محبوسا وموهوبا متمتعا بالحب من الامة والبغض من عبدالعزيز واضراب عبدالعزيز . ولولا بغض سعد لما برح المسكين فراشه يوم الجمعة الماضية ليشهد الناس حماقة من حماقاته التي لا عديد لها وانه لأولى بالستر واحوج الى الراحة والسكون .. »

ثم كتب العقاد مقالا آخر بالبلاغ تحت عنوان « الرئيس المسلوب يخطب مثل من كفاءة القشور » بدأه بقوله :

كان في انجلترا في القرن الثامن عشر منجم ثرثار ينشر التقاويم في كل عام ويتنبأ فيها لقوم بالموت وللآخرين بالعمر الطويل ويرفع ويضع ويعز ويذل ولا تكاد تهم نبوءة من نبوءاته بالتحقق حتى يملأ الدنيا صخبا ولجاجة . ويأخذ الناس قسرا بتصديق معجزاته والايمان بنبوءاته . فغاظ ذلك منه الكاتب الانجليزي الكبير « جوناثان سويفت » وآلى على نفسه ليصرفن الآفة بآفة ويفلن الحديد بحديد مثله . فنشر تقويما خاصا تنبأ فيه بموت المنجم وذكر اليوم والساعة . واذاع الخبر في انجلترا حتى ريع المنجم وخاف على تجارته وعلى حياته وجهد في تكذيب النبوءة وتخطئتها واتهام سويفت بالجهل والادعاء في هذه الصناعة حتى كان اليوم الموعود والساعة الموقوتة . فطار الرجل فرحا بنجاته من شر هذه النبوءة وانفذ الى الصحف بيانا يسب فيه سويفت سبا مقذعا ويقول فيه : انه على قيد الحياة وان الكاتب قد كذب كذبا متعمدا فيما ادعاه وانتظر الناس ماذا يقول سويفت في نبوءته التي لم تتم فما لبثوا حتى جاءهم في اليوم التالي بمقال جديد يؤيد فيه صحة حسابه ويؤكد فيه ان الرجل قد مات في اليوم والساعة على الرغم من دعواه ويطالبه باقامة البرهان على انه من الاحياء الموجودين في هذه الدنيا .

ويظهر ان القصة تعيد نفسها في ايامنا هذه مع منجم من المنجمين الذين يكذبون على الماضي والحاضر والمستقبل في شارع المبتديان. فان رئيس هؤلاء

الطغام رئيس الصدفة والحيرة عبد العزيز فهمي قد شاء منذ اسبوع ان يتنبأ بنبوءة كاذبة عن الماضي ونبوءة اخرى كاذبة عن المستقبل فقلنا ان الرجل ضعيف النفس والجسم . وانه مسلوب العقل والارادة . وانه على الجملة معذور. بعض العذر فيما يفتري من الاباطيل . فأبى الرجل الا ان ينكر الحقيقة وكابر في البديهيات وغالب نفسه الى الخطابة . ليقول للناس انه لا يزال بقيد الحياة. وان في صدره من الانفاس المترددة ما يكفي لقول كلمة او كلمتين في معهد زغلول .. ولكنه قال الكلمة او الكلمتين في يوم الجمعة الماضي فماذا قال ؟ الناس فيما بدأ وفيما اعاد انهم قد انقسموا الى فريقين .. فمنهم من خرج من شارع المبتديان وهو يقول : ليس في الدنيا انسان يفوه بمثل هذا الكلام ومنهم من خرج وهو يقول : لا يفوه بهذا الكلام عاقل .. فالاولون قد انكروا عليه العقل ولو اردنا لاخذنا بطريقة سويفت في التدليل وطالبنا الخطيب الكاذب باثبات وجوده في هذه الدنيا .. ولكننا لا نريد لاننا لا تنفس عليه الحياة بل تتمنى له ان يحيا حياة طيبة ونرجو له الشفاء والصحة .

الدكتور احمد ماهر باشا :

عندما اتهم العقاد كلا من النحاس باشا ومكرم عبيد باشا بالبيانات الدامغة انهما قاما بتبديد بعض الاموال الخاصة بالحزب في اوجه غير ما يهم الحزب نفسه . تصدى الدكتور احمد ماهر احد اقطاب الوفد ورئيس حزب السعديين بعد ذلك للدفاع عن الاثنين بوصفه وفديا سابقا . مؤكدا ان الاموال التي صرفها كل من النحاس ومكرم كانت من اموالهما الخاصة ..

وهنا انبرى العقاد مهاجما احمد ماهر صديقه القديم من أيام الدراسة باسوان الابتدائية .. في صحيفة روز اليوسف بتاريخ ١٩٣٥/١٠/٩ في مقال جاء فيه :

يا دكتور ماهر ..

انني رجل اعني ما اقول واعرف الصدق كما يعرفه الناس في كل حرف مما اقول . اما انت يا دكتور ماهر فكاذب منافق : كاذب حين تفتري على الابرياء الذين لا تعرفهم ولا يعرفونك وتسمح لصديقك الدجال ان يعزو اليك ذلك

الافتراء وتنشره في صحيفتك بغير حياء .

ومنافق حين تقول في صحيفتك غير ما تقول لصحبك ، وحين تنافق القراء يوم تضطرك حملتنا نحن الى وصف التبليغ بالحماية ثم تنافق الوزارة في اليوم التالي فتؤيد تلك الوزارة التي رضيت بتلك الحماية .

انت منافق حين تقول ان السكوت عن ضياع الدستور جريمة . وحين تعود الى تحبيذ هذه الجريمة .

انت منافق حين تنتظر الدستور في اسبوع وحين تقول موعدنا الخريف. ثم تقول ان المسألة اليوم مسألة استقلال لا مسالة دستور .

انت كاذب ومنافق حين تفتري على الابرياء وحين تنفي ما ذكرناه عن المرتبات والاجور والهدايا والمهور وهذه الارقام ناطقة لا تأذن بالنفي والادعاء.

والآن : هل لك ان تقول لنا من اين تقبض المائة الجنيه التي تفرضها على صحيفة كاسدة لا تبيع فوق الالفين على اكبر تقدير ؟

وهل لك ان تقول لنا : علام تقبض هذه المرتبات وانت كما يعلم الصحفيون جميعا لا تكتب ما يظهر بامضائك ولا كتابة لك فيه غير الامضاء .

وهل لك ان تقول لنا لماذا سكت يومين في اول هذا الشهر بعد صدور القرار الوفدي ثم عدت الى الكتابة بالحماسة الوطنية اللازمة حسب الظروف .

وهل لك ان تقول لنا : لماذا يعين لك قلم المطبوعات موظفا خاصا لا يذهب الى ديوانه ولا عمل له الا ان يكتب لك ما تمضيه من مقالات ؟

أتراه يعينه لك لتحمل على الوزارة وتنادي بالحق فيما تعلمه وتتحدث به الى الناس .

ام تراه يعينه لك ليكتب لك ما يكتبه الموظفون بامضاء اشباه الموظفين واذا قلت لنا عن هذا ما يستوي فيه قولك وسكوتك فهل لك ان تذكر لنا : كم لجنة من اللجان الحكومية تعمل فيها ؟

وهل لك ان تحدثنا عن المجلس الاقتصادي وشركة الملاحة . وهل لك ان تحدثنا عن بنك التسليف والبنك العقاري الموعود وغير ذلك من الوعود ؟ احسبك قائلا : انني لو كنت ممن يتأثرون بهذه الامور لتأثرت بها في عهد الوزارة الصدقية او ما شابهها من الوزارات .

لا يا شاطر .. لا يا ماهر .. الوزارة الصدقية لو ايدتها تأييدا علنيا

غير التأييد الخفي الصامت لوجب ان تبخع حياتك السياسية بيديك بعد يوم واحد من ذلك التأييد اما هذه الوزارة الصديقة الانيقة الرقيقة فانت يا صاح تقيض ان تؤيدها علانية ثم تستطيع بعد تأييدها ان تظل من ابطال الوفديين الغيورين وتصبح اذا عارضناها اننا مارقون خائنون .. مأجورون .

أليس كذلك ..؟ بلى كذلك يا ايها العائشون على سمعة بالية لم يبق منها الا خيال سمعة كانت يوم كان كل مصري يعمل مثل ما عملتم وفوق ما عملتم ولم ييأس الا القليل كما يئستم ولا ضعف كما ضعفتم .

والعجيب في امر الدكتور ماهر هذا . انه يستوي على كرسي المعلم ليؤنبنا على خروجنا من الوفد في الوقت الذي اصبح الوفد فيه اضعف من اضعف الاحزاب في امر السودان والدستور والاستقلال والسياسة الكرومرية وحق الاتصال وحرية الآراء . يؤنبنا على خروجنا وقد استقال من الوفد لا بشيء الا لان توفيق دياب شتمه وهو عضو في الهيئة التأسيسية . ولم يرجع عن استقالته الا بعد ارغام توفيق دياب على الخروج من تلك الهيئة ، مع ان ماهر قابل الشتم بالضرب ، واعلن ذلك في الصحف ، وسكت دياب عن هذه الاهانة صاغرا ووجب ان يكون لصاحبنا في ذلك رضى او غنى عن الاستقالة او عن الخيانة . كما يسميها . اذا كان البقاء في الوفد واجبا مقدسا فلماذا ابحت لنفسك ان تتركه لهذه التفاهة وحرمت على العقاد ان يخالف الوفد من اجل حقوق البلاد ؟..

حسن نشأت باشا :

اتخذ العقاد موقفا حادا وعنيفا من رئيس الديوان الملكي حسن نشأت باشا ورئيس حزب وكثيرا ما حملت صفحات الجرائد ترجمة لهذا الموقف الحاد من العقاد فقد عرف عن حسن نشأت الكثير من التصرفات التي كانت تسيء الى بعض الساسة المصريين عند الملك بوصفه الشخص المقرب للملك الى ان تم عزله من منصبه في الرأي فكتب العقاد مقالا بعنوان « خاتمة دساس » جاء فيه :

« على ان هذا الدساس لم يعزل من منصبه لان الامة كلها كانت تنكر دسائسه وتصيح من سوء عمله ، ولم يعزل منه لانه استطاع ان يفسد الدستور

ويوبىء الاخلاق ويوقع الفوضى والارتباك في دواويــن الحكومة ولم يعزل منه لانه جنى على قضيــة البلاد شر جنايــة واساء الى العرش اخبث اساءة • ولم يعزل منه لانه اختلق حزبــا من الوهم وجمع له المال من السحت الحــرام ولم يعزل منه لانه اتخذ سفارات الدولة وسيطات فــي التجسس والمكيـــدة وفيما هــو شر من التجسس والمكيدة • لا انــه لم يعزل من منصبه الذي ظــل فيــه بضعــة عشر شهرا لشيء من هذه الاشياء التي يكفي اقلهــا لعزل نظام كامل من الموظفين لا لعزل موظف واحد • بل في وسعنــا ان نقول ان هـــذه المنكرات ربما كانت هي الشفاعــة التي انقذته من الطرد الشنيع واستحق بها ان يأخذ من خزانــة الامة مالا بغير عمل • ولم ذاك لانه استخف بالامــة وحارب دستورها وافسد اخلاقها واحبط آمالها ••لانه جنى على الامة ينقدونه مــن مالهــا اجرا بغير وظيفــة ويسترون خروجه من منصبه بهــذه الحيلة فهــو لم يعزل ارضاء للامة وتلبيــة لندائها » •

ثم استطــرد العقاد قائلا في نفس المقال :

« ومن عبر الايام انك قل ان تلقى اليوم احدا يتكلم في عزل نشأت باشا الا وهو يصفه بالطيش والسفه ووخامة الرأي وقصور التفكير وبين هؤلاء من كــان قبل اليوم ينكــر عليه كــل شيء الا الذكاء والدهاء وبراعة الحيلـــة وحسن الاحتياط وما تغير في الرجل الا انه كــان بالامس ناجحــا فاصبح اليوم غير ناجح ، وكان بالامس يأمر وينهى فاصبح اليوم مأمورا منهيــا لا يغدو ولا يروح الا برقيب • وكان بالامس جاسوسا فاصبح اليوم غرض الجواسيس • فما الذي تغير من مواهبه وصفاته وآرائه وسيئاته ؟ لا شيء ، ولكن اكثر الناس لا يعرفــون صوابا غير صواب النجــاح ولا خطأ غير خطأ الفشل ولا يقــدرون المواهب والصفات الا بمــا يكــون من ضوضائهــا لا بمــا يكون من معدنها واقدارهــا وقد يكــون نشــأت باشا ذكيــا بارعــا كما يصفه بعض الذيــن عاشروه وخبروه ولكنــه بلا ريب لا يوصف بكبر العقل ولا بسمــو النظر ولا يمتاز عــن طبقــة اصحاب الذكاء الرخيص الذيــن تراهم يجوسون بين الناس بالسعايــة ويكسبون ارزاقهم من الوسطاء وتسهيل اسباب المسرة ولا نحسب احدا لم ير عشرات من امثاله في القرى والعواصم يدخلون على الناس بمختلف الوسائل ويكسبون الثقــة عند الاغرار والاغبياء ويسرون قلوب عارفيهم بالملق

والدهـاء وينالون من وراء بغيتهـم من الغنيمة والحظوة ، والا فأي كبر عقل واي سعـة حيلة في هذا الحذق الذي تصدى بـه ذلـك المفتون لاغضاب امة واللعـب بعداوة زعمائها واقطابها »

ثم ختم مقالـه قائـلا :

« وايم الله لو كـان هـذا المقال اول مـا نكتب عن (نشأت باشا) لمـا كتبناه وهـو في مصرع اليأس معزول مخذول لا نصر له ولا قوة بين يديه ولكنا كتبنا عن هذا المفتون وهو في ابان سلطانه واوج طغيانه • كتبنـا عنه ايام لـم يكـن قلم في مصر يجرؤ على الهمس باسمه او التلميح الى عمل من اعمالـه كتبنا عنه يوم ان كـان هو يحسب ان كلمة وعد منه او وعيـد تلقي بـأعز عزيز عند قدميه وتمرغ ارفع جبين في تراب نعليه • فلا نلام اليوم اذا اعتبرنـا بمصيره وسجلنـا خاتمة الدسيسة عليه وعلى اضرابه ولا يقـال اننـا نشمت بضعيف منبوذا اذا حمدنا الله على هذه الخاتمـة ورجونا منها خيـرا للبـلاد وتبصيرا للمبصريـن » •

مصطفى كامل باشا :

ليس صحيحـا ان موقف العقاد من الزعيم مصطفى كامل بدأ منذ ان كان بمدرسة اسوان ودخل عليه مصطفى كامل الفصل ومعه كاتبتان فرنسية مدام جولييت آدم وانجليزية مسز يونج وجلس مكـان التلميذ الـذي كان يكتب على اللوح •• واملى عليه بيتا من الشعر لابي العلاء ليعربه ويشرحه وتلعـثم التلميذ فـي شرح معناه • ولم يجب بطائل فاسعفه العقاد معتـذرا له بالشرح ويبدو ان شرح العقاد لـم يسترح لـه الزعيم مصطفى كامـل ولم يتقبل منه الاشارة الى خطئه في اختيار هذا البيت بالذات •

هذه الحادثة وقعت وكان العقاد في سن الخامسة عشرة ويقرر هو (١) بانها لم يكـن لها دخل في مواقفه من هـذا الزعيم بـل هناك اسباب اخرى جعلت العقـاد يتخذ موقفه من مصطفى كامل ومن الحزب الوطني ككل •• فعلـى

(١) راجع ــ كتاب رجال عرفتهم ــ العقـاد •

الرغم من انه كان يعمل محررا في الدستور الناطقة بلسان الحزب الوطنـي ، الا انـه لم ينضم في صفوف الحزب لنفس الاسباب التي اشار اليها .

وأولى هذه الاسباب اختلاف الطبيعـة بين الاثنين ففي الوقت الذي كان فيه مصطفى كامل من اصحـاب الطبيعـة الخطابية الشعورية . كانت الطبيعـة لدى العقاد ادبية فكرية . انه يقول في ذلك في كتابه رجال عرفتـهم : كنـت اقرأ مصطفى كامل واسمع خطبه فاحمد له غيرته واعجب بصدقـه في جهاده، ولكنني اراني امام منهج من الكتابة والقول غير المنهج الذي اتلقى منه رسالـة الفكر والعاطفة ، وتستجيب اليه بديهتي المتطلعة الى الوعـي والمعرفة ، فـان ذلـك الاسلوب الخطابي الشعوري الذي كـان لـه ابلـغ الاثر في جمهور مصطفى كامل لم يكـن هـو ذلـك الاسلوب المختار الذي عهدته فيما اطلعت عليه من كلام مقروء او كـلام مسموع .

ولعل اشهـر الامثلة للاسلوب الخطابي الشعوري الذي كان ذربعـة التأثير الكبرى في خطب مصطفى كامل قوله في خطبـة « زيزينيا الكبرى » وهي اقوى خطبه وآخرهـا قبل وفاته اذ يقول (بلادي .. بلادي .. لك حبي وفؤادي لك حياتي ووجودي لك دمي ونفسي لك عقلي ولساني لك لبي وحناني فأنت انت الحيـاة ولا حياة الا بـك يا مصر ..) فـان هذا الاطناب وما شابهه لا يعطيني ما اتطلبـه مـن الاقنـاع ، ولا مـن العبارة الادبيـة عن العواطف وانمـا هـو اشبه بدقات التغير تتكرر على وتيرة واحـدة لتحتفظ باعصاب السامعين في طبقـة مشدودة من الانفعال والتنبه سواء كـان هذا الانفعـال للوطنيـة او لغيرهـا مـن العقائد الشعوريـة .

وسبب آخـر جعل العقـاد لا يعجب كثيرا بالزعيم مصطفى كامل هـو ان مصطفى كامل كـان يعلق الاستقلال المصري بالسيادة العثمانيـة . حتى انـه كـان يمزج كثيرا بين المصرية والعثمانية حتى في احاديثه الخاصـة كمـا قال في جوابه لسؤال الجنرال « بارنج » شقيق كرومر : هل أنت مصري او عثماني ؟ فكـان جواب مصطفى كامل : مصري عثماني وعجب الجنرال بارنج فعاد يسأله وكيف تجتمـع الجنسيتـان فقال مصطفى كامل ليس في الامر جنسيتان بـل في الحقيقـة جنسية واحدة . لان مصر بلد تابع للدولـة العليـة والتابـع لا يختلف عـن المتبوع في شيء من احكامه .

كذلك كان العقاد لا يرضى عن مهاجمة مصطفى كامل للزعيم احمد عرابي فـي مناسبات كثيرة •

كذلك كان لا يرضى عن نزعته الاروستقراطيـة ولا يرضـى ان تتصدى صحيفـة اللواء لسان حال الحزب الوطني لزعماء الاصلاح من امثال قاسم امين ومحمد عبده وسعد زغلول ولطفي السيد وغيرهم •

كذلك ان دعوة مصطفى كامل الى الوطنيـة هي دعوة تغلب عليها العاطفة الرومانسية والعقاد منذ البدايـة عقل متفتح يميل الـى الايمـان العقلـي والبرهان العلمي • ولذلك لـم يستجب العقـاد لدعوة مصطفى كامل ولـم يتجـاوب معهـا •

وان اسلوبه في القضيـة الوطنية لم يكـن يعجب العقاد • فقد كانت ثورة مصطفى كامل تنحصر في الثورة على الاحتلال ولا تنظر الى تبديل شيء مـن النظم السياسيـة او الاجتماعية • فلم يكن في نزعات نفسه ولو قبس ضعيف من الثورة على المساوىء الخديوية • ولم يختلف في كثير ولا قليل عـن إبنـاء عصره في تعظيم الالقاب الرسميـة واعتبارهـا انعامـات مشرفـة لمن يتلقاها • بل كـان على صلـة بالقصر الخديوي في التوسـط بين طلابهـا وبين الامير لتوزيعهـا على مـن يتطلع اليهـا • لقد بلـغ ايمانه بهذه الالقاب انه لم يصدر اللواء يـوم جاءه خبر الانعام عليه بالباشويـة من دار الخلافة الا بعـد تغيير (الكليشه) الذي كـان اسمه فيه متبوعا بلقب الباشوية •

لكـن موقف العقاد من الزعيم مصطفى كامل نستطيع ان نستشعره كاملا مما كتبه في البلاغ بتاريـخ ١٩٢٨/٢/٢١ « فمـا نقوله في مصطفى كامل هو رأينا نحن لا رأي غيرنا • وهو رأي لنا قديم يرجـع الى مـا قبـل عشريـن سنة • ولذلك لم نكتب كلمة في رثائه مع اننـا كنـا نعمل في صحيفة الدستور التي كانت تدين في مجمل سياستها بمبادىء الحزب الوطني » ••

ويقول في نفس المقال : قلنـا ان مصطفى كامـل كـان يطلب السيادة العثمانيـة في برنامجه الوطنـي • فقالـوا انمـا طلب ذلـك لان الدولـة العثمانيـة ضعيفـة فـلا ضير علينـا من سيادتهـا كأننـا يجب ان نقبـل سيادة اليونـان مثلا بـل يجب ان نطلبهـا في البرامج الوطنية لمجرد ان اليونان ضعفاء والانجليز اقويـاء •• والواقع ان مصطفى كامل انما كان يطلب السيادة

العثمانية ويتغنى بهـا لانه كـان مأجورهـا وكان يخدمهـا في مقابل تلـك الاجرة بمـا لا يقبله رجل يفهم الحريـة ويعمل عمل الاحرار . فلبث زمانا يدافع عـن سياسـة المذابح والشهوات التي كـان يجري عليهـا عبدالحميد ويشيد بذكره في كل مكـان ويؤيده . حتى في القضايا الدمويـة مثل قضية المطبعـة العثمانيـة التي اوشك ان يترتب على ضبط اوراقهـا تعريض حياة الالوف من احرار الترك للموت المحقق في قبضة الرجعيين . ولما هب الترك يطلبون الدستور كان اللواء يكتب ان هؤلاء يسبحـون في الخيـال ويعرضون حياة الدولـة للاخطـار فلمـا اعلن السلطـان الدستور في اليـوم التالي .. انقلب اللـواء يهتف للدستور ويصوغ قلائـد المدائح لاولئك الاحرار السابحين في الخيال .

وقد كـان مصطفى كامل مولعـا بالظهور حتى طمح الى التزوج مـن احدى الاميرات فردته بالكلمة المشهورة (انني لا اتزوج شحاذا برد نجوت)

ولما مات كـان يحمل لقب الباشويـة من عبدالحميد . وقضي عليـه من الديـون ما يقارب الثلاثين الفا . أنفقهـا في فنادق باريس التي كان يروقه ان يظهـر فيهـا بابهـة الامراء . وما ينهض مستقلا كمـا ينهض الابطال والزعماء، ويخاطب العقـاد اعضاء الحزب الوطني في مقاله هذا قائـلا : فـان كانت هذه هي التضحية التي لا تضحيـة مثلهـا فهل تقولون لنـا ما الوصوليـة ومـا الغنيمـة ومـا الذي يبلغـه مصطفى كامل لو لـم يعدل عـن حياة التوظف ولـم يسخره الخديوي في ذلـك الغرض المعلوم ؟ ..

احمـد زيوار باشا :

موقف العقاد من احمـد زيوار باشا كان متوقعـا .. وهذا الموقف كـان لا بـد ان يكـون حادا وعنيفـا . فكيف يهـادن كاتب الوفـد الاول وزارة قامت على اكتاف وزارة الوفد ؟ كيف يهادن هذا الكاتب وزارة تفتـح للرجعيـة السياسيـة سبيلا في مصر ؟ كيف يهادن العقاد وزارة قامت لتعطيل الحياة النيابية في مصر ؟ كيف يهادن هذا الكاتب وزارة تقـوم بانقـلاب ضد دستور ١٩٢٣ ؟ كيف يهادن العقاد وزارة تتعقب شبـاب الوفـد وتقـوم باعتقالهـم ؟

فمنذ ان تولى احمـد زيوار باشا رئاسة الوزراء خلفـا للزعيم سعـد

زغلول باشا في ٢٤ نوفمبر عام ١٩٢٤ والاحوال في مصر تسير من سيء الى اسوأ .

لقد قامت هذه الوزارة بالغاء البرلمان المنتخب ، لان اغلبيته كانت وفدية. وقامت باجراء انتخابات جديدة ولكنها جاءت باغلبية وفدية ايضا واصبح متوقعا ان هذه الوزارة ما قامت الا لمعاداة القوى الشعبية والجماهير وحقوقها ، ومهادنة القوى الرجعية على رأسها الملك واحزاب الاقليات الى جانب مهادنتها للانجليز وبوجه عام معاد للحرية والحركة الوطنية الديمقراطية .

من هنا يصبح موقف العقاد من هذه الوزارة غير مستغرب والحق ان هجوم العقاد علي رئيس الوزراء احمد زيوار باشا اتخذ في هذه المرة هجوما عليه في صورة غير مباشرة حيث انصب على سياسة وزارته بوجه عام وليس على شخصه .

لقد منع زيوار باشا النواب من الاجتماع في مجلسهم كما ينص الدستور في السبت الثالث من شهر نوفمبر . وحال بينهم وبين مبنى البرلمان بقوات من الجيش والشرطة ظنا منه انه اذا فعل ذلك فلن يجتمع النواب ، ولكن خاب ظنه حين اجتمعوا في مكان آخر هو الكونتنتال وانتخبوا سعد زغلول رئيسا للمجلس واصدروا بيانا سجلوا فيه ان وزارة زيوار منعتهم من هذا الاجتماع في مبنى البرلمان . وقد كتب العقاد مقالا عنيفا في جريدة البلاغ في ١٩٢٤/١١/٢١ بدأه متهكما ساخرا على هذه القوات التي اصطفت شاكة السلاح لمنع النواب من الدخول الى مبناهم الى ان يصل في مقاله : في هذا القرن العشرين لن تدين الامم لسلطة الافراد ولن تحكم باسم القوة والاستبداد . في هذا القرن العشرين لن تورث الامة كما تورث الماشية الذلول لمن يحمل العصا وراءها ويدعي السيادة عليها ، في هذا القرن العشرين لن تستطيع وزارة ان تقوم بغير دستور او ان تشهر الحرب على وطن ينكر عليها دعواها ويعرف لنفسه حقه ويتفق على ان يكون سلطانه هو الغالب ولو حالت دونه المصاعب والعراقيل ، في هذا القرن العشرين يعلم الدساسون طوعا او كرها والاذلاء وسماسرة السوء ان قد بطل الايمان بذلك الحكم المطلق الذي آمنت به الشعوب في قديم العصور.

وانه لن يبقى على الارض حكم قد بطل الايمان به وانفضت القلوب من حوله . فمن لم يعقل ذلك منهم طوعا فسيعقله وانفه راغم ويده مغلولة الى عنقه وجبينه منكس في الخيبة والهوان .

ان هذا اليوم لفاتحة النضال الناطق الفعال بين الامة والوزارة الثائرة على الدستور الخارجة على حكم الاجماع . وانه ليوم مكسوب من ايام هذا البلد التي حفل بها وطاب الانباء والذكريات ولئن لم ينته باجتماع النواب في دارهم المعلومة ليكونن ذلك اقرب مما تحسب الوزارة او يحسب لها الذين يديرون امرها في الخفاء وليكونن في يوم لن تجد الوزارة فيه بين يديها عدة تشهرها على احد او تحتمي بها من حق . وليكونن في يوم يخرج فيه جبابرة اليوم مجرمين منبوذين لا يدفعون العدل عن انفسهم ولا هم يرحمون . وماذا تعد الوزارة من انتصارها في يوم سجلت فيه على نفسها انها منعت سبيل النواب عنوة وسجل فيه النواب عليها انها عصابة غاصبة لا تلوذ بحجة ولا تأخذ بقانون ؟ ماذا تعد من انتصارها في يوم اتفقت عليها كلمة المختلفين وقال مجلس النواب لها كلمته من حيث تسمعها الدنيا باجمعها ويرون صداها في كل قرية من قرى مصر وكل نفس من نفوس المصريين . أيخيل الى الوزارة في غرورها الاحمق وطغيانها المأفون . ان السبت الثالث هو يومها الذي فازت به على فوهات البنادق وأسلات الحراب ؟ أيخيل اليها في عمايتها البلهاء وضلالتها الهوجاء انها قادرة بعد هذا السبت على ان تحكم هذا البلد بجند غير جند القانون وسلاح غير سلاح الدستور ؟ أيخيل اليها انها منتصرة وحدها وان الشعب كله من حولها متصدع مهزوم ؟

اما والله لو شاء هذا الشعب ان ينفذ كلمة الحق قسرا لما اعياه ذلك ولا انتهى هذا اليوم الا بما يريد ، ولكنه يحذر العواقب في بلد يحتله الغاصب وتشتبك فيه مصالح الاجانب ، ويعلم ان عصابة الثائرين على الدستور تستغل منه ذلك العلم ما وسعها ان تستغله . وتلتمس النجاة به ما استطاعت ان تلتمسه . فهي تعرض عن صوت ذلك الاجماع الذي يواجهها به نواب البلاد . ويؤيدهم عليه كل ذي رأي في مصر وكل فرد من افرادها لا مأرب له في دوام هذه الحال . ولكن الوزارة خليقة ان تعلم

الآن ــ ان لم تكن قد علمت بعد ــ انها قد تهم عن كراسيها على الكرة منها ولم تسفك في مصر قطرة دم ، ولم تنتهك فيها حرمة قانون وان حرص الشعب على مصالحه قد يعلمه تدبير الغلبة بغير العنف كما علمه من قبل ان يدير السلامة باجتناب التورط فيه »

الى ان يختم مقاله قائلا : ان السبت الثالث من هذا الشهر • لم ينقض ونحن نكتب هذه السطور • وان مجلسا ليجتمع فيه حيث امكنه الاجتماع وان حيل بينه وبين مكانه المعلوم وان الحوادث في هذا اليوم لتجري على قدر لا يعلم به الا علاّم الغيوب ولكن قبل ان ينقضي بياضه بل قبل ان يكتب عنوانه نعده من ايام مصر المذكورة ونسجل فيه نصرا عزيزا للدستور على دولة الظلم الزائلة ، وخطوة جديدة للزمن السائر الى الامام، يخطو بها على رؤوس الراجعين به الى الوراء ، وفاتحة للنضال يختمها الشعب بيديه كما اراد هو لا كما يريد المستخفون به والثائرون عليه •

ولم يدع العقاد تلك الفرصة تمر دون ان يكتب فيها محملا الوزارة وزر ذلك التصرف • وانحى على غباء رئيسها ومن معه فكتب في البلاغ مقالا كان عنوانه (الهام الامة شطط الوزارة •• دروس يوم السبت ٢١ نوفمبر) قال فيه :

خرجت أعنة التدبير من ايدي الوزارة وانتثر عليها الامر فلا سبيل بعد اليوم الى جمعه في يديها • ولا حيلة لها في هذه الازمة التي اثارتها بسوء عملها غير ان تعترف بالواقع الذي لا ينكسر وتستقيل من مناصب مغصوبة لا يريدها فيها ابناء البلاد • لقد دلت هذه الوزارة في يوم السبت الماضي على حمق مخجل وقصور نظر معيب • وعرضت نفسها للسخرية والاستضعاف من حيث ارادت ان تظهر القوة والحزم وتطلع على الناس بالرهبة والجبروت • فقد اعلنت في يوم الاربعاء الماضي بلاغها الذي قالت فيه انها « تنبه بان كل اجتماع للبرلمان يعقد في غير المكان المعين له يكون هو ايضا غير مشروع وتعلن انها قررت ان تمنع بالقوة كل اجتماع داخل البرلمان او في اي مكان آخر » وبينما هي تحشد كل قواها حول دار البرلمان وتجمع كل عدتها والتفاتها في طريق تلك الدار وتظن ان النواب والشيوخ لا يجتمعون في ذلك اليوم الا اذا وصلوا الى

دار النيابة التي حصرتها بالجند والشرط ورابطت حولها بالعيون والارصاد ، اذا بالنواب والشيوخ يعقدون في فندق الكونتيننتال جلستهم التاريخية ويصفعون الوزارة بقرار عدم الثقة ويباشرون عملهم كأن ليس في مصر وزارة الى ان يقول : « فاثبتوا بذلك سخف الوزارة وغباوتها حتى في الدفاع عن نفسها .. »

جورج لويد :

لا غرابة في ان نجعل المندوب السامي البريطاني في مصر اللورد جورج لويد واحدا من الشخصيات السياسية التي كان للعقاد منها موقف حاد . وانعدام الغرابة لسببين :

اولهما : ان هذا المندوب او من يحتل مركزه في مصر كان من الشخصيات البارزة في تحريك السياسة المصرية .. لقد كان المندوب السامي في مصر اكثر اهمية حتى من رئيس وزرائها .

ثانيهما : ان للعقاد موقفا حادا من جورج لويد ولعل تسجيلنا لهذا الموقف يعد مثلا لبقية مواقف العقاد من الشخصيات السياسية البريطانية والاحتلال الانجليزي بوجه عام .

وموقف العقاد من اللورد جورج لويد . كان بسبب زيارته لمدينة المنيا ، فقد استفزته هذه الزيارة التي هيأت لها الادارة في المنيا استقبالا عظيما كاستقبال اصحاب العروش . وهنا حمل العقاد على اللورد الانجليزي وعلى المحتفلين به .. حملة شعواء .

وحتى حين تصدى البعض (١) للدفاع عن زيارة اللورد جورج لويد . واعتبارها امرا عاديا كان رد العقاد اعنف من الاول . الامر الذي جعل السلطات البريطانية تحتج وترى ان وراء حملة العقاد سعد زغلول فتواجهه بذلك فيرد بعبارته المشهورة قائلا : « انها تهمة لا ادفعها او شرف لا ادعيه » ومن بين هذه المقالات التي كتبها العقاد مهاجما تلك الزيارة وصاحبها كانت هذه المقالة وعنوانها « استجواب وسؤال » (٢) التي

---

(١) راجع جريدة المقطم ١٤ - ٥ - ١٩٢٧ .
(٢) البلاغ ١١ - ٥ - ١٩٢٧ .

بدأها بالقول : مهما يكن في زيارة المندوب البريطاني للمنيا فالامر الذي لا نزاع فيه ولا يصح ان يكون فيه نزاع هو ان هذه الزيارة يجب الا تتكرر في اقليم اخر ٠والا نسمع مرة اخرى ان المندوب البريطاني يقف بين المصريين موقف الحاكم بين رعاياه ليحدثهم عن اهتمام حكومته برفاهيتهم وسعادتهم ويعدهم الوعود ويشجعهم على مخاطبته والرجوع اليه ٠ فان البلاد لم تثر ثورتها على الحماية البريطانية ولم تفقد زهرة شبابها وحبة أموالها وتعبر على مضانك الجهاد اربعين عاما لتسكت بعد كل ذلك عن مظاهر فضولية لا معنى لها الا اننا لا نزال في ظل الحماية وان رفاهيتنا ومصالحنا لا تزال في كفالة الحكومة البريطانية ٠ وقد كنا نفهم ان يزور المندوب البريطاني المنيا او غير المنيا بصفته الشخصية لا ان يزورها بصفته الرسمية ٠ ولكن لا تحشد له الوفود ولا يسمع منه ذلك الكلام الذي تجاوز فيه حكومة البلاد الى مخاطبة رعاياها في شؤون لا يجوز لغير تلك الحكومة ان تتولاها ٠ بل كنا نفهم بشيء من الجهد ان يتجاوز الحكومة ذلك التجاوز ويداري افتئاته عليها بكلام يفيد الاعتراف لها بالاستقلال والمجاملة لها بما تطلبه من المطالب وتسعى اليه من الحقوق ٠ ولكن زيارة مندوب اجنبي لاقليم من اقاليم مصر المستقلة ٠ لا لشيء الا ليقول هناك كلاما يغفل فيه حكومة البلاد ويدعي لنفسه ولحكومته حقوقا تنافي معاني الاستقلال امر غير مفهوم من ذلك المندوب الاجنبي ، وغير مفهوم من الحكومة المصرية ان تسكت عليه ، وان تدع الباب مفتوحا لتكراره والتوسع فيه ، اذ من يعلم الى اين تمتد هذه الزيارات والمظاهرات ٠ اذا تكررت غدا في الاقاليم الاخرى وخرجنا شيئا فشيئا من الوعود المجملة الى التفاصيل ومن التفقد الى قبول المطالب والشكاوى ، والاقتراحات واتخاذ الحقوق لتبليغها الى حكومة البلاد ٠٠ ان الحكومة البريطانية عرفت كيف توجه نظر حكومتنا توجيها جديا الى احكام صدرت من المحاكم المصرية ، وكيف تعلن ذلك على الملأ مع ما فيه من التشهير باخلاق المصريين وقضاة المصريين افلا تعرف حكومتنا كيف توجه نظر المندوب البريطاني توجيها جديا الى ان رفاهية الفلاحين شيء لا يعنيه وان حكومة بريطانيا العظمى لا تعرف ولا ينبغي ان تعرف افراد الشعب المصري بغير واسطة الحكومة الوطنية؟ واذا كانت حكومتنا لا تعرف كيف تصنع هذا فأي مانع يمنع المندوب الاجنبي ان يدعي ما يشاء ويفعل ما يشاء ، ولا يزال يتقدم خطوة بعد

خطوة في انكار الحكومة الوطنية وبسط الحماية الفعلية على البـلاد ، ولماذا يقف عند حد في هذه المظاهرات او يحسب للحقوق الوطنية اقل حساب .

ان الاستجواب الذي قدمه احد حضرات النواب في هذا الصدد قد جاء في أوانه . ونرى ان الاجابة عليه فرصة لابداء الملاحظات التـي يحسن ان تبدأ في هذا الموضوع . ولكن الذي نستغربه ان يجيء الاستجواب من غير نـواب المنيا وهم اولى من سواهم بالاعتراض على المسبة التـي الحقها بعض النـاس باقليمهم البريء فاننا في عهد الدستور والنيابة الرسمية فاذا ظهر من النـواب المنياويين انهم ينكرون زيارة المندوب البريطاني لاقليمهم بتلك الصفة فليـس لاحد ان يزعم ان اقليم المنيا دعا المندوب البريطاني الى تلك الزيارة او يدعـي انه يمثل الاقليم في تلك الدعوة .

وقد توالت كتابات العقاد حول هذا الموضوع منددا بهذه الزيارة والزائر نفسه اللورد جورج لويد .

احمد نجيب الهلالي باشا :

في هجومه على العقاد ذكر مكرم عبيد ان السبب المباشر في ازمة العقاد مع الوفد وخروجه عليه كان سببا شخصيا هو ان وزير المعارف احمـد نجيب الهلالي في وزارة توفيق نسيم باشا التي هاجمها قد نقل صديقين من اصدقـاء العقاد من القاهرة الى الصعيد . وهذان الصديقان ذكرهما فتحي رضوان فـي كتابه عصر ورجال بانهما : «محمد طاهر الجبلاوي» و«عبد الرحمن صدقي» وقد حول العقاد كما ذكر مكرم عبيد هذا الموقف الشخصي الى موقف سياسي عام وقد ذكر مكرم هذه القصة قائلا : ان العقاد اشترط لايقاف الحملة ضـد وزير المعارف ــ الهلالي باشا ــ ان ينقل صديق له من وظيفته الكتابية بقنا الى وزارة المعارف بمصر وان يعود صديق له في اسيوط ــ وهو كاتب اخر الـى مقر الوزارة بمصر .

ويواصل مكرم عبيد سرد روايته : وفي ذات يوم زارني فـي الفندق بالاسكندرية حضرات الاساتذة محمد صبري ابو علم والشيخ عباس الجمـل وابراهيم عبد الهادي وحضر بعدهم مصادفة الاستاذ احمد ماهر وتكلمنا معـا في وجوب ايقاف حملة العقاد على نجيب الهلالي والوزارة النسيمية التي اصر

عليها حضرته تحديا لامر دولة الرئيس الجليل النحاس باشا فاقترح حضراتهم علي وعلى صديقي احمد ماهر ان نعد العقاد بالتوسط لدى وزير المعارف في نقل هذين الموظفين الى مصر على ان يقف العقاد حملته فرضينا بهذا الحل وقام احد الزملاء فعلا وتكلم مع العقاد تليفونيا من غرفتي بالاسكندرية فهاج العقاد وماج واشترط لوقف الحملة شروطا ثلاثة :

اولا : ان يتكلم مكرم فورا مع وزير المعارف لنقل الموظفين الاثنين الى مصر وكان صديقي ماهر قد اخبرني انه علم ان احدهما فاسد الخلق والادب .

ثانيا : ان يتم نقلهما من اسيوط وقنا الى مصر في ظرف ثلاثة اسابيع لا اكثر .

ثالثا : اذا لم يتم النقل في الميعاد المحدد او تأخر عنه قليلا عادت الحملة على الوزير باشد مما كانت .

هكذا يروي مكرم عبيد ان سبب خروج العقاد من الوفد كان في الاصل سببا شخصيا وقد ذكرنا عند الحديث عن سبب خروج العقاد على الوفد كان اكبر من ذلك واعم وليس لمجرد عدم الوفاء بنقل صديقين له .

واذا اضيف الى ذلك .. الى ان السبب كان سياسيا اكثر منه شخصيا. سبب آخر يختص بوزير المعارف احمد نجيب الهلالي . اصبح موقف العقاد من الوفد بصفة عامة ومن الوزارة النسيمية ووزيرها الهلالي له ما يبرره .

فالعقاد كان لا يعجبه ان يتظاهر نجيب الهلالي بعد ان تولى وزارة المعارف في الوزارة النسيمية بانه وفدي مع ان تاريخه القديم يؤكد انه كان من خصوم الوفد وسبب هذا التحول المفاجيء انه احس بتعاطف الوفد لاسباب في نفسه مع هذه الوزارة . وان المستقبل القريب سيكون للوفد بعد ان تستقيل الوزارة ومن هنا بدأ الهلالي يتقرب للوفديين ثم لم يلبث ان اصبح صديقا لهم والاكثر كانت نتيجة هذا التحول ان اصبح مرتقبا لـه ان يرأس الوزارة بعد توفيق نسيم اذا لم يتولها صديقه في الوفد ومن هنا من هذا التحول المفاجيء كان موقف العقاد من الهلالي وليس لمجرد عدم نقل صديقين له وقد كتب العقاد في ذلك عدة مقالات على صفحات روز اليوسف منها قوله : كان وجود نجيب الهلالي بك في الوزارة دليلا عندنا على ان الدستور لن يعود الى مصر قبل سنتين الا اذا حدث ما يبدل النيات غير النيات .

ولسنا نعني تاريخ صاحبنا في ماضيه واعماله المعهـودة ايـام الوزارات الرخيصة . ولكننا نعني ان مجرد قبوله الوزارة دليل علىّ علمه يبقاء الوزارة او بقائه هو في المركز الوزاري سنتين على اقل تقدير لا سيما وهو متصل ببعض الانجليز في دار المندوب السامي البريطاني . فهذا الموظف كان في منصب دائم مضمون هو منصب المستشار الملكي وهذا الموظف لم يبلغ سن المعاش . ولـم تمض عليه في خدمة الحكومة مدة كافية للوصول الى معاش يرضيه فلمـاذا يجازف بخدمته كلها ليعتزل العمل بضعة شهور ؟

أهو ممن يعولون على زعامة الحياة القومية او الحياة الحزبية سواء بـل هو على نقيض رجال المجازفات .

ويقول في مقال آخر : والان يحلم صاحب العزة الهلالي برئاسة الوزارة المقبلة او بوزارة مقبلة غير بعيدة . وصاحب العزة الوزير الحصيف يعلـم ان من يطمع في رئاسة الوزارة لا غنى له عن رضى الانجليز . فاذا سار الوزيـر الحصيف سيرته في تعيين الموظفين الانجليز وتثبيت الموظفين الانجليـز ومحاباة الموظفين الانجليز وتعميم الصبغة الانجليزية على الطريقة الدنلوبية في الجامعة والمدارس العالية والمدارس الثانوية فلماذا لا يكون رئيسـا للوزارة المقبلـة او الوزارة الاخرى ..

عبد الخالق ثروت باشا :

لا شك أن الحدة التي نستشعرها في موقف العقاد من عبدالخالق ثـروت احد رؤساء الوزراء في السنوات التي اعقبت ثورة ١٩١٩ واحد نجوم حـزب الاحرار الدستوريين .. ترجع اساسا الى موقف العقـاد من حـزب الاحرار الدستوريين .. كاحد الاحزاب المنافسة لحزب الوفد ..

فكما رأينا ان العقاد كان يرفض هذا الحزب شكلا ومضمونا فهو بالتالي يرفض سياسته ورجاله الذين كانوا يمثلون جماعة الاقطاع ورأس المال في القطر المصري او بعبارة اخرى كانوا يمثلون طبقة الاعيان في الشعب المصري .

وبديهي ان يكون للعقاد موقف من عبدالخالق ثروت لاسباب كثيرة .

اولها : موقفه من الحزب ..

وثانيها : ان عبد الخالق ثروت تولى رئاسة الوزارة فـي فترة مـن اشد

فترات تاريخ مصر حسما وحساسية وهي السنوات التي اعقبت ثورة ١٩١٩ او بالتحديد في ٣ ابريل عام ١٩٢٢ .

ثالثها : ان وضع العقاد ككاتب في حزب يرأسه سعد زغلول الذي كان خصما ومنافسا لعدلي يكن ، وجماعة الاحرار الدستوريين .. هذا الوضع يحتم عليه ان يتخذ موقفا على الاقل حذرا من كل الاجراءات التي يقوم بها عبد الخالق ثروت .

رابعها : ان في عهد وزارة عبدالخالق ثروت تشكلت لجنة الثلاثين لصياغة دستور سنة ١٩٢٣ وبالطبع كانت كل الانظار متجهة الى اجراءات وقرارات هذه اللجنة التي تحدد مستقبل الامة ودستورها .

وعلى الرغم من ان التاريخ يشهد لعبد الخالق ثروت بموقفه حين استقال بعد ان رفع مشروع الدستور الى الملك فؤاد ليقوم باعلانه على الامة فماطل وسوف حيث رأى الدستور يحد من سلطته المطلقة . التاريخ يذكر موقف عبد الخالق ثروت حيث اصر على المضي في اصدار الدستور بالشكل الذي وضعته لجنة الثلاثين مما جعل الملك فؤاد يكيد لوزارته وليجد التكأة للاطاحة بها ونجح بالفعل في حمل عبد الخالق ثروت على الاستقالة ليحل محله في ٥ ديسمبر ١٩٢٢ توفيق نسيم الذي اعد العدة لمسح مشروع الدستور بحذف العبارات التي تحد من سلطة الملك على ما رأينا عند الحديث عن موقف العقاد من نسيم باشا في الصفحات السابقة .

على الرغم من كل ذلك .. الا ان العقاد كان له موقف من عبد الخالق ثروت ينبع من الاسباب السابقة الى جانب ـ وهذا هو المهم ـ تصور العقاد بأن عبد الخالق ثروت شكل لجنة لا تمثل الامة او ارادتها في وضع دستورها حيث يقول في العدد الاول من صحيفة البلاغ في مقال بعنوان « الدستور بين يدي الوزارة» في ١٩٢٣/١/٢٨ : « كان اهم ما ظهر عندنا خلال الاسبوعين الماضيين اشاعة تعديل الدستور وما قيل عن عزم الوزارة على زيادة عدد الاعضاء المعينين في مجلس الشيوخ الى نصف عدد الاعضاء او تقرير الزيادة فعلا كما يؤكد الكثيرون ويعززه سكوت الوزارة حتى الان عن التكذيب الرسمي القاطع واذا صحت هذه الاشاعة فقد تمت الكارثة التي بدأها ثروت باشا وخرج الدستور خروج الابد من يد الامة وتقسم هذا العمل الممقوت شر تقسيم بين

الوزارتين المتعاقبتين فالوزارة الثروتيـة حرمت الامة حـق وضع دستورهـا بارادتها ◦ والوزارة النسيمية اتمت البقية ◦◦ فحرمتها حق تعديله وحصرت هذا الحق في يـد الحكومة دون سواهـا » ◦◦

واستطرد العقاد في مقاله هذا منددا بما فعله عبد الخالق ثروت وما اتمه احمد نسيم قائلا : « فهل هذا ما كان يعنيه دولة رئيس الوزراء حين قال علـى اثر توليه ان الامة لم تصل الى الطور الذي تكتب فيه البرامج السياسية ؟ وهل تحقق ما حذره الذين فهموا من هذه العبارة ان وزارة نسيم باشـا لا تعتـرف بكفاءة الامة الدستورية وانها تأبى عليها حق الدستور الذي جاد عليها به ثروت باشا واعوانه الرجعيون ؟؟

لقد كان الدستور الناقص المشوه اساس سيئات الوزارة الثروتية كلهـا فانه لولا رغبة تلك الوزارة في تقييد حرية الامة لما عدلت عن عقد الجمعيـة التأسيسية الى تأليف لجنتها الحزبية التي كانت تأتمر بامرها وتتلقى الوحي منها◦ لولا حرصها على خلو البرلمان من الاعضاء المعارضين للسياسة التي ترمي اليها باحتكارها سن الدستور ◦ لما نفت من نفت ولا استعانت بالسلطة العسكرية على السجن والاعتقال ومصادرة الحرية ◦ ولولا ميلها الشديد الى تمهيد الطريـق لتنفيذ ارادتها هي في القضية المصرية دون ارادة البلاد ، لما عمدت الى المراوغة والاستكثار من الانصار والصنائع ، ونشر الدعوة على حساب الخزانة العامة، وأمسى ذلك كله : وضع الدستور وتأليف البرلمان على هوى الوزارة لا على هوى الامة ◦ وما بلغ الحنق على الوزارة الثروتية ذلك الحد الذي جاوز طاقة الامـة لان ضررا كبيرا او صغيرا نال بعض الافراد او لان ضيقا نزل بجماعـة مـن الجماعات ، او بالامة على بكرة ابيها فان رجالنا ليصبرون على الاذى في سبيل مبادئهم ◦ والامة جديرة ان تعالج الضيق من اجل حريتها وبلوغ امالها ◦ ولكن بلغ الحنق هذا المبلغ واشتد واذن بالمصائب الجسام لسبب واحد هو ان الوزارة الثروتية كانت في جميع تلك الاعمال تتحدى ارادة الامة وتستخف بغضبهـا ورضاها ◦ وكأنما تقول لها في كل عمل تعمله على الكره منها : انني اصنـع ما بدا لي فان قبلت فلا شكران لك على القبول◦ وان ابيت فشأنك وما تريدين ؟

هذا الذي احفظ صدر الامة اكثر من كل شيء سواه وملأ قلبها غيظـا على ثروت باشا وسياسته وانصاره فالان ماذا يصنع نسيم باشا حين يعـدل

الدستور ذلك التعديل الرجعي الذي لا يقبله انسان يغار على كرامة البلاد ..

انه ليتحدى الامة تحديا يزيد وقعه في النفس ويضاعف سخط الامة عليه. انه جاء بعد سقوط ثروت وبعد الرجاء في تبدل الحال واصلاح المساوىء واحترام حرية البلاد . فاذا لقيت الامة بدل الزيادة في الحقوق نقصا وبدل احترام الحرية امتهانا لها واجتراء عليها ، فما اشد ما تؤذيها الصدمة وما ابلغ ما تنال منها وتؤلمها هذه المفاجأة المخيبة لآمالها .

فقد كان المفروض ان وزارة ثروت سقطت لانها غير امينة على حقوق الشعب وحريته . وكان المأمون على هذا الفرض ان تكون خليفتها احرص منها على تلك الحقوق واصون لتلك الحرية . وليس من الحرص على الحقوق ولا من الصيانة للحرية ان تسلبنا الوزارة الجديدة ما تكرم به علينا ثروت باشا واذنابه . فبقي ان نعرف في مصلحة من من الناس سقطت وزارة ثروت وجاءت هذه الوزارة في مكانها ؟ وبقي ان نعرف لماذا تهوي حكومة وتقوم اخرى ليخسر الشعب لا ليربح وليتأخر الدستور لا ليتقدم ولنضع في ايدينا القيود لا لنفك منها قيودها التي كانت مكبلة بها ؟

اننا لنسأل : من اجل اي شيء حدث هذا التغيير الذي اقام البلاد واقعدها تسعة اشهر ، أمن اجل الانجليز؟ كلا لا تستطيع الوزارة ان تزعم ذلك ، ولا ان تعذر بهذا العذر لان الانجليز لم يتعرضوا لغير مسألتي السودان والمبعدين والمعتقلين كما هو الثابت المتواتر على جميع الالسنة .

ثم نصح العقاد الوزارة بقوله :

« اننا نبصر الوزارة بمصلحتها هي ان كان لا يجدي تذكيرها لمصلحة البلاد . فانها لا تجهل كيف كانت الوزارة الثروتية تبذل الوسع لحياطة مركزها وصوغ الدستور بحيث يبعد عن كراسي الحكم كل من يخشى الثروتيون مزاحمته . حتى لقد بلغ الحمق ببعضهم ان يقترع تحريم الوزارة على من تناط به الوصاية او القوامة على دائرة من الدوائر .

وهكذا سيحدث للوزارة الحاضرة اذا هي نظرت يومها ولم تبعد النظر الى غدها . فلا تنس وزارتنا ان ما تتوسل به لمنفعتها قد ينفع خصومها حين يخلفونها ولا بد ان يخلفوها في يوم من الايام .. »

ثم ختم مقاله هذا بقوله :

« سلمنا بان الانتخابات في عهد نسيم غير الانتخابات في عهد ثروت وانّ المجلس الذي تشرف على انتخابه الوزارة الحاضرة سيكون اقرب الى تمثيل البلاد . سلمنا بهذا ولكن ماذا عساهم يريدون بعد هذا التسليم منا اترى وزارتنا تريد ان تتقاضى البلاد ثمنا على قيامها بواجبها لانها لا تخالف المفروض عليها في اداء وظيفتها ، اتراها تريد ان يكون هذا الثمن معجلا من حقوقنا ومبادىء دستورنا ؟

كلا ان هذا لا يكون وان الضرر فيه لعائد على الذين يرجون منه النفع قبل ان يعود على الامة لو انهم يتدبرون » .

بل ان العقاد يرى ان عبد الخالق ثروت كان سببا في طمع الانجليز فينا، وفي السودان حيث اهمل صراحة التأكيد على ذكر السودان في الدستور المصري . حيث كتب مقالا عنوانه : « ماذا تصنع الوزارة المصرية اذا أصر الانجليز على حذف السودان من الدستور المصري» ..جاء فيه : « يظهر لنا ان الوزارة نسيت ونسي معها غير قليل من الناس ما كان يجب ان يذكر في الدستور المصري عن السودان فقد كان لا يليق بكرامتنا ولا بمصلحتنا ان يذكر الا عند بيان حدود مصر الكبرى ليكون ذلك نصا قاضيا بسريان احكام الدستور في مصر والسودان وحضور ممثلي القطرين معا في مجلس النواب ، وهذا هو الواجب الذي كان يعد التمسك بادائه محافظة على حقوق مصر وانصافا لها وتيقظا لمصلحتها واستقلالها .

ولكن لجنة الدستور اهملته شيئا فشيئا في ذكر السودان حتى اكتفت بتلك المادة المبهمة التي لا تسلب الانجليز حقا يدعونه في ذلك القطر .. حتى الشركة المعاصبة التي لا يقرهم عليها قانون ولا عرف وما جرت علينا طمع الانجليز فينا الا جناية ثروت باشا ومطاوعة لجنة الدستور له » .

بل ان العقاد يتهم عبدالخالق ثروت بالتواطؤ مع الاحتلال البريطاني . حيث يقول في مقال نشر في صحيفة البلاغ في ١٩٢٣/٢/٢١ فعدلي كثروت في كل ما يسألان عنه من التوطئة للسياسة الاستعمارية واذا كان بين الثلاثة من يظلمه الناس بتهمة الدهاء وسعة الحيلة فهو ثروت لان هذا الرجل على ما نرى اضعف الجماعة حيلة واقلهم دهاء ولو كان على شيء من المقدرة التي

يصفونه بها ، لما سار على الخطة التي سار عليها في معاملة الشعب وغير الشعب من ذوي الشأن في مصر . ولقد قال انه لو ماتت المعارضة لخلقها .. وهو صادق فيما قال .. فانه قد خلق المعارضة واحياها بمجهوداته من حيث لا يدري. والخلاصة ان وزراء الحماية قد يختلفون في بعض الاوصاف ولكنهم كلهم على كراسي الوزارة سواء .. وهكذا نرى ان موقف العقاد من ثروت نابع ولا شك من موقفه من الاحرار الدستوريين وزعيمهم عدلي يكن ، ومن الاسلوب الذي اتبعه ثروت باشا في تشكيل لجنة صياغة دستور عام ١٩٢٣.

أحمد عبود باشا :

على الرغم من ان العقاد هاجم الشيوعية ودعاتها في اكثر من كتاب ، ولم يعترف حتى بكارل ماركس ، وقال فيه ما قال مالك في الخمر . على الرغم من ذلك فقد كان له موقف لا يقل حدة بالنسبة للاقطاع ورأس المال ومن يمثلونه .

انه يرى ان لا مستقبل للاقطاع وانه اصبح يلفظ انفاسه الاخيرة في بلد بعد بلد من بلاد الحضارة .. منبها الى ان البلاد التي تقدمت فيها الصناعات الكبرى يموت الاقطاع بالشيخوخة . ومن بقي من اصحابه فانما يبقى منقسم السلطان متهدم الاركان يشاركه في سلطانه التاجر الكبير كما يشاركه الصانع الكبير وتشاركه نقابات العمال كما يشاركه قادة الرأي العام من الساسة ودعاة الاصلاح .

اما في البلاد التي تخلفت فيها الصناعات فيرى العقاد ان لا انستقرار للاقطاع بين اهلها ولا قدرة له على التماسك والثبات في وجه القوى التي تنوشه من جميع جهاته وتعمل على التعجيل بذهابه وقد تقوضت اركانه في بلاد زراعية لم تتقدم فيها الصناعة الكبرى وتقوضت اركانه في بلاد يتوسط فيها الامر بين الزراعة والصناعة . ولم يكن الفضل في رجوعه بعد ذهابه لقوة فيه او مقاومة فعالة بين اجزائه . وانما كانت علة رجوعه حماقة اعدائه وجهلهم بالسلاح الذي يرد به كما تبين ذلك مرتين من تجربة المجر بعد الحرب العالمية الاولى ، وتجربة اسبانيا قبل الحرب العالمية الثانية .

وموقف العقاد من رأس المال لا يقل عن موقفه هذا .. وله حملات

صحفية على رأس المال .. فيها ينذد بهؤلاء الذين يملكون ولا يدفعون .. يملكون المال ولا يدفعون الضرائب وغيرها من حقوق على هذا المال.. وفي مقدمة هؤلاء الاقطاعيين الرأسماليين المليونير - في ذلك الوقت - احمد عبود باشا ذلك الرجل الذي يملك شركات وابعاديات واموالا في البنوك وفي غير البنوك .. وفوق هذا وذاك يملك بسلطان المال امكانية التأثير في الحياة السياسية .. فكان يستطيع اسقاط وزارة والعمل على تأليف وزارة كل هذا بنفوذ ماله واعوانه والاكثر علاقاته بامثاله من الاقطاعيين والرأسماليين فلم يكن بعيدا عن الاذهان صلاته بالانجليز وتبادل المنافع الاقتصادية بينه وبين الاسرة المالكة وتعاونه . وهذا امر طبيعي مع الاقطاعيين والرأسماليين ليكونوا جبهة واحدة مهمتها ان تمص دماء الشعب وافراده .

وبديهي اذا كانت هذه هي قوة احمد عبود وتأثيره ان يستحيل وقوف الافراد في وجهه .. فمصيرهم السحق والفناء . والقصص والحكايات كثيرة على ما كان يحدث داخل شركات السكر في الصعيد وغيرها من الشركات والمنشآت المنتشرة في طول البلاد وعرضها . والتي كان هذا الاقطاعي الرأسمالي اما مالكا لها او صاحب نصيب الاسد في اسهمها . فمن كان يستطيع ان يقف في وجه هذا الرجل ؟

لقد اتخذ العقاد من هذا الرجل وثروته ونفوذه وسلطانه وتأثيره موقفا ، حين شن عليه حملة صحفية بجريدة الاساس في ١٧/١٠/١٩٤٩ اي قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو باقل من ثلاث سنوات .. فيها ندد بالاقطاع وهاجم رأس المال ولم يعترف بأي حال من الاحوال بمن يملكون المال ولا يدفعون الضرائب وكانه بذلك الهجوم والاخر المماثل حيث كان يهاجم الحزبية في صورة النحاس زعيم الوفد في ذلك الوقت كان يرهص لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. ويقدم لها .. حيث كانت احوال البلاد تتطلبها فيقول عن احمد عبود في صحيفة الاساس:

« لقد وصل نفوذ عبود وشركائه الى الطغيان الذي لا يطول البنكوت عليه. ولولا ذلك لما خطر له ان يستكثر على البلد الذي يكسب منه الملايين ان يسدد له حصته من الضريبة وهي ما يؤديه له من حقوق. »

ففي الوقت الذي تلجأ فيه الحكومة الى الاصلاح الضرائبي لتحقيق بعض العدل بين الضرائب والارباح ، في هذا الوقت يطمع عبود وشركاؤه في

السيطرة على سياسة مصر دون ان يكلف نفسه حصته من الضرائب التي لا يعفى منها الفقراء واصحاب الدخول المحدودة . وتمضي السنة بعد السنة ويصدر الحكم بعد الحكم وهو مصر على احتجاز حقوق الدولة لديه حتى تتراكم وتبلغ الملايين وان الدولة مع هذا لتوشك ان تهم بالاقتراض لاحتياجها شيئا من هذه الملايين .

وما الذي يسوغ له هذا الطمع وهذه الاستهانة ؟ سكوت الصحف؟ سكوت السياسة ؟ سكوت الاحزاب ؟ وتأييد اصحاب الاموال في البلاد الخارجية ؟ .. »

وتستمر حملات العقاد ضد احمد عبود حتى بعد محاولاته استمالته كما سنرى فيكتب في صحيفة الاساس في ١٩٥٠/١٠/١٧ فيقول عبارات نارية منها : صاحب ملايين ــ يقصد احمد عبود . يجمع الثروة باليمين واليسار، ومن المشروع وغير المشروع ، وتعفيه الوزارة من الرقابة ومن المطالبة بالضريبة فهل يسأل هذا وامثاله عن تأييدالوزارة الحاضرة او خذلانها لاي سبب من الاسباب ..

وازاء هذه الهجمات والحملات من العقاد حاول احمد عبود ارضاءه عدة مرات اولها انه حاول ان يستميله اليه ــ كما يذكر عامر العقاد في كتابه : العقاد معاركه في السياسة والادب ، فارسل اليه رسولا يعرض عليه وقف حملته الصحفية نظير بضعة الاف من الجنيهات يقوم احمد عبود بايداعها لذمته في بنك مصر دون ان يعلم احد . ولكن « خير لعبود ان يدفع ضريبة الامة .. من ان يخطر بباله انه يمكنه شراء قلم العقاد » .

ولما لم تنفع هذه المحاولة قام احمد عبود بمحاولة مختلفة تماما .. خاصة بعد ان استمر العقاد في حملته الضارية ضد عبود وامواله .. لقد دبر هذا الرأسمالي محاولة للاعتداء على العقاد ــ كما يذكر عامر العقاد ــ خلال عودته من اسوان في شتاء عام ١٩٥٠ .. حيث اقتحم القطار بعض عمال شركة السكر التابعين لعبود . عند وقوفه بمحطة كوم امبو وحاولوا الاعتداء عليه لولا تدخل بعض الاهالي الذين كانوا يعرفون العقاد واستنجادهم بالبوليس الذي اوقف هذه المحاولة قبل ان تتم .

ولم توقف هذه المحاولة او غيرها العقاد عن حملته ولم تثنه عن عزمه ..

حتى اجبر الحكومة في ذلك الوقت واحرجها امام الرأي العام بان تطالب احمد عبود بما عليه من حقوق ضريبية حيث اجبرته على تسديد اموال طائلــة وفــاء للضرائب المستحقة عليه والتي كان يماطل في سدادها .

وهكذا كان موقف العقاد دائما من الاقطاع ورأس المال لم يتعاون معهما طيلة حياته سواء في الحياة الحزبية او في غيرها .

الرئيس جمال عبد الناصر :

لم يكن مستغربا موقف التأييد لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقادتها منذ اللحظة الاولى من العقاد، ولم يكن مستغربا نفس هذا الموقف عن جمال عبد الناصر، او احداث الثورة .. بعد قراءتنا لمواقفه الخالدة ضد الاحتــلال الانجليــزي والرجعية والاقطاع .

وهذه جميعا من الاسباب التي دعت رجال الجيش للقيــــام بثــورتهم المباركة .. تلك التي جاءت كالربيع تبشر بحرية امة اضناها صقيع الاستعباد ليخرج ابناؤها كمــا ولدتهم امهاتهم احرارا .

ولم يكن مستغربا هذا الموقف المؤيد ـــ في وضوح ـــ للثورة ورجالها ومنجزاتها من العقاد فهو لم يكن من وزراء العهــد البائد ممن استطاعوا بمــا لديهم من جاه وسلطان ان يحققوا اغراضهم تلك التي يخاف عليها من قيــام مثل هذه الثورة ، ولم يكن من باشوات ما قبل الثورة ممن حققوا بهذا اللقب الذي كان يباع ويشترى المزيد من المكاسب والارباح تلك التي يخشى عليها من الثورة ولم يكن حتى موظفا كبيرا درت عليه وظيفتــه مــالا وفيرا بطرق اقلها مشروع واكثرها غير مشروع ويخاف من الثورة ان تحاسبه وتطبق عليه واحدا من قوانين لعله « من اين لك هذا » وانما الرجل اكتفى مــن الوظيفــة بشهورها الاولى بعدها ابتقال وقال كلمته المشهورة : « الاستخدام هــو رق القرن العشرين » وظل هكذا بلا وظيفة واكتفى بأن يعيش من فكره .

ولم يكن واحدا من كبار الاقطاعيين الذين ارتعدوا من سماعهم لقيــام مثل هذه الثورة ذات المبادىء الموجهة لاسترداد الحقوق الى اصحابهــا .. والاعتراف بانسانية الانسان على ارضه وبأنه هو نفسه سيد مستقبله ومصيره لا احد يستطيع ان يتحكم في هذا المصير او المستقبل .

ولم يكن من رجال رأس المال الذين يغطون وجه الحياة الإقتصادية بمالهم ويخشى الخطر على هذه الاموال المبعثرة في الداخل او الخارج .

يضاف الى كل ذلك موقفه هو ككاتب حر له رأيه الحر .. ذلك الرأي الذي برز في الكثير من الاحداث الوطنية كما رأينا وفي مقدمتها رأيه في ثورة ١٩١٩ حيث لم يكتف بمجرد التأييد وانما كان ايضا واحدا من صناعها . الم يكن هو كاتب منشوراتها ، والم يكن هو كاتبها امام الجماهير ، والم يكن هو واحدا من المدافعين عنها ؟ .

لهذا ولغيره من اسباب لا يستغرب المتابع لمواقف العقاد ان يكون مؤيدا لهذه الثورة ورجالها وقائدها جمال عبد الناصر .

بل على العكس كان من المألوف ان يبارك العقاد وهو واحد من قلائل ممن عليهم واجب ان يكون لهذه الثورة حليفا ، ولها مخلصا وناصحا في كل ما يحسن النصح ويفيد .

وحدث ما كان منتظرا من العقاد .. حدث ان يؤيد هذه الثورة غداة قيامها بوسيلته وهي الكتابة .. فكتب قصيدة شعرية مباركا بها مواكب النصر على الطغيان قال فيها :

يا مصر يا بنت الخلود	يا معقل المجد التليد
اين الذين جزوك جا	زية الخيانة الكنود
من كل مسخ هازل	في زي جبار عنيد
ولى وولى صحبه	لا غائبين ولا شهود
من كل مغلوب على	كمد ومنبوذ شريد
يا صحبة التوفيق وف	قتم الى النهج السديد .
أجبتم النيل المبا	رك واحتفيتم بالصعيد
في كل عام تحتفون	بمولد اليوم الجديد
لا راغم فيه يسا	د وكل من فيه يسود .

ويكتب مقالا فيه يرحب بالثورة التي لم يمض على قيامها اقل من شهرين وفيه يتبين موقف التأييد من العقاد هذا نصه :

لا نعتقد ان فاروقا كان يحفل ان يضع لنفسه سياسة يحمي بها عرشه ويوطد عليها دعائم ملكه ، ولكنني ارجح انه تلقى من ابيه وصية مكتوبة او

محفوظة تلخص له قواعد السياسة التي يعتمد عليها لحماية العرش ، وتوطيد دعائم الملك ومنها الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر وقد كان أبوه يحاول الاحتفاظ بولائهما ما وسعه ، ولم يكن وسعه بالقليل .

هذه السياسة ولا شك اصح سياسة يوصي بها الملك من يخلفه على عرشه فليس انفع للعروش من ولاء القوة والعقيدة وهما متمثلتان في رجال الجيش ورجال الدين .

ولكنها منفعة لا تتأتى الا للملك النافع ، فان كان ملكا غير نافع فأخطر الخطر عليه من حيث يقدر الحماية والامان .

ولهذا كنت اقول واكرر القول لصحبي في السنوات الاخيرة على الخصوص : اذا خلع فاروق فلن يتم خلعه بمعزل عن الجيش او الازهر وقد يخلعانه متفقين .

ان الفساد يفسد على نفسه وعلى غيره ولن يكون الملك فاسدا حيث تصلح سياسته لكسب الانصار والاحتفاظ بولاء انصاره ، فاذا فاته ان يكسب الانصار المحافظين على ولائه فلا حماية له ولا لعرشه من احد ، وجاءته الرزايا من وجوه المطالب كما قال الشاعر الحكيم .

كل ما فهمه فاروق من الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر ان يفرض على كل منهما اعوانا واذنابا يخدمونه ويخدمون مصالحهم في وقت واحد ووقع في خلده انهم يخشونه لا محالة ما دامت مصلحتهم مقرونة بمصلحته وما دامت مناصبهم موقوفة على مشيئته ، فما زال على هذا الجهل حتى انتهى الامر الى موقف لا لبس فيه بينه وبين جيشه : ان هؤلاء الخدم الذين فرضهم على الجيش قد اصبحوا لازمين له لحمايته هو من الجيش ولو وقف الامر عند هذا لكان الخطب اعظم من ان يستدرك ولكنه كان اخطر وافدح من ذلك بكثير . كان هؤلاء الخدم يحتاجون الى من يحميهم هم من الجيش ايضا ولم يكن لهم تعويل على غير مرجع واحد فمن هو هذا المرجع ؟ فاروق !

لقد كانت السياسة الرشيدة ان يحتفظ الملك بولاء الجيش ، لان الامة كلها تدين له بالولاء وتحميه بكل قوة وفي طليعتها القوة العسكرية .

فما زال به الجهل حتى اصبح اذنابه واعوانه حمى له من الجيش وهم اعجز من ان يحموا انفسهم ، لو لم يعتمدوا عليه به . . .

وصل فاروق الى هذا الموقف قبل حرب فلسطين ، فلما تكشفت تلك الحرب عن فضائح السلاح لم يبق في الجيش المصري ضابط ، ولا جندي يضمر للملك المجرم الذي بلغت به الضعة ، والعياذ بالله ، ان يتجر بأرواح جنده وهم في ساحة القتال وشملت الريبة كل عامل في القوى العسكرية من المقربين اليه والمقصيين عنه على السواء ، وغاية ما بينهما من الاختلاف ان اذنابه المقربين كانوا ينظرون الى منافعهم ويخشون على مراكزهم ، ويحسبون حساب العقاب ، ولا يعرفون سبيلا الى المخرج من المأزق الذي انحصروا فيه .. فيودون لو بقي فاروق حماية لهم ، وهم على هذا متوجسون غير مطمئنين اليه .

ولقد وضح منذ سنوات ان دوام فاروق على العرش امر مشكوك فيه، ولكنه كان شكا يقترن ببعض الامل في الصلاح وبعض الحيرة في المصير ، ثم اخذ هذا الامل ينقطع شيئا فشيئا واصبح السخط في القلوب غالبا على كل حيرة في العقول ، حتى اذا كانت الاسابيع الاخيرة من عهده المشؤوم جرى ذكر الكوارث التي تتعاقب على الامة في مجلس يضم اكثر من عشرين مصريا بين اديب وصحفي واستاذ وطالب فقال قائل وما العمل ؟ .. قلت : انها الثورة لا محيص لنا منها وليكن ما يكون ! والحمد لله .. جاءت الثورة ولم يمض شهران .

وجاءت سليمة لم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل الامور ، وقد كان الخلاص من عهد فاروق ضرورة لا يستكثر عليها ان تقدم الامة في سبيلها على خسارة في الارواح والاموال ، واضطراب الامور شهورا او اكثر من شهور ، فلما تكفل الجيش للامة بالثورة التي كانت مطلوبة منها عوفيت من جرائرها واهوالها وانتظمت الامور في سياقها وانجلى ملك مكروه من عرشه بأيسر من جلاء عمدة في قرية صغيرة ، ينصره اناس ويخذله اخرون .

وبحق اعلن الجيش انه يحارب فساد فاروق ، ولا يقصر حربه على شخص فاروق .

وبحق اعلن كذلك انه فساد في نظام الاقطاع كله ، فلا يتأتى القضاء عليه اذا انقضى فاروق وترك وراءه الوفا من الفواريق الصغار .

وقبل ان يسأل السائل : وما للجيوش ولهذه الشؤون ؟ عليه ان يسأل :

كيف كان الخلاص لو لم تخلصنا حركة الجيش من فاروق ؟

ان فاروقا قد انزل عن العرش وهو في الثانية والثلاثين من عمره فلو انه بقي على العرش الى نهاية اجله فلا يعلم الا الله كم سنة تتعاقب على مصر وهي تنحدر من هاوية الى هاوية ، وتتقهقر من نكسة الى نكسة ، وتتهافت من خراب الى خراب ، وتتلطخ بوصمة بعد وصمة من وصمات ذلك الفساد الذي جعلها مضغة في افواه العالمين ، واسقط الثقة بها في حساب العروض والاعراض.

اما اذا قدر له ان يخلع قبل نهاية اجله ، فمن المستبعد جدا ان يتفق ملوك الاقطاع الصغار على خلع ملك الاقطاع الكبير ، وانما يجيء خلعه بقوة اجنبية ، تعصف باستقلال البلد بثورة شيوعية تعصف بكل خير وتسلمه الى الفوضى التي لايدري احد متى تثوب الى قرار .

فاذا كانت ثورة الجيش قد عصمت مصر من احدى هذه العواقب وكلها شر لا خير ، فمن حقه ، بل من واجبه ، ان يدفع غائلة النكسة عن هذا الوطن فلا يرجع الى الهاوية التي لم يكد يخرج منها ولن تؤمن هذه النكسة مع بقاء نظام الاقطاع على شره الذي عهدناه ، ولو عقل الاقطاعيون لسبقوا غيرهم الى حمد الله على هذه النتيجة ، فانها حماية لهم في آخر المطاف .

ومن التوفيقات الالهية ان يتولى قيادة الجيش في هذه الثورة رجل من اصلح القادة لحرب الاقطاع .. رجل لو قيل فيه انه مخصن للضمير « بمصل نفساني» مضاد لآفات الاقطاع لما اختلف تعبير المجاز وتعبير الحقيقة في وصفه ، فان آفات الاقطاع جميعا تتلخص في الولع بالمظاهر والاستكثار من جمع المال بغير حاجة اليه وكل من عرفوا ذلك القائد عن كثب ، يعرفون عنه طبيعة النفور من المظاهر والميل الى الاعتكاف والزهد في المال .

ومن التوفيقات الالهية ايضا ان يبتلى جشع فاروق بقناعة ذلك القائد الملهم وان يدخر القدر لثورة الجيش في حرب الاقطاع رجلا من اصلح الناس ان يكون قدوة لمن يحاربون الاقطاع ويعتصمون بنزاهة اليد والضمير من آفات الاقطاعيين وفتن الاقطاع .

ولم يكن كافيا لتمام العمل التاريخي الذي لا يتكرر كل يوم او كل جيل ان يزول فاروق ويبقى بعده الف فاروق او اكثر من الف فاروق فليست نهاية فاروق هي نهاية الحركة ولكنها فاتحة عهد لا بد ان

تستقـر على اساس وطيـد .

وليس المقصود بهذا ان عمل السياسـة في مصر قد بطل وان القـوة العسكرية مسؤولة وحدهـا بعد اليوم عـن تدبير معضـلات السياسـة والاجتمـاع والاقتصاد وسائر ما ينتظم في جملة مهام الاصلاح .

ان كاتب هذه السطور آخر من يرى هذا الرأي او يقول بهذا القول، وانه لقول لا يقول به فيمـا نعتقـد الا متملق جاهل ، والمتملق الجاهل يسيء الى مـن يتملقه من حيث يحسب انـه يثني عليه .

فالعلم بالفنون العسكريـة في هـذا العصر اوسع من ان يحيط به رجل واحد ، لانه معرفـة تتناول اسلحـة الجو والبحر والبر وابواب العلم الطبيعي والرياضي التي تدخل من قريب او بعيد في هذه الفنون ، وتحتاج مع هذا الى الخبرة بالاطوار النفسيـة واساليب الدعوة والاستطلاع ، لا يحيط بهـا قائد فرد ولا يستغني فيها على ايـة حال عن مشورة الخبراء ، ممـن يعلمون مثـل علمه او ينفردون بعلم لـم يطلع عليه .

فليست القيادة العسكريـة من السهولة بحيث ينهض بها قائد واحـد وينهض بغيرهـا من المهام الكبرى في وقت واحد .

وليس هذا فيمـا نرى هـو المطلوب في مرحلـة الاصلاح ؟ فما هـو المطلوب في هذه المرحلـة بالايجاز ؟

اننا نعلم المطلوب اذا علمنـا المحذور الذي اتقينـاه ولا نزال نتقيه .

وهذا المحذور هـو شعور الموظف الفاسد بحمايـة الفساد الاكبر له .

انه يخالف الشرع والعرف والحياء ولا يبالي العاقبة ، لانه يخدم بالمخالفة سيـدا يغريه بهـا ويكافئه عليهـا . فاذا زال هذا السيـد وزالت هـذه الحمايـة فقد زال المحذور .

والذي نرجوه من حراسـة الجيش لحركة الاصلاح ان يؤمن كل عامـل بزوال حماية الفساد وقيام حمايـة في مكانها ، تؤيـد الصالح المصلح وتمـلا سريرته بالطمأنينة الى النجاح والتوفيق فيمـا يتوفـر عليه ويخلص لـه مـن الخدمة العامة والجهـد الشريف .

كانت حمايـة المفسديـن أس الفساد .

فاذا زالت هذه الحمايـة المفسدة وقامت في مقامهـا الثقة بحماية العمـل

النافع والعاملين النافعين ، فذلك هو أس الصلاح والاصلاح .

هذا الموقف المؤيد للثورة وقائدها يجعلنا لا نتفق كثيرا مع وجهة النظر التي تقول ان العقاد صدم في بعض قرارات هذه الثورة وفي مقدمتها ثلاثة هي « الغاء الاحزاب » و« تحديد الملكية الزراعية » و « التأميم » وانه انصرف تبعا لذلك الى الكتابات الاسلامية والادبية والردود على الرسائل .

وليس هذا صحيحا .. فالعقاد بدأ في الكتابة الاسلامية قبل قيام الثورة بعشر سنوات وان كتاباته الادبية كانت مستمرة منذ بدأها في السنوات الاولى من هذا القرن وان ردوده على الرسائل لم يكن ابدا جديدا .. فقد كان يفعل ذلك قبل الثورة .

ولماذا لا نقول ان العقاد قد وجد في هذه تحقيق ما كان يكتب من اجله .

لماذا لا نقول ان نفسه قد استكانت بزوال العهد الذي كان يندد به في مقالاته ويصفه بانه الفساد الذي يفسد نفسه كما يفسد على غيره . وجاء العهد الذي كان يرجوه ويتمناه .

لماذا لا نذكر للعقاد مواقفه العنيفة في وقت كانت مصر يحكمها الاحتلال والسراي والخونة .. ومع ذلك كان يقول رأيه حتى في ملك مصر ومندوب بريطانيا السامي ورئيس وزراء مصر دون خوف ؟ فلماذا يخاف اليوم وقد تولى امور مصر ابناؤها ممن يعرفون العقاد ويقدرون كفاحه ونضاله ؟!

ثم لماذا لا نذكر للعقاد موقفه من كتاب فلسفة الثورة الذي اهداه له جمال عبدالناصر بخط يده تقديرا واعتزازا به كمفكر ؟ لماذا لا نذكر هذا المقال الموضوعي والجريء الذي نشرته آخر ساعة تحت عنوان « فلسفة الثورة في الميزان » والذي فيه قيم هذا الكتاب بموضوعية وجرأة فقدها الكثيرون من الكتاب والصحفيين في ذلك الوقت بالذات ؟

لقد كتب العقاد عن كتاب فلسفة الثورة الذي اصدره الرئيس الراحل جمال عبدالناصر فقارن في ذلك المقال بين الثورة الفرنسية والثورة التركية والثورة الصينية والثورة المصرية ثم قال :

وبعد هذه المقارنة بين ثورتنا وثورات غيرنا نرى ان التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على الاصول الكبرى .

فقد قرأت الصفحات الثمانين التي كتبها الرئيس جمال عبدالناصر في كتاب « فلسفة الثورة » فخرجت منها وانا اعتقد ان الخلاف عليها اقل خلاف في مثل هذه الصفحات وفي مثل هذا الموضوع .

صواب ولا شك ان الحركة المصرية لا توصف بانها تمرد عسكري وصواب ولا شك ان الحاضر يعيش ببقية من مساوىء العهود الماضية وهذا هو باب الاسف والاسى ، ولكنه كذلك باب الامل والعزاء ، لانه يدفع اليأس من النفوس اذا عولج فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح « اذا لم يكن يمكن في غمضة عين ان تزول رواسب قرون » .

وصواب كذلك ان الشك آفة معطلة للجهود معطلة للافكار والآراء فليس الانصاف وحده بالذي يشفع لاصحاب الشكوك ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد اجيال واجيال ، ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ قبل شفيع الانصاف .

يقول السيد الرئيس جمال عبدالناصر : « كان من السهل وقتها ، وما زال سهلا حتى الان ان نريق دماء عشرة او عشرين ، او ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ،ونرغمها على ان تبتلع شهواتها واحقادها واهواءها . »

ثم يقول « .. ولكن اية نتيجة كان يمكن ان يؤدي اليها مثل هذا العمل ؟.. كان من الظلم ان يفرض حكم الدم علينا دون ان تنظر الى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعا تلك الآثار .

نعم يكون ذلك ظلما ويكون اكثر من ظلم لانه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر ، ويبطل فائدة العلاج وييئس من عقباه .. » .

ثم تناول العقاد بعد ذلك سائر ما جاء في كتاب الرئيس عبدالناصر بالتعليق وختم مقاله هذا بقوله :

على ان الصفحات الثمانين التي تحمل اسم « فلسفة الثورة » لا تنحصر

بالقارىء في حدود الافق المصري وان كانت لا تخرج بـه مـن آفاق المسألة المصريـة في اوسع حدودها ، فالمصري في عصرنـا هـذا لا يهتم بوطنه حقا ان لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق او عوالم ،لا انفصال لهـا من وطنه ، وهي العالم العربـي ، والعالم الافريقي ، والعالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه •

أيـن نحـن من العالم العربي ؟

أين نحن من العالم الافريقي ؟

أين نحن من العالم الاسلامي ؟

ونحن في قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس في وسعنـا ان نجهـل علاقاتنا بهـا ومستقبلنا معها •

يقول الرئيس جمال : « ان نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقـد تحت ارض المنطقـة العربية • فنحن اقوياء •• »

ويقول : « اننـا لـن نستطيع بحال من الاحوال حتى لو اردنـا ان نقف بمعزل عـن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليـوم في اعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين • اننا في افريقيـا والنيل شريـان الحياة لوطن يستمد ماءه من قلب القارة •• »

ويقول الرئيس عن العالم الاسلامي : « حين اسرح بخيالي الى ثمانيـن مليونـا من المسلمين في اندونيسيا وخمسين مليونـا في الصين وبضعـة ملايين في الملايو وسيام وبورمـا وما يقرب من مائـة مليـون في الباكستـان واكثر من مائة مليون في منطقـة الشرق الاوسط واربعين مليونا داخل الاتحاد السوفييتي وملايين غيرهم في ارجاء الارض المتباعدة ، حين اسرح بخيالي الـى هذه المئات من الملاييـن الذيـن تجمعهم عقيدة واحدة اخرج باحساس كبير بالامكانيـات الهائلة التي يمكـن ان يحققهـا تعـاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عـن حدود ولائهم لاوطانهم الاصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة » •

ويعلق العقـاد على كلام الرئيس فيقول :

« وهذا كله صحيح في الجملة والتفصيل وليس الاهتمام يمس طمـوح الشباب ، كمـا يتخيل المتخيل الوادع في عقر داره ، بل اخشى ان اقول انـه من اعباء الشيخوخـة قبل اوانهـا •• بل من همومها في ابانها • ان كان حمل

الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ !

ماذا تصنع ان جنى البترول على العالم العربي ، فضيعه بدلا من تزويده باسباب القوة والمنعة . وماذا نصنع إن اصبحت افريقية للمستعمرين الاوروبيين ، ولم تصبح في الغد القريب افريقية للافريقيين .

وماذا نصنع ان تهدم معنى الحياة ، كما تمثله المادية الحيوانية ، او كما تمثله الحضارة الحسية ، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين ، وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة ، او غمار القنوط والحيرة ؟

فروض جسام ولكنها فروض واقعة لا تهدأ او لا تنام .

ثم لماذا لا نذكر هذه القصة التي رواها يوسف السباعي ونشرت بالمصور في ١٣/١١/١٩٧٠ عن موقف عبدالناصر من العقاد ؟

ان القصة تدل من قريب او من بعيد عن كيفية احترام عبدالناصر للعقاد وتقديره للكفاءة والثقافة والعلم .

والقصة كانت في عام ١٩٥٨ وقد انعقد في القاهرة اول مؤتمر للادباء العرب وبعد انتهاء المؤتمر .. طلب الادباء لقاء عبدالناصر والحديث معه . فدعاهم الى لقائه في قصر القبة .

وقال يوسف السباعي : « ووقفت مع عبدالناصر في حجرة مكتبه قبل ان يدخل الادباء .

وسألني : هل العقاد موجود ؟

وقلت : نعم

وابتسم عبدالناصر قائلا : هذه اول مرة أراه فيها

ثم استطرد قائلا : كنت دائما معجبا بالعقاد ، ولا سيما في الفترة التي خرج فيها على الوفد وكان يكتب في جريدة روز اليوسف .

وصمت عبدالناصر . هكذا يروي يوسف السباعي ثم قال ضاحكا : « خلال الحرب العالمية الثانية .. كان العقاد يكتب مؤيدا للحلفاء واتهمه البعض بانه عميل لهم ، ولكني لا اعتقد ان العقاد يمكن ان يكون عميلا لاحد ، انا لا أكره ان يكتب الكاتب عن اي اتجاه بشرط ان يكون معبرا عن رأيه وليس عميلا لاحد .. » .

وهكذا كان عبدالناصر عظيمـا في تقديره للعظماء امثال العقاد .

وكان عظيمـا ــ منذ صباه في تلمذته علي رواد الفكر وكان لا يفتأ يتتبع قراءة كل مـا يكتب العقاد ورفيقاه طه حسين وتوفيق الحكيـم بالذات .

وهذه الفترة التي اشار اليهـا عبدالناصر على وجه التحـديد .. فترة خروج العقاد على الوفـد ، وكتابته في جريدة روز اليوسف اليومية ..خليقة بكلمـة تقال عـن العقـاد تكون لـه وليست عليه .

في هذه الفترة بالذات كما رأينـا لم يتقاض العقاد من الوفـد ولا غيره من الاحزاب درهمـا واحدا من المصاريف السريـة التي كانت تبذل لكثير من الصحفيين في تلـك العهود . لقـد عرضت عليه السفارة البريطانية مبلغا من المال لا يستهـان بـه في ذلـك الوقت . .عرضت عليه خمسة آلاف جنيه كدفعـة اولى والفي جنيه شهريـــا .. في نظير ان يكف هجومـه عـن الوزارة المسؤولة في ذلـك الوقت والاحتلال البريطاني .. ولكـن العقـاد رفض وطرد مبعوث السفارة البريطانية .. او المنـــدوب السامي البريطانـي ولم يأسف على ضيـاع مثل هذه الفرصـة التي كانت تدر عليه آلاف الجنيهات في الوقت الذي كان فيـه يبيـع المجلات والصحف القديمة حتى يقتات منها . ولما فرغ بيته من هذه الصحف والمجلات دارت عيناه على الكتب ولـم يستمر طويـلا فقد هاجـر الى بلدته أسوان ليضمـن قوت يومه .. لقد اكتفـى العقاد ــ وهذه هي قناعته ــ بان يعيش بعرق قلمه وفي حدود دخله .

اما موقفه من المحور في الحرب العالميـة الثانية والذي اشار اليــه عبدالناصر .. فهـو موقف لـه وليس عليه هو نابع من حبه للحرية فهو يرى ان المحور « المانيا وايطاليا » وهمـا الدولتان اللتـان تمثلان النازية والفاشية وهمـا نظامـان لا يمكـن ان ينهض في ظلهمـا اثر للحرية . ولو انتصرا في الحرب فانهمـا لن يبشرا بتحرير العالم ولن يكونا الا لونـا من الاستعمـار الجديد الذي يحل محل الاستعمار القديم ويكتـم كل صوت يغنـــي بأنشودة الحريـة .

كان هذا هو موقف العقاد .. موقفا متسقا مع نفسه .. امرا يجعل عبـد الناصر يذكـره لـه بالاعجاب والتقديـر ..

فلماذا نعتسف الحوادث ونفسر التاريخ وفق الاهواء والامزجة .

لماذا لا تقول مثلا ان العقاد ورفاقه من رواد فكرنا العربي بدلا من ان نفتعل مواقف وتنسبها الى هؤلاء ضد الثورة ومنجزاتها ؟

لماذا لا نقول ان كتابات العقاد واسلوبه في الكشف عن مؤامرات الرجعية والاستعمار بالتعاون مع القصر .. قد قدمت للثوار المنهاج والاسلوب لمعرفة اتجاهات رجال العهد البائد ؟

ان ثورة يوليو ١٩٥٢ كرمت العقاد ورأى قائدها جمال عبدالناصر ان هذا المفكر من حقه علينا ان نقدره حق قدره .. وقد حدث ذلك حين كتب العقاد معاتبا الدولة في صورة لجنة الجوائز التقديرية في المجلس الاعلى للفنون والآداب بأن ترشيحات الهيئات لم تحسب حسابا لشيء غير التقديرات الجامعية وانها جاءت جميعا بمثابة تكرار لتلك التقديرات التي كان فيها الكفاية لاداء رسالتها المحترمة الى الان بغير حاجة الى جائزة مستقلة عنها في حين ان الجوائز الكبرى ـ عالمية او قومية ـ انما توضع لكي تستدرك النقص الضروري في تلك التقديرات وتحيط بالاعتبارات الواسعة التي لا تنحصر ولن تنحصر في الاوضاع المفروغ عنها ..

وبعد كتابة هذه الرسالة من العقاد علقت الصحف بقولها ان العقاد يحتج على لجنة جوائز الدولة بمجلس الفنون والاداب لان الهيئات الادبية والعلمية في مصر لم ترشحه للجائزة لانها لا تقدر العبقريات ولا الكفاءة وان كل ما يهمها هو ان يكون المرشح حائزا على شهادة ! اي شهادة ويبدو ان تعليقات الصحف بهذا الاسلوب قد استفزت المشاعر .. فليس العقاد الذي يقال عنه انه قد احتج لانه غير حاصل على شهادة .

وعلى الرغم من ان العقاد قد نفى هذا ونشر رسالته الا ان المشاعر قد استفزت والا فما معنى قيام اكثر من عشرين هيئة بترشيحه لهذه الجائزة وفي مقدمة هذه الهيئات جامعة عين شمس التي اجتمع مديرها الدكتور احمد بدوي بعمدائها واساتذتها واصدروا قرارا بالاجماع بترشيح العقاد لهذه الجائزة في الآداب عن عام ١٩٦٠ .

كذلك اصدرت جمعية الدراسات التاريخية برئاسة الاستاذ شفيق غربال قرارها بترشيح العقاد لنيل الجائزة . مستندة في هذا الى اجماع في الرأي على ان العقاد يعتبر قدوة لابناء هذا الوطن في الدأب والجد

والاستقلال واحترام النفس .

ورشحت لجنة الشعر بالمجلس الاعلى للفنون والآداب العقـاد لهـذه الجائزة واستندت في ترشيحهـا الى مـا يمتاز بـه العقاد من وفرة الانتـاج واتسـاع الثقافة والحرص على احياء التراث العربي والخبرة في الادب العربي والآداب العالميـة مع المحافظـة على جزالة اللغـة وروعـة الاسلوب والجرأة الادبيـة .

وغيرهـا من الهيئات الادبيـة والعلميـة رشحت العقاد ورأت انه خير من ينـال الجائزة التقديريـة لعـام ١٩٦٠ وبالفعل نال العقاد الجائزة ورحبت بذلـك الاوساط الادبيـة والعلميـة بـل والسياسيـة ايضـا لانه عمـل وضع في محله لا اكثر ولا أقل .

وجاء في تقرير لجنة الفحص بالمجلس الاعلى للفنون والآداب مـا يؤكد احترام الدولة لهـذا الرجل حيث قال التقرير : « وقف الاستاذ عباس محمود العقـاد حياته كلهـا على خدمة الفكر والادب ، وقد توفر على ذلـك منـذ شبابه الاول فقضى خمسين عامـا في المطالعـة والتأليف حتى اشتهر بخصب التفكير وكثرة الانتاج وقد كانت نظرته الى الادب نظرة جد لا نظرة لهو وتسلية وممـا يدل على شدة ايمانه بجـد الادب وبعده عن لهـوه وتسليته ، وفـرة مؤلفاته حتى نيفت هذه المؤلفات في منظوم القول ومنثوره على السبعين .

خاض الاستاذ عباس محمود العقاد في كثير من ابواب الادب فقـد بدأ حياته بالنقد ، فنقـد بعض كبار الشعراء في عصره ولم يقتصر في نقده علـى التنبيه على امور تتعلق باللغـة وحدها ، فنظـر الى القصيدة من حيث وحـدة موضوعهـا وتسلسل اجزائهـا وتماسك هذه الاجزاء ، كمـا نظـر اليهـا من حيث عمق افكارهـا ثم وسع آفاق الشعـر بحيث لا يقف الشاعـر على موضوعات معينة متعارفـة وانمـا يتعرض في شعره لكل مـا يمـر به فـي الحيـاة ، ثم غلب الفكـر على موضوعات الشعـر في دواوينه المختلفـة بحيث يمكـن نقل هذه الموضوعات من لغـة الى لغـة دون ان يذهب جوهـر معانيهـا .

ولم يكـن الاستاذ عباس محمود العقاد ناقدا نظريا فحسب ، وانما قرن نقده النظري بالعمل ليطابق بين نقده وبين شعره فجاء شعره مطبوعـا بهـذا

الطابع الذي دعا اليه في نقده ، فهو من هذه الناحية نقاد يبني لا نقاد يهدم .

لم يحبس الاستاذ عباس محمود العقاد قلمه على النقد وحده وانما جال في ميادين كثيرة من الادب اعظمها شأنا الدراسات الادبية وتحليلات الاشخاص . اما الدراسات الادبية وحسبنا منها كتابة ابن الرومي فقد تغلغل في هذا الكتاب الى خفايا اخلاق الشاعر وحياته وفنه فكشف الغطاء عن اسرار هذه الاخلاق وهذه الحياة وهذا الفن بحيث لا يرى المرء في هذه الدراسات الا اصالة في الرأي وانصافا في الحكم وبراعة في التعليل . فلم يقص الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « ابن الرومي » قصة هذا الشاعر ولا سرد اخباره على نحو ما تقص القصص وتسرد الاخبار عادة مجردة من عناصر الحياة وانما صور ابن الرومي تصويرا وجمع لصورته عناصرها كلها فلم يفته شيء من خطوطها والوانها ولا من ظواهرها وبواطنها حتى اصبحت صورة « ابن الرومي » كأنها جسم حي وكأنها روح ناطقة .

وكما برز في الدراسات الادبية فقد برز في تحليله لطائفة من شخصيات عصره واعاظم رجال الاسلام فقد استطاع ان يلقي على اولئك الاعاظم ضياء ساطعا بحيث يشعر هذا العصر بقوة عبقريتهم وسلطان اخلاقهم وبحيث يدرك عظمة الاسلام ورجاله أتم ادراك فيجد ابناء هذا العصر في مطالعة كتب الاستاذ العقاد في هذا الباب قوة لهم يقتدون بها فيزدادون صلابة في ايمانهم وشدة في قوميتهم .

ولم يفت الاستاذ عباس محمود العقاد بعد دراساته الادبية وبعد تحليله لاعاظم العرب والاسلام سر القصة كما تدل على ذلك قصته « سارة » وعالج نوعا آخر الى جانب القصة وهو المذكرات ، وقد اصبحت لهذا النوع الادبي منزلة رفيعة في الغرب فقد اخذ القراء يميلون الى ان يواجههم المؤلف رأسا بأسرار حياته .

واذا تركنا افق الادب والتفتنا الى افق الفلسفة وجدنا ان الاستاذ عباس محمود العقاد قد وضع كتابه « مجمع الاحياء » ليوضح لضلال الاهواء والمبادىء وليبلغ كنه الحكمة التي تبدأ منها وتعود اليها اعمال

الناس ومساعيهم في هذه الحيـاة وقد توسع في شرح معانـي الخيـر والشر والحق ومزج هذه الفلسفـة ببعض الخيـال حتى تخف افكارهـا علـى الاذهـان ويسهل دخولهـا على النفـوس فتصور اجتماعـا في غاب افريقية أنطق فيه الحيوانات •

وله في هذا الباب مباحث فلسفيـة ثانيـة تتصل ببعض فلاسفـة الغرب والشرق •

ولم يعـن الاستاذ عباس محمود العقاد بأدب العرب وحدهم ولكنه كتب عن كثير من ادباء الغرب بفضل معرفته بالانجليزية وسعـة اطلاعه علـى ادب الفرنجة • وكتابه « تذكار جيتي » فيه نصيب عظيم من صفاء الذهـن وصفاء الاسلوب فلم يغب عنه تصوير عبقرية « جيتي » وشخصيته وعقيدته وآرائـه كمـا لـم يغب عنه تحليل النفس الالمانية وما اجتمـع في هذه النفس مـن عناصر شتى كالتديـن والفلسفة والموسيقى والاناشيد وغير ذلك •

وعلى هـذا النحو جرى في تعريفه بشكسبير •

واذا كان العصر الذي نعيش فيه عصر الديمقراطية فقـد دافع الاستاذ عباس محمـود العقاد عـن الديمقراطية دفـاع المؤمـن بها فهي لم تضعف في نظره بـل ستكـون اساسا للحكم في المستقبل تبنى عليه قواعـد الحكومات، دافع عـن الديمقراطية وحذر الكتاب المسرفين في نقدهـا من عواقب هـذا النقـد لانه اذا بطـل الايمـان بهـا فلن يخلفهـا نظام اصلح منهـا • وقد حمله تأييـده للديمقراطيـة على مقاومة الشيوعيـة فمـا فاتته فرصة فـي مقاومتهـا على اعنف وجـه •

هذه جملة من الميادين الواسعة التـي جال فيها الاستاذ عباس محمـود العقاد فضلا عـن مقالاته المختلفة في كل باب من الابواب واذا استطاع الاستاذ عباس محمود العقاد ان يثبت افكاره الحديثة وآفاق موضوعاته الرحيبة في اذهـان النشء فقـد استطاع هذا كله بفضل اصالة بيانه وشدة غيرته علـى روح اللغـة وتمسكه بعبقريتهـا حتى اصبح امامـا يأتم بـه كثير من شباب هذا العصر في ادبهم وتفكيرهم وبيانهم •

ولا شك في ان هذه الامور كلهـا التي امتاز بها الاستاذ عباس محمود العقـاد تنفع الوطـن والانسانيـة وتجعله أهلا للتقدير والاكبار •

بل والاكثر احتفلت الدولة بمنحه هذه الجائزة •• وحضر الاحتفال عبدالناصر الذي قدم للعقاد الجائزة وسط عاصفة من الترحيب •• فهكذا يكرم العلم والثقافة والفكر في شخص العقاد •• ويومها وقف العقاد ليقول كلمة •• وسمع الناس العقاد •• فكان كما هو لا ينافق ولا يداهن ولا يتملق وكلمته كانت موجهة للفكر الذي حمله على اجنحته وارتفع به الى هامات البشر والى القارىء الذي احتفى به والى نعمة الوعي القومي الذي جعل القيم الفكرية والثقافية في ايدي ابناء الامة وان هذه القيم تسود وان طال الزمن ••

وكم كان العقاد عظيما لانه لم يتغير وانما ظل هكذا شامخا كالطود ليقول امام جمال عبدالناصر وعلى مسمع من العالم « •• نعمة الوعي القومي الذي وعانا فوعيناه وعي ــ بحمد الله ــ يقوم القيم في عالم الفكر والثقافة ، ويحكم لنفسه فيزكيه اهل الفكر والحصانة ، ويشملنا جميعا • فمن يختارهم لجوائز الدولة والامة تبرزهم جمهرة القراء ويؤيدهم صفوة العلماء •

وقديما كانت قيم الدنيا والدين وقيم العلم والمال وكل قيمة يعتز بها الحاكم والمحكوم تبعا للسلطان القاهر يلقي بها من عل فيتلقاها الناس طائعين خاضعين بل مطرقين مغمضين •

كان زمن من الازمان ينعم فيه السلطان بطيالسة المجد والعظمة بل بمسرح الزهد والتقوى فاذا بالمنعم مجيدا ولو كان في ذل العبيد ، واذا بالقوي العصي زاهدا متصوفا وان كان في الزهد والتصوف زهيدا او دون الزهيد •

فالحمد لله على ما ألهم هذه الامة من وعي يقوم القيم في موازين الادب، ومن رأي عام يجتهد بالرأي دائبا فيسمع له فيما اجتهد ودأب ، وحسبنا من شرف ان يحسبنا علامة من علاماته ، وعنوانا من عناوينه ، وان يختارنا ــ كرما منه ــ سببا من اسبابه لتسجيل حكمه ، واعلان فضله ، وانه لفي يد الله ــ جلا وعلا ــ ان يؤهلنا لهذا الحق ، وان يجعلنا كفؤا له فيما تصنع ان شاءالله وفيما صنعنا كما شاء •

ان اسعد عيد من اعياد صاحب القلم ان يكتب بقلم تحمله معه بنان القارىء ، وان يخط على قرطاس تبسطه امامه عين المتصفح ، وان يكون تقديره

من قبل امته اشتراكا معه في الفهـم والافهـــام ، ومعاونـة له علـى الفيض والالهام ، وان يسمع فيه صوت الاختصاص ملبيا لصوت العام والخاص ، وتأتي فيه موازين الفنون رجحانا لموازيـن الاذواق ، قدرا مـن الامـــة واليها ، وفضلا محسوبـا لهـا ومحسوبا عليهـا ، وتلـك هي جمهوريـة الفكر خير قريـن لجمهوريـة الحكم •• »

هذا هو موقف عبدالناصر من العقاد وموقف العقاد من عبدالناصر •• بلا زيادة او نقصان •• فلا مبرر للقول بان العقاد قد صدم في ثورة ٢٣ يوليــو ١٩٥٢ او انه هرب عـن تأييدها وتأييـد رجالهـا الى الكتابـات الاسلاميـة والادبيـة والرد على الرسائل •

القسم العاشر

وثائق تاريخية

نص محاكمة العقاد

فلسفة الثورة في الميزان

النص الكامـــل لعريضة اتهـام العقـاد

بالعيـب فـي الـذات الملكيـة

باسم صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر ـ محكمة جنايات مصر ـ المشكلة علنـا تحت رياسـة حضرة صاحب السعادة عبدالعظيم راشد باشـا وحضور حضرات صاحبي العزة مصطفى حنفي بك ويس احمد بك المستشارين بمحكمـة الاستئناف الاهليـة ومحمود منصور بك رئيس النيابـة العامـة ومحمـد احمد السيد افندي كاتب المحكمـة .

اصدر الحكم الآتـي :

في قضية النيابة العمومية نمرة ٤٢ سايرة ما يدين سنة ١٩٣٠ المقيـدة بالجدول الكلي بنمرة ٩٩١ سنة ١٩٣٠ ضد :

١ ـ محمد فهمي الخضري افندي عمره ٣٨ سنة وصناعته صاحب جريدة « المؤيد الجديد » وسكنه شارع الدواوين .

٢ ـ عباس محمود العقاد افندي عمره ٤٢ سنة وصناعتـه عضو مجلس النواب وسكنه بمصر الجديدة .

وحضر للدفاع عن المتهم الاول حضرة وهيب دوس بك المحامي وعن المتهم الثاني حضرتا مكرم عبيد بـك ومحمود سليـمان غنام افندي المحاميـان بعد سمـاع الاحالة وطلبات النيابة العموميـة واقوال المتهميـن وشهادة من

شهد والمرافعة والاطلاع على اوراق القضية والمداولة قانونا .

حيث ان النيابة العمومية اتهمت المتهمين المذكورين بأنهما :

الاول : في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ بمدينة القاهرة وبلاد المملكة المصرية وبصفته مديرا لجريدة « المؤيد الجديد » عاب علنا في حق الذات الملكية بأن نشر مقالات في الجريدة المذكورة بالاعداد : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٦ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت عناوين: « الوزارة البريطانية والازمة المصرية الحاضرة» « الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها » و « رأي في الازمة الحاضرة » « الرجعيون والانجليز المحليون » « سيعدل الدستور ولكن كيف ؟ » و « الرجعية هي العدو الاكبر في الازمة الدستورية الحاضرة » بالتعاقب تحوي عبارات العيب المذكورة .

والثاني : بصفته شريكا للمتهم الاول في الجريمة آنفة الذكر بأن اتفق معه على ارتكابها وساعده مع علمه بها في الاعمال المسهلة والمتممة لها بان أنشأ المقالات الواردة في الاعداد رقم ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٣٣ و ٣٦ من الجريدة المتقدم ذكرها وسلمها اليه لنشرها .

وقد وقعت الجريمة فعلا بناء على ذلك الاتفاق والمساعدة وطلبت النيابة من حضرة قاضي الاحالة احالتهما على محكمة الجنايات لمحكمة الاول بالمادتين ١٤٨ و١٥٦ من قانون العقوبات ومحاكمة الثاني بالمواد ١٤٨ و١٥٦ و٤٠ فقرة ثانية وثالثة و٤١ من القانون المذكور .

وحيث ان حضرة قاضي الاحالة قرر بتاريخ ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٠ احالة المتهمين المذكورين على هذه المحكمة لمحاكمتهما بالمواد سالفة الذكر .

وحيث انه بجلسات ٢٥ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ سمعت المحكمة هذه القضية على الوجه المشروح تفصيلا في محضر الجلسة .

ومن حيث ان المحكمة قد اطلعت على المقالات موضوع الاتهام في هذه الدعوى وترى ان تقف في ذكر الوقائع والادلة عند الحد الذي يقتضيه القانون ويراه كافيا للفصل في التهمة المطروحة امامها وان تجتنب الافاضة في ذلك لما يترتب على هذه الافاضة من اعادة نشر صحيفة مخالفة لما يجب من الولاء العام نحو صاحب الجلالة الملك .

ومن حيث انه يتبين من اقوال المتهمين بالتحقيقات وبالجلسة ان الاول منهما هو المدير المسؤول لجريدة « المؤيد » التي نشرت بها المقالات المرقومة بسببها هذه الدعوى وانه يطلع على ما ينشر بالجريدة في اغلب الاحيان ويشرف على تحريرها وان الثاني هو منشيء المقالات المذكورة وهو الذي قدمها للنشر .

ومن حيث انه تبين للمحكمة من الاطلاع على المقالات سالفة الذكر انه بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ اصدر العدد نمرة ١٩٥ في جريدة « المؤيد الجديد» وبه مقال تحت عنوان « الوزارة تعبث بالمصريين وهي آلة في يد المستعمرين» بامضاء ابو فصادة تحدث فيها الى القراء عن تلك الازمة ونسبها لتدخل الانجليز لاحداث الانقلاب الحاضر في مصر فكان هذا المقال فاتحة مساجلة اشترك فيها عباس افندي محمود العقاد بعدة مقالات نشر اولها بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد ٢١ تحت عنوان « الوزارة البريطانية والازمة الحاضرة » قال فيها :

« انه لمناسبة المقال الذي نشره الكاتب الكبير « ابو فصادة » في مؤيد امس وهو المقال المشار اليه آنفا اعيد نشر فقرات من حديث في هذا الموضوع جرى بيني وبين مراسل الاحرار «السورية» منذ اكثر من شهر لان هذه الفقرات تتضمن وجهة نظر شائعة في تصوير الحالة على ما هي عليه وكل ما يتضمن وجهة نظر كهذه خليق ان يعرف تفصيله في هذه البلاد فقلت لحضرة المراسل ردا على سؤاله «اعتقادي ان هذه الازمة هي ازمة الرجعية قبل كل شيء»، والرجعيون اعداء الدستور كانوا يتهيأون من زمن بعيد لالغاء الحياة النيابية او لابقائها ناقصة مشلولة تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون في القرون الوسطى» ثم قال بعد ذلك : « وكانوا يتوهمون انهم قادرون على تأليف وزارة وفدية تتقدم الى البرلمان فتشطره شطرين ، فان نالت الاكثرية بقيت على تأيدهم ، اي تأييد الرجعيين واصبح هؤلاء الرجعيون هم حكام البلاد المستبدين وراء ستار من الدستور ، وان نالت الاقلية تقدم مرشحون اخرون، وهذا هو القضاء المبرم على الدستور لان كثرة الاحزاب في المجلس النيابي تنزع السلطة من المجلس وتضعها في ايدي الرجعيين » وقال فيها ايضا « ولو تم هذا التدبير لاستغنوا به عن مسخ الدستور، ولكنه لم يتم فهم يلجأون الى الخطة الاخرى التي يحاولون تنفيذها اليوم » .

ثم قال ردا على سؤال المراسل الذي ذكر فيه انه لا يعتقد براءة الانجليز في هذه المؤامرة : اؤكد انه ليس للانجليز ضلع في المؤامرة ولكنها بعد ظهورها كانت فرصة للوصول الى مطالبهم ، وقال « هذه خلاصة رأيي في حقيقة الازمة منذ البداية وكلما مضى يوم بعد يوم زادتني الحوادث اقتناعا بـه ، وادلـة محسوسة على صحته » ثم قال : « ان الانجليز لم ينشئوا الازمة لان الازمة نشأت قبل المفاوضة بل نشأت لاحباط المفاوضة والوصول من وراء ذلك الـى الغاء الدستور » ثم قال : « فلا يسعني ان اعتقد ان كل هذا تدبير مـن الوزارة البريطانية وان الوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية : هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين » .

وفي اليوم التالي اي في ١٠ سبتمبر عقب على المقال الاول بمقال اخـر نشر في العدد رقم ٢٢ تحت عنوان « الاستقلال لحريـة مصر وسعادتهـا لا لاستعباد مصر وتعذيبهـا » قال فيه : « اتستطيع الرجعية ان تظن ظنا ام تتوهم وهما انها هي التى طلبت ذلك ـ يشير الى الاستقلال ـ فكان ، او انها كانت تطلبه على اي وجه من الوجوه فيكون ؟ اتستطيع ان تذكر لنا كلمة واحـدة قالتها في سبيل ذلك او تدبيرا واحدا دبرته او نية واحدة اظهرتها بأي نوع من انواع الظهور ؟ لا : ان الرجعية لا تستطيع ان تظن ذلك ظنا او تتوهمه توهماء ولا تستطيع الا ان تعرف ما يعرفه كل انسان ولا يخفى علـى انسان » في يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ظهر في ميدان المساجلة مجهول امضـى مـقالا بحرف «ص» نشر في العدد رقم ٢٥ تحت عنوان « رأي في الازمة الحاضرة » ذهب كاتبه الى ما رآه عباس افندي العقاد من حيث الازمة المنوه عنها فقال : اولا : ان الازمة ازمة الرجعية ، وعلل ذلك بقوله : « ولا تستغرب من الرجعيـين في مصر الجرأة على تدبيرها لانهم لم يطمئنوا قط الى حكم الامة » ثم قال : « اما دكتاتورية محمد باشا محمود فقد اعتمدت حقيقة كل الاعتماد على تأييد اللورد لويد ولكن اللورد لويد لم يكن يستطيع وحده اجراء الانقلاب لولا ان ساعدته الرجعية بكل ما تملك من دسيسة وسلطان فلما عملت وزارة العمال على تبديل الحال في مصر سعت الرجعية في انجلترا ليكون هذا التبديل في صالحهـا ، فيحل استبدادها محل استبداد محمد محمود باشا ، فلما لم يفلح في هـذا المسعى وعادت الحياة الدستورية ، ارادت من وزارة النحاس باشا ان تكـون

آلة الاعتداء على حقوق الامة ولكن الوزارة النحاسية لم تكن لتقبل هـــذا فاستقالت حكيمة كريمة . وهنا لم يكن للرجعية بد مـن احداث الانقـلاب الحالي الى ان قال : وابلغ من كل ما تقدم ان بوادر الازمة ظهرت قبل المفاوضات فلم تستطع الحكومة النحاسية ان تتفق على تعيين الشيوخ وكبار الموظفين ، واضطرت الى تأجيل النظر في ذلك الى ما بعد عودة الوفد الرسمـي ، وان الرجعيين كانوا يعملون لاحباط المفاوضة ، فـلا يعقـل ان تكون الحكومـة البريطانية قد اشتركت معهم في هذا التدبير » .

وفي يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٢٦ من جريدة المؤيد تحت عنوان : « الرجعيون والانجليز المحليون» استهله بقوله « في الخطاب المفصل الذي ارسله الينا صديقنا (ص) بيان واف للرأي القائل بأن الازمة الحـاضرة في مصر هي ازمة الرجعية قبل غيرها ، وان الانجليز لم يخلقوا الازمة وانمـا حاولوا ويحاولون ان يستفيدوا منها بعد خلقها وهذا الرأي هو رأينـــا الذي لا تزيدنا الحوادث الا اقتناعا به ووثوقا منه ، ولا يدعونا الى تقريره وتوكيـده الا ان يعرف المصريون الحالة على حقيقتهـا ، ويعلموا أصول الدسيسة من اين تنجم والى اي غاية تسعى ، فانها ــ اي الرجعية ــ في سبيل الاستعداد لمسخ الدستور : تحتضن الاذناب الذين لا يستحقون في شريعة الوطنية والانسانية والاخلاق الا النبذ والاهمال والتحقير ، فتجني بذلك على ضمير الامة جنايـة شديدة الفتك بعيدة القرار » .

وبتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٣٣و٣٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ رقم ٣٦ نشر عباس افندي العقاد مقالين : الاول منهما تحت عنوان « سيعـدل الدستور ولكن كيف» والاخر تحت عنوان « الرجعية هي العدو الاكبر فـي الازمة الدستوريـة الحاضرة » نحا فيهما منحى المقالات السابقة .

وبتاريخ ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٠ رأت النيابة العمومية ان المقالات المذكورة تتضمن العيب في الذات الملكية فأجرت التحقيق مع المتهمين واقامت عليهمـا هذه الدعوى طالبة عقابهما بالمواد المبينة بقرار الاحالة .

ومن حيث انه بتاريخ ١٢ اكتوبر سنة ١٩٢٤ قضت محكمة النقض والابرام المصرية ان العيب في الذات الملكية قد يكون بطريق التعريض كما يكون تصريحا وان للمحاكم ان تبحث موضوع المقال المطروح امامها لاستظهار ما قد يكون

فيه من الامور المعاقب عليها ، وان ذلك يقتضي الذهاب في تأويل معانيه لتعيين من يكون قد اريد بالمطاعن وعملا بهذا المبدأ بحثت المحكمة المذكورة القضية التي كانت تنظرها وجاء في حكمها : انه يتبين ان المقال يشمل العبارات المبينة في تقرير الاتهام ، وهي في مدلولها تسند العيب الى الذات الملكية التي تعينت من مرامي الفاظه وعباراته ، الى حد يصعب صرفه الى غير حضرة صاحب الجلالة ، ولا عبرة الى استناد محكمة الجنايات الى ماضي المتهم تدليلا على حسن نيته ، ان مجرد نشر عبارات مع العلم بمضمونها تقطع بسوء النية .

ومن حيث انه مما تقدم يكون لهذه المحكمة الحق في انزال العقاب بالمتهمين متى ثبت لديها ان المقالات موضوع المحاكمة تشمل عيبا في حق الذات الملكية سواء كان هذا العيب قد اسند اليها تصريحا او تلميحا، وكما ان لها الحق ان تستنتج ذلك من مدلول العبارات ومرامي الالفاظ الواردة بالمقالات ولا يمنعها اذن من مؤاخذة المتهمين كون العيب لم يكن مسندا لحضرة صاحب الجلالة الملك تصريحا ، وذلك بخلاف ما ذهب اليه الدفاع عن المتهم الثاني من قوله : ان العيب المعاقب عليه بالمادة ١٥٦ من قانون العقوبات المطلوب تطبيقها انما يجب ان يكون اسناده مباشرة وصراحة للذات الملكية ، فأما قوله «صراحة» فقد تبين مما تقدم ان التفسير الصحيح للمادة ١٥٦ هو ما ذهبت اليه محكمة النقض والابرام بأن العيب لا يجب ان يكون موجها مباشرة لانه موجه الى الوزارة الحالية فهذا هو الموضوع المطلوب من المحكمة الفصل فيه وهو ما ستبين رأيها بشأنه مؤيدا بالدليل .

ومن حيث انه يتعين بحث المقالات المطعون فيها تحت ضوء الاعتبارات المتقدمة . ومن حيث ان المطلع على هذه يجد الادلة تفيض على ان المتهم الثاني قد اقترف جريمة العيب في حق الذات الملكية الرفيع فأسند اليها امورا ليس فيها فقط اخلال بالواجب المفروض على كل فرد من الاجلال لهذه الذات السامية ، بل ان هذه الامور تجاوزت هذا الحد الى اسناد اعمال لجلالته تؤذي شعوره وتظهره بمظهر المعتدي على حقوق الامة .

ومن حيث ان القارىء للمقالات المشار اليها يجد ان (ص) والمتهم قد تلاقيا عند لفظة «الرجعية» ووقع اختيارهما عليها وجعلاها عنوانا للمقام الجليل الذي لا يجرآن على ذكره بالتصريح ــ وهو مقام الملك المعظم ــ لانهما ذكرا هذا

اللفظ في مناسبات وملابسات تاريخية وسياسية تصرفه حتما وبلا عناء في التفسير والتأويل الى حضرة صاحب الجلالة الملك كما سيجيء البيان .

وعليه فليست كلمة «الرجعية» في المقام الذي ذكرت فيه واعتبرتها المحكمة بسببه دالة على جلالة الملك مقصودا بها كما قال الدفاع كل فكرة او شخص او هيئة مسؤولة الان او فيما مضى عن هدم دستور البلاد او العبث بحرياتها . وليس مثله مثل عبارات الديمقراطية او الديماجوجية وليس مقصودا في المواضع الآتي تفصيلها لا الاحزاب ولا الوزراء بل الذات الملكية كما سبق القول .

ومن حيث ان المتهم الثاني كتب في المقال الاول بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ما يأتي : « اعتقادي ان هذه الازمة هي ازمة الرجعية قبل كل شيء ، والرجعيون اعداء الدستور كانوا يتهيأون من بعيد لالغاء الحياة النيابية او لابقائها ناقصة مشوهة تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون في القرون الوسطى وكانوا يتوهمون انهم قادرون على تأليف وزارة وفدية تتقدم الى البرلمان فتشطره شطرين ، الى اخر ما جاء في هذه العبارة .

والمفهوم بداءة من ذلك ان المتهم الثاني قصد بالرجعية والرجعيين جهة غير جهة الوزارة الوفدية المراد تأليفها ، ذلك لان الجهة التي تستطيع تأليف وزارة او اسنادها ــ وهو المعنى المقصود هنا ــ جهة ذات سلطان وتعيينها على هذا الوجه يصرفها مباشرة الى جلالة الملك الذي يملك وحده حق اسناد الوزارة والتعبير هنا بالرجعية والرجعيين واحد فان اللغة تجيز استعمال الجمع في مقام المفرد تنويعا في التعبير .

ومن حيث ان المتهم الثاني كتب كذلك في المقال الآنف الذكر ما يلي : « فلا يسعني ان اعتقد ان كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية وان الوفاق قام بين هذه الوزارة والرجعية : هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين». وظاهر جليا ان الكاتب اراد بجهة الرجعية جهة ذات مكان عال وسلطان عظيم، والا لما استقامت هذه المقابلة فلا يمكن الافتراض ان الكاتب قد قابل هنا بين سلطة الانجليز وسلطة الوزارة ، والافتراض البادي للذهن والمتبادر للفهم انه انما يقابل بين جهتين عظيمتين هما جهة الانجليز وجهة صاحب الجلالة .

ومن حيث ان المتهم الثاني كتب في المقال الثاني المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة

١٩٣٠ العبارة الاتية « اتستطيع الرجعية ان تظن ظنا او تتوهم توهما انها هـي التي طلبت ذلك • ـ يشير الى الاستقلال ـ فكان ، او انها كانت تطلبه على اي وجه من الوجوه فيكون اتستطيع ان تذكـر لنا كلمة واحـدة قالتهـا في سبيل ذلك او تدبيرا واحدا دبرته او نية واحدة اظهرتها بأي نوع من انـواع الظهور» فهذه العبارة قاطعة في الدلالة على ان المتهم انما اراد بلفظة الرجعية جلالة الملك لان معنى العبارة لا يستقيم بأي حال اذا كان المراد بالرجعية هنـا الوزارة كما يقول الدفاع ، اذ المعلوم للكافة ان بعض رجالها على الاقل قـام بما ينفي الكاتب صدوره من الرجعية ، وانما اراد الكاتب ان يستغـل جهل الجمهور بالتقاليد الملوكية التي تتنافى مع اظهار ما يبذله الملوك عادة في هذا السبيل •

ومن حيث ان الكاتب (ص) كتب في مقال نشر في ١٣ سبتمبر سنـة ١٩٣٠ وافق عليه المتهم الثاني في مقاله المنشور في ١٤ سبتمبر سنـة ١٩٣٠ « ان الرجعية سعت في انجلترا ليكون هذا التعديل في صالحها ليحل استبدادها محل استبداد محمد محمود باشا ، فلما لم تفلح في هذا المسعى وعادت الحياة الدستورية ارادت من وزارة النحاس باشا ان تكون آلـة للاعتداء على حقوق الامة ، ولكن الوزارة النحاسية لم تكن تقبل هذا فاستقالت حكيمة كريمـة وهنا لم يكن للرجعية بد من احداث الانقلاب» والمحكمة ليست في حاجة الى التدليل بأن الرجعية هنا انما يقصد بها جلالة الملك ، وليس ادل على ذلك مـن تلك المناسبات التي يذكرها الكاتب فليس في هذا البلد هيئة سياسية فضلا عن افراد تستطيع ان تجعل وزارة النحاس باشا آلـة للاعتداء على حقـوق الأمـة بحيث اذا لم تقبل تضطر للاستقالة •

ومن حيث انه جاء ايضا في مقال (ص) المشار اليه والذي وافق عليـه المتهم الثاني في مقال ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ما يأتي :

« وابلغ من كل ما تقدم ان بوادر الازمة ظهرت قبل المفاوضـات فلـم تستطع الحكومة النحاسية ان تتفق على تعيين الشيوخ وكبـار الموظفيـن ، واضطرت الى تأجيل النظر في ذلك الى ما بعد عودة الوفد الرسمي » • وهذه العبارة قد ذكرت في سياق التدليل على ان الازمة هي ازمة الرجعية ، وليـس يخفى على احد ان الوزارة النحاسية لم تكن لتعجز عن الاتفاق فـي هذيـن

الشأنين الا اذا كان المراد بالرجعية جلالة الملك الذي له حقـه الدستوري في تعيين الشيوخ وكبار الموظفين •

ومن حيث ان المتهم الثاني قد استهل المقال المؤرخ في ١٤ سبتمبر سنـة ١٩٣٠ بعبارة صريحة في موافقته لرأي الكاتب (ص) في المراد بكلمة الرجعية ، وهو يتفق معه على بيانه المفصل في مقاله السالف الذكر ، وزاد المتهم الثانـي على الامور المفصلة في هذا البيان قوله « ان الرجعية في سبيـل الاستعـداد لمسخ الدستور تحتضن الاذناب » الذين وصفهم بالاوصاف المبينة في المقـال ويؤخذ من هذه الاوصاف تحديد صريح لمركز بعض هؤلاء الاذناب ، اذ اسند اليهم افعالا تدل على ان لهم سلطة وزارية فيتعين ان هذا الاحتضان لهم حاصل ممن يملك تعيين الوزراء وهي جهة صاحب الجلالة الملك •

ومن حيث انه يتبين من الوقائع والادلة السابق ذكرها ان المتهم الثانـي قد عاب في حق الذات الملكية ، ليس فقط بالادلال عليها بلفظ معيب هـو « الرجعية وهو وحده كاف باتفاق الدفاع عن هذا المتهم لتكوين جريمة العيب المنصوص عنها بالمادة ٥١٦ بل بنسبة امور شائنة اليها كادعائه بانهـا كانت تتهيأ من زمن بعيد لالغاء الحياة النيابية وانها لا تستطيع ان تتوهم انها هـي التـي طلبت الاستقلال او بدا منها اي عمل او اية نية للوصول اليه ، وانها ارادت من وزارة النحاس باشا ان تكون آلة للاعتداء على حقوق الامة وهو الامر الـذي وافق عليه صديقه المستتر وراء (ص) وانها تحتضن الاذناب الذيـن نعتهـم بأحط الاوصاف ، الى غير ذلك مما جاء في المقالات موضوع الاتهام •

وحيث ان الدفاع عن المتهم الثاني قد بذل جهدا محمودا محاولا محـو هذه الصحف التي سودهـا المتهم المذكور بقلمه واسدال ستـار على ما فيها • ولكن الجهد مهما بلغ ما كان ليستطيع ان يداري جريمة واضحة وادلة قائمة بينة بل ان مهمة الدفاع كانت تفوق كل مجهود والتهمة لا دافع لها • فقد استشهد الدفاع بماضي عباس محمود العقاد افندي وبقصائده التي صاغها فـي الذات الملكية وببعض فقرات جاءت في مقال من المقالات يوجـه فيها الطعـن الـى «المنافقين الذين يستعدون الانجليز على القصر» ، فاما الماضي وما تميز به من الولاء وادب العبارة ومن الاشادة بالعمل الجليل ، فانه لا يغني عن الحاضر وهذه صفحته التي يحاكم المتهم اليوم من اجلها واما الخطاب الموجه الـى المنافقين

فهو طعن لهم لا دفاع عن القصر .

ومن حيث انه متى ثبت ان المقالات السالفة الذكر بما فيها مقال (ص) تحوي عيبا في حق الذات الملكية فالمتهم الاول مسؤول حتما عن هذه الجريمة بصفته فاعلا اصليا ، ذلك لان القانون المصري يفترض قرينة الاجرام افتراضا في الاشخاص المبينين في المادة ١٦٦ مكررة فلا يقبل منهم اي عذر من شأنه ابعاد المسؤولية الجنائية كالقول بانهم لم يقرأوا المقالات المعاقب عليها ، او لم يفهموها كما يدعي المتهم الاول متى ثبت اتصالهم فعليا بادارة الجريدة وهو حال هذا المتهم في هذه القضية ، فدعوى الدفاع بأن المتهم الاول جاهل لا يستطيع فهم العبارات التعريضية المذكورة بالمقالات المتقدمة دعوى غير مقبولة واذا كانت المادة ١٦٦ مكررة تعاقب الباعة او الموزعين او اللاصقين وهم اشخاص مفروض فيهم ليس فقط عدم الفهم بل القراءة فمن باب اولى مدير الجريدة المسؤول عما ينشر فيها مسؤولية جنائية مفروضة عليه من القانون فرضا والمتهم الاول لم يدفع هذه القرينة القانونية بدفع مقبول .

ومن حيث انه لما تقدم يكون قد ثبت بان المتهم الاول في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ بمدينة القاهرة وبلاد المملكة المصرية وبصفته مديرا لجريدة المؤيد الجديد : عاب علنا في حق الذات الملكية بأن نشر مقالات في الجريدة المذكورة بالاعداد ٢١و٢٢و٢٥و٢٦و٣٣و٣٦ الصادرة في ٩و١٠و١٣و١٤و٢١و٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت عناوين « الوزارة البريطانية والازمة المصرية الحاضرة» و « سيعدل الدستور »و« الرجعيون والانجليز المحليون » و « الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها »و« رأي في الازمة الحاضرة ولكن كيف» و «والرجعية هي العدو الاكبر في الازمة الدستورية الحاضرة» بالتعاقب عبارات العيب السابق بيانها في حيثيات هذا الحكم .

والثاني بصفته شريكا للمتهم الاول في الجريمة آنفة الذكر بانه اتفق معه على ارتكابها وساعده مع علمه بها في الاعمال المسهلة والمتممة لها بأن انشأ المقالات المحتوية على العيب السالف بيانه الواردة في الاعداد رقم ٢١و٢٢و٢٥ و٢٦و٣٣و٣٦ من الجريدة المتقدم ذكرها بناء على ذينك الاتفاق والمساعدة .

وعقاب المتهم الاول ينطبق على المواد ١٤٨و١٥٦و١٦٧ من قانون العقوبات وعقاب المتهم الثاني ينطبق على المواد ١٤٨و١٥٦و١٦٧و٤٠ فقرة

ثانية وثالثة و٤١ من قانون العقوبات .

ومن حيث انه فيما يتعلق بتقدير العقوبة فقد راعت المحكمة من جهة انكار المتهمين للتهمة التي اسندت اليهما ورأت في هذا الانكار توبة وندما، ومن جهة اخرى جسامة لجريمة على انها من جسامتها قد لاحظت ان مثلها لا يقصد الشارع اولا وبالذات العقاب على ما هو واقع منه بالفعل ، بل يقصد بالاخص من ايقاع منع وقوع اي عيب اخر في حق الذات الملكية الواجب للمصلحة العامة ان تكون مصونة محاطة بالاجلال .

فلهذه الاسباب وبعد رؤية المواد آنفة الذكر ، حكمت المحكمة حضوريا بحبس المتهم الاول محمد فهمي الخضري افندي مدة ستة اشهر حبسا بسيطا وبحبس المتهم الثاني عباس محمود العقاد افندي مدة تسعة اشهر حبسا بسيطا وامرت بطبع الحكم في ثلاث جرائد يومية بمصاريف من قبل المحكوم عليهما.

صدر هذا الحكم علنا بجلسة يوم الاربعاء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ و ١١ شعبان سنة ١٣٤٩ .

نص دفاع مكرم عبيد عن العقاد امام القضاء سنة ١٩٣٠ :

يا حضرات المستشارين :

لقد سمعتم مرافعة النيابة وتبينتم ما فيها من جهد ـ بل واجتهاد ـ في التدليل والتخريج والتأويل ، ولو انكم تفضلتم فالقيتم نظرة واحدة الى خارج المحكمة حيث القوات تتوزع وتتجمع ، واخرى الى قفص الاتهام : حيث المتهم البريء يتوجع ، ونظرة ثالثة الى موضع الاتهام في ذاته لاقتنعتم بأن القضية المعروضة على حضراتكم ان هي الا مأساة ينفطر لها القلب ، اكثر منها قضية ينسجم لها البيان .

ذلك هو الوضع الصحيح للقضية ، فهي مأساة امة تمثلت في في مأساة فرد ، ولكن النيابة رأت ان تتملص من الجوهر الى المظهر فرسمت لنا من تهمة باطلة صورة هي اشبه الصور بالحق ، وان لم تكن من الحق في شيء، وفي ذلك خطر هو كل الخطر ، فان اخطر الباطل واشده تضليلا ليس ما بينه وبين الحق هوة سحيقة ، بل هو الذي يفصله من الحق طلاء خارجي او قشرة رقيقة .

لذلك ارى واجبا لزاما علي ان اعرض للمحكمة الصورة الحقيقية لهذه

القضية ، مجردة من كل طلاء ، عارية من كل رياء ، وان ابرز ما خفي من عواملها وما ظهر ، اذ بغير ذلك لا يتسنى لي ان اقوم بمهمة الدفاع فيها •

والواقع ان هذه القضية التي تبدو في الظاهر بين النيابة والاستاذ العقاد هي في الحقيقة بين الرجعية والدستور ، او هي بالاحرى بين مبدأي التأخر والتقدم ، ايا كان الشكل الذي قد يتخذه كل من هذين المبدأين او الاسم الذي يتسمى به في مختلف الازمنة والظروف ، وما العقاد الا خصم للرجعية عنيد، انهال عليها بضربات قتالة رأت الا قبل لها بها فاعتزمت ان تنكل به قبل ان ينكل بها ، ولما لم تقو على مجابهته وجها لوجه فرت الى السدة الملكية تتعلق بركابها وتتمسح باعتابها ولم تستح ان تتخذ منها ستارا لعيوبها فاسندت العيب للذات الملكية والعيب كل العيب فيها •

ولكن : ما هي الرجعية التي عناها العقاد ؟؟ هي كل فكرة او هيئة او شخص مسؤول عن العبث بالدستور ، او بحريات البلاد في اي زمن من الازمان وبما ان نفس الدستور الذي استمات العقاد في الدفاع عنه يقضي بان الملك غير مسؤول وان ذاته مصونة فلا يمكن ان ينصرف لفظ الرجعية الى الذات الملكية لا موضوعا ولا قانونا •

يا حضرات المستشارين :

لو ان هذه القضية هي الوحيدة من نوعها لجاز ان يكون تصويرنا لها وتعليلنا لاسبابها محل ريبة وتشكك ولكن الدليل لا يعوزنا على ان الرجعية في صراعها الدائم مع خصومها طالما لجأت الى مثل هذا السلاح المعيب وهو التحكك بالعرش وشخص الجالس عليه ، من غير ان يكون للعرش اي شأن من قريب او بعيد في الخصومة ، واليكم بعض الامثلة على ما ذكرناه ، وهي امثلة رائعة لا يأتيها الباطل من اي ناحية من نواحيها :

منذ امد بعيد ينوف على الالف وتسعمائة سنة ، ظهر بين الناس رجل من رجال الله الاطهار هو كلمة الله وروح منه ، ولكنه كان بين الخلق متواضعا فقيرا لا يكاد يكون لجسمه غطاء ولا مثوى ، حتى انه كان يقول عن نفسه: « ان لطيور السماء اوكارها وليس لابن الانسان مأوى » وكانت رسالته الى الناس ان اعبدوا الله عبادة الروح والحق ، وانبذوا من الدين تقاليد الرجعيين من رجاله ، اذ هي ليست من الدين في شيء •

خصومة دينية كما ترون ولكن الرجعيين من رجال الدين لم يجدوا سبيلا للانتقام من خصمهم الا ان ينصبوا له شراكا ليتهموه بعدم الولاء لقيصر صاحب العرش ، ورغم قوله صراحة : « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله »، فانهم شكوه الى الحاكم الروماني مدعين انه طعن على قيصر ، ولو ان لخصومه لسان النيابة المصرية لقالوا بالامس ما تقوله هي اليوم « انه عاب في الذات الملكية » .

الا ترون يا حضرات المستشارين كيف تلجأ الرجعية ــ حتى في المسائل الدينية البحتة التي لا شأن لها بالملك ولا بالملوك الى الانتقام بالملكية ؟ وهل لا ترون بان الرجعية هي اليوم والامس والى الابد واحدة في تفكيرها وفي تدبيرها.

ساقوا المسيح عيسى الى المحاكمة فأخذت الحاكم الروماني روعة من رنة صوته وجلال صمته ، ولما تبينت له براءته من كل عيب اسقط في يده ، ولم يدر ما عساه يفعل ، ولعله احس في النفس حسرة ، او خشي من الضمير ثورة فأمر باحضار اناء من الماء وغسل يديه امام الجميع ثم صاح قائلا « اني بريء من دم هذا البار » ولكن واسفاه فانه رغم مسؤوليته واعلان حياده التام : سلم المتهم البريء الى خصومه من الرجعيين ــ وكان اسمهم وقتئذ الفريسيين وامر جنده من الرومان ان يرقبوا التنفيذ ، فاحاطوا به مهددين مستهزئين .

يا حضرات المستشارين :

لم يكد يمضي على هذا الحادث الجليل بضع مئات من الاعوام حتى ارتفع من صحراء العرب صوت عذب ينذر الكافرين فتهلع النفوس لدويه ، ويبشر المؤمنين فتتفتح القلوب لوجيه ، بدأ الرسول الامين بتبليغ رسالته الى بني قومه فدعاهم الى عبادة ربه ، وتحطيم اصنامهم وما كان لقومه وقد عرفوا فيه الامانة والقناعة والوداعة ان يسندوا اليه مطمعا خفيا ، او يظنوا انه كان يبغي من متاع الدنيا شيئا، وهو الذي كان يدعو باسم ربه الى الآجلة دون العاجلة .. ولكن زعماء الجاهلية الاولى ــ والجاهلية هي الرجعية ــ اتهموه بالطعن على حكمتهم ، والطموح الى سلطانهم ، وتمادى بهم الوهم الى حد ان عمه ابا طالب فاتحه في ذلك ولوح له بالحكم والسلطان على ان يتنازل عن رسالته فما كان من النبي الكريم الا ان قال له : « يا عم ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما فعلت

حتى يظهره الله او اهلك دونه » .

اذن : يستخلص من هذين المثلين الرهيبين اللذين هما محل ايمان واجماع ان الرجعية لا تتورع حتى في المسائل الدينية والنفسية البحتة عن اتهام خصومها بالمساس بنظام الملك او بشخص ولي الامر ، وذلك تحقيقا للنكاية بهم وامعانا في الانتقام منهم . فكيف الامر في قضية كقضيتنا هذه تتصل مباشرة بالشؤون السياسية والنظم الحكومية ؟ هل من عجب اذا كانت الرجعية السياسية او الحكومية تنقم على الاستاذ العقاد دفاعه الباسل عن المبادىء والنظم الدستورية فترميه بتهمة العيب في الذات الملكية ، وترى من السهل عليها ان تقلب بشيء من التحوير والتفسير والتنقيب بين السطور الطعن البرىء في نظام الحكم الى العيب في شخص الملك ؟؟ لا عجب ولا غرابة ، بل الغريب ان تتطلب من الرجعية اساليب غير رجعية ، ولا حياة للرجعية في جو من الانصاف والحرية . ولكي تتبينوا – حضراتكم – الاسباب الحقيقية التي دعت الى رفع هذه القضية – وهي كما ذكرنا اسباب كيدية – وجب ان نتتبع ادوار هذه القضية فهي اولا نفسية العقاد فيما كتب ، ثم نفسية خصومه واساليبهم ومتى وضحت لنا هاتان النفسيتان امكننا ان نفهم التهمة على صحتها سواء من جهة الوقائع او التكييف القانوني وبعبارة اخرى فان دفاعنا ينقسم الى ثلاثة اقسام رئيسية :

١ – بواعث الاتهام .
٢ – التكييف الموضوعي للاتهام .
٣ – التكييف القانوني للاتهام .

قلنا ان الباعث على الاتهام يتضح جليا من تحليل عقليتين متعارضتين عقلية العقاد وعقلية خصومه السياسيين .

اما نفسية العقاد بازاء الرجعية الحكومية فهي من نفسية الامة جمعاء ومثلها مثل رجل رأى بيته عرضة للزلازل والعواصف فشرع في تدعيم جنباته وسد فتحاته ، فجاءت الحكومة غاضبة صاخبة وهدت البيت على رأس صاحبه، ولم تجد لها عذرا في تحطيمه الا ان المسكين شرع في تدعيمه . واذا كان للعقاد صفة تمتاز بها شخصيته كرجل – او عبقريته ككاتب وشاعر – فهي الصراحة التي تأبى المداراة والموارية او اللف والدوران على حد تعبيره في

بعض مقالاته ، ولو ان النيابة تفهمت نفسيته .. لادركت ان مثل هذه الصراحة تأنف ان تستتر وراء لفظ او عبارة لانها تعني ما تقول وتقول ما تعني . بيد ان هذه الصراحة نفسها هي التي حفزت خصومه الى المبادرة لتكميمها فقد كان العقاد صريحا وجريئا في هجومه على الرجعية وفضح نياتها . وكان اول من عناه بالرجعية الوزارة الحالية كما هو ظاهر من مقالاته ، والوزارة خافت من اول الامر تلك الصراحة فحاولت اسكاتها بتعطيل الجرائد التي يكتب فيها العقاد ، كما عطلت غيرها من الجرائد التي تولى امرها غيره من الكتاب الاحرار ، وهي اليوم تسوقه الى المحاكمة كما فعلت مع غيره ، وكما ستفعل مع هذا الغير من بعده ، اذا طال بهذه الوزارة العهد .

يا حضرات المستشارين :

هل انتم في حاجة الى ترسم هاتين العقليتين وها هما امامكما ماثلتان ، هاكم واحدة منهما عزلاء سجينة في قفص الاتهام وهي مع ذلك مطمئنة ابية وهاكم الاخرى تصول وتجول من غير قيد ولا أسر ، ولكنها متحصنة بالاسلحة والدروع فهي لعمري خائفة وجلة ، عقليتان احداهما لمصري حر وكاتب فذ ونائب من نواب الامة .. رأى البرلمان يغلق والاقلام تحطم ، ودعائم الدستور تقوض وحرياته تنقض،فشحذ قلمه ولسانه وفكره — وهي كل اسلحته — لمحاربة الرجعيين والذب عن دستور الامة الذي اقسم يمين الولاء له والدفاع عنه وما كان لمثل العقاد ان يحنث بيمينه ، واليمين حبة من قلبه وعهد الى ربه ، والعقلية الاخرى عقلية وزير تسنم ذروة الحكم على انقاض الدستور وكان مبيتا النية على هدم الدستور حتى قبل ان يتولى الحكم — كما اعترف بذلك في حديث له مع جريدة المقطم — ولكنه كان مضطرا في اول الامر لمداراة الرأي العام حتى لا يصدمه صدمة عنيفة من جهة وحتى يتسع له الوقت لحبك الدسيسة من جهة اخرى ، لذلك اعلنت الوزارة عند تكوينها انها لن تعتدي على الدستور او تمسه بسوء ، وكان جل همها ان لا تفتضح نياتها للناس حين يحين الحين لمباغتتهم بها ، ولكن رجال الصحافة وفي مقدمتهم الاستاذ العقاد سخروا اقلامهم لفضح ما خفي من النيات بما ظهر من الاعمال المنافية للدستور فبادرت الوزارة الى غل الاقلام وساقت بعض الكتاب فيها الى الاتهام ، ثم تدرجت من هذه الى تعطيل الالسن بمنع الاجتماعات والقبض على الافراد ، ولقد ثارت

لهذه الاجراءات الخانقة نفس العقاد الحرة ، فكتب بقلم من نار محذرا الوزارة وانصارها من مغبة هذه الاساليب الرجعية ، منذرا اياهم في احدى مقـالاتـه بانه اذا حطمت الاقلام فالالسن تنطلق واذا كمت الافـواه فالنفـوس تشتعل وكأنه يقول مع القائل :

كسروا الاقلام هـــل تكسيرها يمنع الالسن ان تنطق جهرا
قطعوا الالسن هل تقطيعهـــا يمنع الاعين ان تنظرا شزرا
اغمضوا الاعين هل اغماضهـــا يمنع الانفاس ان تخرج زفرا

ذلكم بيان موجز لنفسية العقاد ونفسية خصومه ومنه ترون ان العقـاد كان له نصيب الاسد في محاربة الرجعية فلا عجب ان يكون لـه اكبـر نصيب من نقمتها ولكن اذا لم نعجب من عقلية الوزارة وتصرفاتها الرجعية فالعجـب ان تكون النيابة وهي الامينة على الدعوى العمومية اداة للرجعية وسوطـــا لنقمتها ، فلم تكتف بان اتهمته حيث لا تهمة بل سايرت الوزارة في سبيــل الانتقام منه ومن قلمه فقررت القبض عليه ومعاملته في السجن معاملة اللصوص والمجرمين . وفاتها انها بحبس العقاد قد غيبت قلمه وفضحت نفسها، فانهـــا انها هي نفسها ، وفي تهمة كهذه التهمة نفسها ، لم تقرر القبض على متهم اخر لا لسبب الا انه لم يكن عباس العقاد.

نعم ان للنيابة الحق قانونا في القبض ، ولكن الحق اذا اسيء استعماله كان هو الباطل فعلا ، واذا كان منطق البائسين يقضي بان المساواة في الظلم عدل فبالاحرى لا يكون التفريق في الحق عدلا .

تلكم هي الحقائق الاولية التي اغفلتها النيابة في استعمال حقها، فجعلت من حقها باطلا ، والا فما معنى القبض على الاستاذ العقاد وعدم القبض عـلى غيره فيما مضى كالاستاذ محمود عزمي مثلا والتهمة واحدة في الحالتين والنيابة هي هي لم تتغير . فما الذي تغير اذن ؟

هو نظام الحكم ولا ريب ، فقد كانت الوزارة وقتئذ دستورية شعبيـة واصبحت الان استبدادية رجعية . هي الرجعية اذن التي تحرك النيابة فتنطق بلسانها وتقبض بسلطانها . اليس كذلك يا رجال النيابة ؟ والا فافتونـا كيف تكيلون بكيلين فتحللونه عاما وتحرمونه عاما ..

وليس للنيابة ان تنتحل الاعذار فتدعي في درجة الثبوت بين القضيتين ،

فقضايا العيب وما شاكلها من جرائم النشر تثبت عادة بطريق الاستدلال من نص العبارة المنشورة والنيابة رأت التهمة ثابتة في الحالتين ، بل ان الاستاذ عزمي نسب الى جلالة الملك بصريح اللفظ تصرفات قال ان فيها اعتداء على الدستور ، وكان ذلك لمجرد حركة تعيينات وتنقلات في المحاكم الشرعية بينما الاستاذ العقاد لم يشر الى الملك بحرف بل وجه مطاعنه الى الرجعية والرجعيين مدفوعا بعامل الغيرة على الدستور الذي رأى بنيانه يتداعى امام عينيه .

فكيف جاز للنيابة اذن ان تقبض على هذا دون ذلك وكلاهما متهم في نظرها وتهمة احدهما صريحة دون الاخرى ؟

اللهم لا تعليل الا ان النيابة تعمل اليوم باسم وزارة رجعية بينما كانت بالامس تعمل في ظل الحياة الدستورية وكفى بهذا فارقا ودليلا .

بيد ان حبس العقاد لم يكن فيه اجحاف فحسب بل تعذيب ايضا ، فهو جريمة ضد العدالة والانسانية معا . لا اشير بذلك الى ان العقاد رجل سياسي وانه كان من الواجب ان يعامل معاملة المجرمين السياسيين كما وعدت بذلك وزارة عدلي باشا البرلمانية ، كلا .. فلا اطمع في مثل هذا من وزارة العهد الحاضر ، ولكني اقول : ان العقاد رجل مريض ولقد رأيتموه بالامس مريضا وسمعتموه مريضا وتوجعتم له مريضا وللمرض روعة ورحمة .. وللخصام فيه هدنة .. ولكن النيابة ابت او خشيت ان تتهادن مع خصم طريح الفراش، صريع المرض فلم تأبه للشكاوى التي قدمها مؤيدة برأي الاطباء ، وقد رجوت بنفسي حضرة صاحب العزة النائب العمومي ان ينقله الى غرفة خاصة في مستشفى السجن اذ ان حالته العصبية والصحية تقضي مثل هذه العزلة عن بقية المرضى ورجوته اذا لم يتيسر ذلك ان ينقله الى سجن الاجانب ، فوعد ان يبذل اقصى جهده لاعداد غرفة خاصة في سجن مصر ، ولكن هذا الجهد لم يثمر مع الاسف ، فالعقاد كان الى اليوم محبوسا في زنزانة ضيقة لا تدخلها الشمس وتبللها قطرات الرطوبة كما بين لكم ذلك في الجلسة السابقة وهو لا يزال مريضا بل ان المرض اخذ في الاشتداد عليه حتى اصبحنا نخشى على حياته الغالية سوءا وان يصبح السجن له قبرا حيا .

يا حضرات المستشارين :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ... ولا الصبابة الا من يعانيها

لقد كنت نزيل السجن في وقت من الاوقات فاذا حدثتكم عن معيشة السجين في الزنزانة فهو حديث الخبير ولا فخر .

تصوروا حجرة صغيرة جرداء وكأنها جحر ليس فيها نافذة يطل منها السجين وبجوار سقفهاكوة تطل هي على المسكين اما الشمس فلا تدخلها مطلقا بل من الساعة الرابعة بعد الظهر يدخلها الظلام ويبيت فيها حتى الصباح، اذ ان النور نعمة حرمت على السجين ولم ينعم بها العقاد الا منذ ايام قليلة كما اخبرنا حضرة رئيس النيابة ثم ان الزنزانة تظل مغلقة صباح مساء الا عند الخروج لحاجة او لرياضة في حوش السجن مرة او مرتين ، وبما ان ليل الزنزانة يبدأ حوالي الساعة الرابعة او الخامسة بعد الظهر فليس في مقدور السجين ان يقرأ كتابا او جريدة بل كل ما يقدر عليه هو ان ينام او لا ينام.

صوروا لانفسكم حياة رجل مفكر متحضر كالعقاد في مثل هذا الجحر ثم صوروه لانفسكم مريضا بصدره في حجرة مرطوبة لا تدفئها شمس ولا نار لاسيما وانه قد اصيب من زمن بذات الرئة ثم ان لم تزعجكم الصورة فصوروه لانفسكم مريضا بامراض اخرى كالاعصاب والمعدة والحنجرة والزكام المزمن الذي ترتب عليه نزول الدم من انفه . ولكن ما حاجتكم الى الصورة وقد رأيتم بالامس وترون اليوم مرسوما على جبينه اثر ما عاناه من الالام التي كادت تودي به الى رمسه لولا رحمة من ربه وقوة من نفسه . وقد رفع العقاد الشكوى تلو الشكوى واليكم صورة آخر شكوى قدمها :

حضرة صاحب السعادة مدير مصلحة السجون بعد تقديم واجب الاحترام ارجو ان تسمحوا لي بتلخيص شكواي المذكورة التي آمل ان يكون لها نصيب من الاجابة انني اذا قلت يا صاحب السعادة ان رطوبة الزنزانة تتلف صحتي وتعرض حياتي للخطر ، فلست اقول غير الواقع الذي يتساوى في العلم به الطبيب وغير الطبيب ، فانني اصبت فيما مضى بالالتهاب الرئوي والنزلات الشعبية وحالة الانف والحنجرة والصدر هي عندي معرضة للنزلات التي لا يسهل شفاؤها في جو الرطوبة بل لا تزيدها الا تفاقما واشتدادا .

وهذا عدا عسر الهضم المزمن ومرض الاعصاب ومن كان في مثل هذه الحالة يحتاج الى الشمس في محل نور حاجته الى الحياة ويتوقى الرطوبة كما يتوقى السم القاتل ، ولم تمض علي في الزنزانة عشرة ايام او نحو ذلك حتى

اصبت بزكام شديد لا يزال مستمرا الى اليـوم ، اي لا يزال مستمـرا بعـد انقضاء اكثر من خمسين يوما في جهد مقلق وضيق نفسي متتابع ، وقد سرى الى الحنجرة فالتهبت ثم تحول الى سعال واصبح السعال منـذ عشرة ايـام مصحوبا بافراز وبلغم كثيف يميل احيانا الى الاخضرار • وهذه حالة غير مأمونة على الصدر ولا سيما في جو الرطوبة الذي لا يصلح لشفاء نزلة مـن هذه النزلات ولست اذكر ما يصحب الزكام من صداع وارق وما يصحبه من تأثير سيء في الاعصاب فان ذلك ظاهر بالبداهة بل اقول ان الرطوبة زادت عسر الهضم سوءا على سوء • فبعد ان كان يعتريني اياما متقطعة اصبح مستمرا في كل يوم لا يجدي فيه استعمال الادوية التي كانت تزيله في الاحوال العادية•

يا صاحب السعادة خلاصة ما اقول : ان صحتي تتلف في هذا الجـو الرطب الذي اعيش فيه وان حياتي نفسها معرضة للخطر وانـي لا اطلب الا الشمس في المكان الذي ابيت فيه وليس من العسر تدبيـر ذلـك وتقبلـوا الاحتـرام •

امضاء : عباس محمود العقاد

اليس هذا هو التعذيب بكل معانيه في عصرنا هذا ؟ عصر المدنيـة والنور ، سجين مريض بصدره يطلب الشمس فيحرمها ، ورجل فذ من انبـغ الكتاب المصريين ، واكبرهم نفسا ، واطهرهم يدا ، يرجو ان ينقل الى سجـن الاجانب ليعامل كما يعامل القتلة واللصوص من الاجانب فيستكثرون عليـه ذلك ، وتعتذر النيابة بأن سجن الاجانب تحت اشراف وزارة الداخلية فـاذا قيل لها انقلوا هذا المريض الى غرفة في المستشفى ، اجابت بأنها تستعمل الان كمخزن او مكتب ؟؟ وارحمتاه للانسانية من الانسان ؟ بل وارحمتاه للرجولة في عهد يبطش فيه بالمريض وهو صريع !•• هل تريدون مني بعد ذلك دليـلا يا حضرات المستشارين على ان القضية المرفوعة على عباس العقاد انما هـي قضية كيد وانتقام ؟ وهلا ترون الان لماذا حوكم المتهم وقد رأيتم كيف عومـل المريض ؟ وهلا ترون ان الرجعية ممثلة في الوزارة الحالية ارادت ان تحطـم هذا القلم الجبار فاوعزت الى النيابة برفع الدعوى وتلا ذلك ما رأيتم من قبض وتنكيـل •

اليست هذه الاجراءات وحدها مع ما سبقها من مقدمات دليلا كافيا على

ان الخصومة سياسية بحتة لا تعرف القانون ولا القانون يعرفها ؟

ومع ذلك ، فسترون حضراتكم في القسمين الثاني والثالث من دفاعنا الدليل تلو الدليل على بطلان التهمة موضوعا وقانونا .

القسم الثاني

وقائع الاتهام وتكييفها

اما عن وقائع الاتهام والاشارة الى الوقائع هنا من باب التجاوز فقط فليس في التهمة واقعة ما ، بل فيها فروض واستنتاجات والواقع ان النيابة قد تنكبت سبيل المنطق منذ اول الامر ، فبدأت بالبحث عن التهمة قبل ان تبحث فيها، واقنعت بها قبل ان تتبينها ، وكانت هذه هي الخطوة الاولى في منزلة ما اشد انحدارها وما ابعد قرارها ! .. فلذلك لم يكن للنيابة مناص من ان تتبع الخطوة بخطوات والهفوة بهفوات .. فافترضت اولا . ثم بحثت ثم اولت. ثم تعسفت ثم انتهى بها الامر الى حيث بدأت فوجهت الاتهام الى رجل ارادت او اريد لها ان تتهمه .

وها هي اليوم تذهب في مواقفها الى ابعد في التأويل والتخريج والتفريع مما ينبو عنه كل منطق . فما بالكم بمنطق قانون العقوبات الذي يقضي بأن لا عقوبة عن طريق القياس والتخريج وما بالكم بمنطق اللياقة الذي يقضي ان تصان الذات الملكية من تأويل تعسفي يسند اليها الرجعية من حيث لا مسند.

تقول النيابة : ان الاستاذ العقاد اراد بعبارة الرجعية الاشارة الى الذات الملكية ، ونقول ونكرر ان الرجعية التي عناها هي كل فكرة او شخص او هيئة مسؤولة الان، او فيما مضى عن هدم دستور البلاد، او العبث بحرياتها وان لفظ الرجعية لا ينصرف في مبناه ولا في معناه الى شخص الملك ولا سيما وان الدستور يخلي جلالته من المسؤولية وينص صراحة على ان اوامر الملك الشفهية او الكتابية لا تخلي الوزارة من المسؤولية .

ذلك قول النيابة وذلك ردنا عليها وما كان علينا ان نرد بل حسبنا ان نصمت حتى تقيم النيابة الدليل . ولكنا رددنا وسندلل على صحة ردنا حتى يكون لنا فخر البراءة ايجابيا لا سلبيا، انما يجب قبل ذلك ان نبحث ادلة

الاتهام التي تمسكت بها النيابة في التحقيق والمرافعة ، لنرى هل هي تثبت على المتهم ام لا .اما الدليل الاول والاكبر الذي ترتكن عليه النيابة في تحقيقها ومرافعتها فهو من اغرب ما رأينا من ابواب التدليل. تقول النيابة ان عبارة الرجعية تعني جلالة الملك ولماذا ؟ لانها لا يمكن ان تعني الا جلالة الملك .. وهنا يتساءل العقاد ايضا لماذا هذا والعبارة عامة لا ذكر فيها لشخص معين ؟ فتجيب النيابة بصوت الظافر المنتصر « نعم فان عدم ذكرك لشخص معين هو الدليل على انك تقصد صاحب الجلالة الملك ؟ » لعلكم تظنون انني اخطأت فهم عبارات النيابة ، ولكني اوفر على حضراتكم الدهشة فأتلو عليكم نص عبارتها بالحرف الواحد كما وردت في مرافعتها امام قاضي الاحالة في صفحة ٥١ من الدوسيه « ان المقالات التي كتبها الاستاذ العقاد خاصة بالرجعية والرجعيين كلها منصبة على جهة واحدة وهي حضرة صاحب الجلالة الملك ، ولا يمكن ان يستفاد منها اي جهة اخرى ، وكما قدمنا انه اذا كان للاستاذ العقاد ان يذكر جميع الاشخاص الذين اقتضت ظروف المقالات وسياق عباراته ان يذكرهم فان احجامه عن ذكر من يقصده بعبارة الرجعية بالذات لاكبر دليل على انه يقصد حضرة صاحب الجلالة الملك ، اذ انه ما كان هناك مانع يمنعه من تخصيص الرجعية والتنويه بأسماء اصحابها اذا كان يقصد جهة غير صاحب الجلالة الملك»

هذا هو دليل النيابة الاكبر كما تسميه فلعمري ما هو الاصغر ! بيد ان هذا الدليل فضلا عما فيه من تنافر منطقي يسميه المنطقيون (Petita Prircipi) او التدليل على التهمة بالتهمة فهو تدليل لا يتفق مع الواقع في شيء وذلك للاسباب الاتية :

اولا : ان الرجعية هي من العبارات المطلع عليها والتي تستعمل لذاتها فيفهم الناس مدلولها بمجرد الاطلاع عليها من غير حاجة الى تعيين اشخاص او نظم مثلها في ذلك مثل عبارات الديمقراطية والاريستوقراطية والديماجوجية والاستعمار الخ ، وليس ادل على ما ذكرنا من تعريف الاستاذ العقاد نفسه للرجعية فقد سئل منذ اول التحقيق عن المعنى الذي يقصده من كلمتي الرجعية والرجعيين في مقالاته فأجاب من غير تردد بما يلي ـ صفحة ٢٩ :

«الرجعية هي مجموعة عوامل مختلفة ، تكره التقدم وتدعو الى الجمود على القديم في كل شيء ، سواء كان سياسة او اجتماعا او تفكيرا وهي قديمة

العهد في مصر بطبيعة تكوينها ولها مظهر تبدو به في كل ظرف من الظروف في تاريخ النهضة المصرية » .

« وفي السياسة يوجد رجعيون يكرهون الدستور ويشيعون عنه اشاعات باطلة ، ويستعينون على هدمه بطلاب المصالح الشخصية ، وقد كان هؤلاء الرجعيون موجودين في مظهر من المظاهر قبل خمسين سنة » ..

يضاف الى ما تقدم ان عبارة الرجعية هي عبارة جامعة ولا تعرف كلمة غيرها تدل دلالتها على العناصر المختلفة التي تحارب الدستور ، فليس من الحق ان نحصر محاربة الدستور في طبقة من الطبقات ، او وزارة من الوزارات او حزب من الاحزاب ، والوزارة الرجعية الحالية سبقها غيرها وقد يتبعها مثلها .. وكذلك تكون حزبا رجعيا جديدا سبقه غيره من قبل وقد يليه اخر من بعد .. وهكذا دواليك .

ثانيا ــ انه بخلاف ما تدعي النيابة فان الاستاذ العقاد عين في مقالاته الاشخاص والهيئات الذين اشار اليهم بالرجعية والرجعيين ولم يذكر جلالة الملك ولم يشر اليه بحرف واحد وفي ذلك دليل قاطع يدحض اقوال النيابة بل وفيه دليل نفي لنا يهدم التهمة من اساسها ، خذوا حضراتكم مقالات العقاد التي هي موضوع المحاكمة والمقالات التي كتبها قبلها وبعدها بأيام قليلة، ولم تر النيابة مصلحة لها في تقديمها ، ففيها جميعا ترون ان المتهم اشار فعلا الى اشخاص الهيئات ووصفهم بالرجعية ، مع انه كان في غنى عن هذا التعيين، اذ ان عبارة الرجعية تشير بذاتها الى مدلولها كما سبق ان ذكرنا ، اشد من ذلك واقوى في التدليل انه لم يقتصر على تعيين الرجعيين بل استبعد منهم صراحة القصر ورجاله ، وهو دليل نفسي قاطع لا ندري كيف اجترأت النيابة على رفع الدعوى مع وجوده صريحا ناطقا .

واليكم الادلة التي تثبت ان العقاد لم يعن بالرجعية جلالة الملك بل اشخاصا وهيئات اخرى عناهم بالذات .

١ ــ استبعاد القصر صراحة في مقاله المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠ وهو من المقالات موضوع المحاكمة يقول الاستاذ العقاد ما يلي صفحة ٩ من الدوسيه :

« ايها الرجعيون الذين ما طلبوا الاستقلال لهذا البلد يوما ، ولا

يطلبونه الان ولن يطلبوه ، ولن يكـون لهم شـأن فيه لو استقـل كـل الاستقلال،وخرجت منه قوة المستعمرين ، ايها المنافقون •• ليس من الاستقلال ان تطلبوا مسخ الدستور فلا تستطيعوه ، فقولوا لنـا هل مـن الاستقلال ان يضايقكم حسن نشأت فـلا تزالون توقعـون بينه وبين اللورد جورج لويد حتى يتعرض للقصر فيأمر بنفي هذا الموظف منه الى خارج البلاد ؟ •

ليس من الاستقلال ان يحال بينكم وبين اذلال المصريين فهـل مـن الاستقلال ان يضايقكم حسن نشأت فتلجأوا الى اللورد جورج لويد لينتقم لكم منه ويأمر بابعاده عـن وظيفته ويتعدى بذلك على استقلال القصر فضلا عن استقلال الحكومة المصرية » •

اذن الاستاذ العقاد يفرق بين الرجعيين والقصر ، بل واكثر مـن ذلـك واشـد فهـو يقول ان الرجعيين اعداء القصر ، لانهم لجأوا الى اللورد لويد ليعتدي على استقلال القصر بابعاد حسن نشأت باشا •

الرجعيون يعتدون على استقلال القصر ومع ذلـك تقـول النيابـة أن الرجعية والرجعيين هم جلالة الملك دون سواه •

حقا ان للنيابة طريقة في التدليل يقصر عنها الفهم ••

اما الرجعيون الذين عناهم الاستاذ العقاد هنا فظاهر انهم الوزاريون ، او انصار الوزارة الحالية ، الذيـن دعاهم تارة بالرجعيين ، وتـارة بالمنافقـين، واخرى بالمستهتريـن بالاستقلال •• الخ •

٢ ــ الرجعيون او الرجعية هم الوزارة الحاليـة جـاء فـي مقـال ٢١ سبتمبر تحت عنوان « سيعدل الدستور » عبارات صريحة تدل على ان المقصود بالرجعيـة هم الوزراء الحاليون ، فمثلا في صفحة ٢١ من الدوسيه « فـاذا كان أمل القوميين الوحيـد ان تسقط وزارة العمال وتخلفهـا وزارة المحافظين، فالامل بعيد والمحافظـون لا يعكسون مجرى السياسة المصرية رأسـا على عقب بغير سبب الا ان الرجعيين يريدون عكس الامور »

اذن فالرجعيون هم القوميون او الوزراء القوميون كما كانـوا (وكـان فعل ماضي) يدعون انفسهم •

وفي مواضع اخرى من المقال صفحة ٢٢ يقول الاستاذ العقاد بصريـح العبارة « ولو كان الانجليز يريدون تعطيل الدستور اليوم لاستطاعت الوزارة

القوميـــة ان تعلن التعديل من اشهر مضت ولم تعمــد الى التأجيل والتسويف فموقف الوزارة ظاهــر لا لبس فيه . موقفهــاهو موقف من يريد ارغـــام الامة على ما ترفض وارغام الانجليز على تسخير قوتهم في هــذا البلــد فــي خدمة مطامع الرجعيين ولا تفسر الامر الا بهــذا التفسير فالرجعيون لن يقدروا على المساس بالدستور بغير قوة الانجليز .. الى ان قال : أفي وسع احــد ان يزعم لنفسه فضلا عــن زعمه لغيره ان وزارة كالوزارة الحاضرة كانت تستطيع ان تجابه الامة كلهــا لو لــم يكــن في مصر جيش احتلال » .. الى ان قال « ولسنــا ندري وحق الرجعيـــة ماذا يغضب هذه الرجعية من الدستـــور الحاضر .. وهي تزعم ان كل ما صنعته داخل في حدود الدستــور فتعطيــل مجلس النواب واغلاق الصحف وفصل القضاة الذيــن لا يحكمون بما يراه وزير الحقانية وقتل الناس بالمئات في الطرقات .. كل اولئك فيــه مخالفـــة للدستــور » .

اذن بالرجعية هنا يشير العقاد صراحة الى الوزارة واعمالها التنفيذيــة ، من غلق الصحف ، وفصل القضاة ، وقتل الناس الخ كل هذه الامور من اعمال الوزارة ولا ريب وكأن العقاد أراد ان يزيل كل اثر للريب في ذهـــن القارىء فقال في ختام مقاله « انــا لا نريــد مسخ الدستور وهذه هي القضية كلها بلا مواربة ولا تحويــر فاذا قام اسماعيل صدقي يريد مسخ الدستور وقــام الانجليز يأبون عليه ما يريــد فليس معنى ذلــك ان مسخ الدستــور اصبح واجبا وطنيا » .

وبذلك قطعت جهيزة قول كل خطيب فالرجعية التي عناها العقاد هــي اسماعيل صدقي ووزارته ولا شأن لشخص الملك فيها .

وليس الامر مقصورا على هــذا المقال وحده ففي عدد ١٠ سبتمبر صفحة ٧ من الدوسيه اشارة الى ان الرجعيـــة هي الوزارة اذ جاء في اول المقال « اذا كــان للرجعيين اليوم لسان يستطيع ان يلفظ بكلمة الاستقلال ويقول هــذا من شأني وهذا ليس من شأنك فليذكر هؤلاء الرجعيون ان الاستقلال لمصر لا لهم » وفي هــذا اشارة الى خطب صدقي باشا ودعواه العريضة بانه تمسك باستقلال البلاد في رده على مكدونالد .

واكثر من ذلك ففي مقال نشر في ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٠ وهو ليس من

المقالات موضوع المحاكمة اشار العقاد الى الوزارة الحاليـة بعبارة الرجعية اذ قال « في الايام الاخيرة كثرت الحركـة بين جماعـة القانونيين الذيـن تعتمد عليهم الرجعيـة في الفتاوى والتعديلات وتضييق الثياب الفضفاضة وما الى ذلـك من المهام فشوهد بعضهم ينتقل مرارا بين القاهرة والاسكندرية ، ويحظى بالمقالات ويعود بالاشارات والتعليقات. ما الخبر قال الوزاريون ان الوزارة تتأهب لامر خطير جسيم ، امر فيه مفاجأة للمصريين والانجليز على السواء ، قالوا انـه شيء يمس الدستور وقانون الانتخابات » الى ان قال « ثم جـرت مقابلة مستر هور ووزير الحقانية وبعض الرجال القضائيين » .

وهذا صريح في ان الرجعية التي اعتمدت على الرجال القضائيين هـي الوزارة الحالية ثم جاء في مقال القضاء بتاريخ ٣١ اغسطس سنة ١٩٣٠ وهو ليس في المقالات موضوع المحاكمة ما يأتي :

« ان صدقي باشا وجماعته كثيرو التعويل على حزب المحافظين لانهـم مستعمرون لا يريدون لمصر الا ما يراه لها (الرجعيون) » .

فالرجعيون هم اذن صدقي باشا وجماعته من غير لبس ولا غموض .

وكذلك في مقال نشر في ٢٨ اغسطس يقول العقاد بعد كلام طويل عـن الوزارة الحاليـة « اذن ليس في الامر عشر سنين ولا عشرة اشهر . لقد علم القوم مصيرهم القريب ، وعلموا انهم زائلون، والحكم للدستور غدا لا للرجعية والطغيـان » .

والزائلون هم الوزارة ، ولن يكون الحكم للرجعية بعد زوالهم ، وهـو صريح في ان الرجعية هي الوزارة، وهنـاك مقال هام بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠ (رأى في اليوم التالي لمقال ٢١ سبتمبر الذي تحاكمنا عليه النيابة) وفيه اشارة قاطعة الى ان العقـاد يقصد بالرجعية الوزارة الصدقية واليك مـا جاء فيه بعد كلام طويل عن سياسة الوزارة : « هذه هـي سياسـة الوزارة القوميـة التي تسير عليهـا في هذه الايام في سياسة الامة الشيء الذي نحمد الله عليه. ان الازمة الحاضرة وضحت كل شيء ، فلم تدع موضعا للمغالطـة والتمويه فالرجعية مكشوفة كشفا لا يستره دثار ولا حجاب ، والانجليـز اذا لم تكن سياستهم اليوم مكشوفة كل الكشف فانهم لا محـالة ينكشفـون تماما متى علم المصريـون ان الوزارة الصدقية استطاعت ان تمضي فـي مسخ

الدستور ، ووضع القانــون الجديد للانتخاب فيتضح يومئذ ما هــو مشكوك فيه ، ويتبيــن للامة ان الغرض من كل انتخاب مقبـــل هــو التواطؤ بين الانجليز والرجعيــة على تمزيق الامة وهدم دعائم الدستور » •

اذن فالرجعيــة مكشوفة كشفــا لا يستره حجاب هي الوزارة الصدقية كما يقول العقاد بصريح اللفظ •

٣ ــ الموظفون الرجعيون :

في مقال مؤرخ في ٢٦ سبتمبر وهو ليس من المقالات موضوع المحاكمة يقول الاستاذ العقاد (اذن ليس في هذا المرسوم الا انــه يدل الناس علــى تزعزع الوزارة وقلة اطمئنانهــا على مركزها ، وخوفهــا من ان تخلفها بعــد سقوطهــا وزارة حرة لا ترضى عن الموظفين) •

اذن فالموظفــون يدخلون ضمن الرجعيين فضلا عن الوزارة والوزاريين فكيف تقول النيابة ان العقاد لــم يعين المقصود بالرجعية ؟ ولكن هناك هيئات اخرى ذكرهــا العقاد وعينها تعيينا كما سترون •

٤ ــ بعض الصحف الرجعية :

ذكر العقاد في مقال مؤرخ يحمل فيه على جريدة المقطم ما يأتي : « والمقطم جريدة الرجعيــة للرجعيين » •

٥ ــ الرجعية قبل الاحتلال :

لم يكتف الاستاذ العقاد بالاشارة الى الرجعيين الحاليين بل عنــى بعبارة الرجعية اولئك الذيــن وجدوا قبل الاحتلال فقال في صريح اللفظ في المقال المنشور في ٢٤ سبتمبر صفحة ٢٥ من الدوسيه ما يأتي « ان مصيبــة الرجعية علــى هــذا البلد اكبر من مصيبة الاحتلال ، فانهــا هي التي مهدت لــــه واستعانت به واوقعت البلد في البلاء الذي ادى اليه ، فلولا كراهــة الدستور القديمة في نفوس هؤلاء الرجعيين ولولا التكبر عن الاعتراف للفلاحين العبيد بالحرية والحكومــة العصرية لمــا حدثت تلــك الاحــداث التــــي نعانــي جرائرهــا الى اليوم »

فهل هناك دليل نفي أقطع من هذ الدليل ان العقاد يقول ان الرجعيـــة موجودة قبل الاحتلال وهي التي مهدت لــه بسبب كراهتهــا للفلاحين وهو يشير بذلك الى الضباط الشراكسة والاتراك الذيــن قاوموا عرابي فهل تقــول

النيابة بعد ذلك ان الرجعية يقصد بها شخص جلالة الملك في الوقت الذي يقول فيه العقاد ان الرجعية هي التي مهدت للاحتلال البريطاني •

٦ ـ الرجعيون هم الاحزاب المعادية للوفد وللدستور :

نذكر على سبيل الاستئناس ما جاء في خطبة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ونشر في المؤيد الجديد بتاريخ ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣٠ فقد قال « اذن فيضع الرجعيون العقبات في الطريق • لقد قالوا قبل اليوم : ان الدستور لا يصلح لهذه الامة لانه ثوب فضفاض وانها غير جديرة به ولذلك اوقفوا الدستور وعطلوه علانية وكانوا في عملهم جريئين صريحين ، فكان النضال جريئا وصريحا بين الامة والدكتاتورية ، اما الان فان الرجعيين لا يستطيعون مواجهة الحقيقة ولا يجرؤون على ان يصرحوا بحقيقة خطتهم، فهم يزعمون انهم دستوريون ولا يحيدون عن الدستور » •

ومن ذلك نرى ان رئيس الهيئة التي ينتمي اليها الاستاذ العقاد فهم بالرجعية حزب الوزارة الحالية والاحزاب الاخرى التي عطلت الدستور من قبل •

ومن هذا القبيل ما جاء في المقال الافتتاحي في المؤيد الجديد بتاريخ اول سبتمبر ١٩٣٠ تحت امضاء ابو فصادة : ثم الم يسبق قبله طلاب الحكم من الرجعيين الاتحاديين النشأتيين ومن ساعدهم في ذلك من فئة المستوزرين؟اذن فرئيس الهيئة التي ينتمي اليها العقاد وكتاب الصحيفة التي يكتب فيها العقاد لم يفهموا من عبارة الرجعيين الا خصومهم السياسيين من الاحزاب الاخرى وهو دليل نذكره في باب الاستئناس حتى لا نترك مجالا لقائل بعد الادلة الستة التي ذكرناها والتي تقطع بشيء واحد هو ان الرجعية لا تعني ولا يمكن ان تعني الذات الملكية المصونة •

وفوق ما تقدم فان لدينا دليلا ايجابيا من مقالات كتبها الاستاذ العقاد تدل دلالة واضحة على ولائه للعرش ولشخص الجالس عليه فقد جاء في مقال له بجريدة كوكب الشرق بتاريخ ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠ وهو يوم استقالة دولة النحاس باشا •• ما يأتي : « ويلوح لنا اننا في غنى عن القول ان حماية الدستور مصلحة عامة لكل من في مصر ، من ارفع مقام الى اصغر صغير في

سواد الجماهير فلا تنسى ان جو الانقلاب قد شجع اناسا من اصحاب المآرب على الطمع في المقام الارفع ، والسعي هنا وفي اوروبا لتحقيق ما يطمعون فيه ، وكأن دعوتهم الى عقد الجمعية التأسيسية احدى الخطوات التي رتبوها للبحث في نظام الحكم من جديد ، والتدرج من هذه الخطوة الى ما وراءها حسب ما يشتهون وحسب ما تخيل اليهم الاحلام . ولم يحدث شيء من هذا قط في عهد الدستور ، ولا يعقل ان يحدث فيه يوما لانه العهد الذي يقوم على النظام وحماية اصغر الحقوق فضلا عن الحق الاكبر الجليل » .

وجاء في كوكب الشرق في ٥ يونيه ١٩٣٠ في مقال الاستاذ العقاد ما يأتي: «فحماية الدستور ضمان لا يكرهه في الحقيقة الا الخوارج من اعداء الحياة النيابية ، واعداء العرش والنظام ، وبهذه الحماية تحقق كل رغبة كبيرة بالرعاية والتحقيق وفي مقدمة ذلك رغبة صاحب الجلالة الملك التي اعرب فيها للكاتب الالماني اميل لودفيج وترجمتها الصحافة المصرية قبل بضعة اسابيع فجلالته يعتقد ان هذه الامة لا يمكن ان تحكم بغير الرقابة البرلمانية ويبدي ارتياحه لخلاص مصر من ذلك الشيء الذي كان يسمى بالدكتاتورية هي رتبة سامية يعبر عنها القانون المسنون لحماية الدستور احسن تعبير » .

اما رواية اكبر رأس في الدولة التي دستها النيابة في مرافعتها امام قاضي الاحالة بأن قالت « ولكن المقالات قد حوت اكثر مما يظن وابلغ في الاجرام ، وهو المساس باكبر راس في الدولة تلك العبارة التي اذا قيلت لا يمكن ان تنصرف لاي شخص سوى جلالة الملك » فليسمح لي حضرة رئيس النيابة بأن دسه لهذه العبارة في مرافعته انما هو استغلال غير نزيه من جهة وغير مبني على اي اساس من الحق او الواقع من جهة اخرى .

فيفرض ان العبارة قيلت في مجلس النواب بالشكل الذي قيلت به فليس للنيابة قانونا ان تستعملها ضده كدليل او بأي طريقة من الطرق اذ ليس لها ان تحاكمه عليها طبقا لنص الدستور ، هذا فضلا عن ان العبارة كما روتها النيابة ليست صحيحة واني اتلو عليكم ما جاء في كوكب الشرق من مقال للعقاد في هذا الصدد ونشره الكوكب ١٩ يونيو ١٩٣٠ .

« ان البلاد مستعدة لان تسحق كل رأس بخون الدستور هكذا نقول اليوم وهكذا نقول غدا وهكذا يقول القانــون والدستور ، فان مصر دولة ملكيــة دستوريــة تعــد خيانة الدستور فيهــا جريمة لا تغتفــر ، وتعد حمايـــة الدستور لهــا فريضة لا تنسى ، وواجبــا اقسم الجميع عليه يمين الطاعـــة والولاء »

وهذا صريح في ان العقاد لــم يشر بتلــك العبارة الى جلالة الملك ، بل كــل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الدستور ، وقد سبق ان ذكرنــا ان شخص الملك غير مسؤول عن مثل هذا الاعتــداء، اذ المسؤولية تقــع عـــلى عاتق الــوزراء .

الرد على اعتراضات النيابة :

وهنا تكلم الاستاذ مكرم بك طويــلا في الرد علـــى بعض اعتراضات النيابة ، واهمهــا قولهــا ان الدستور منحــة فدلل ان الدستور حــق مــن حقوق الامة رد اليها ، واستشهد على ذلك بنص الدستـــور على ان الامـــة مصدر السلطات ، وبالمادة ١٥٧ من الدستور التي تحرم تعديل الدستور من غير اشتراك الملك والبرلمان ، كما واشار الى تعليق وزير الحقانية فــي سنة ١٩٢٣ الذي جاء فيه ان الدستور في يــد جلالة الملك وانه رده الى شعبه واخيرا فان المادة ٧٨ عقوبات تعاقب بالاشغال الشاقــة المؤبدة او المؤقتة كل من اعتدى على الدستور بالقوة ، ثم رد الاستاذ مكرم على قول النيابة بان العقاد مسؤول عن مقال (ص) وبيــن ان الاستــاذ العقــاد قرر صراحــة موافقته علـــى الرأي دون الوقائع المفصلة فيه ، اذ من غير المعقول ان تنصب الموافقــة علــى الوقائع مفصلة . هذا فضــلا عــن ان الوقائع المذكورة لا تشير الى شخص جلالة الملك ، بل تشير الى وزارة نسيم باشــا وحسن نشأت باشا وحــزب الاتحــاد .

ثم استطرد الاستاذ الى الرد على اعتراض النيابة الخاص باحراج الوزارة، وقال ان الاحراج لا يأتي من الملك فلجلالته اقالته او قبول الاستقالة امـــا الاحراج فيأتي من الاحزاب المعارضة ، او مــن الطامعين في الوزارة المقبلة او من حملات صحفيــة او حتى من رجال الرأي كما قال عبدالعزيز باشا فهمــي عن نشأت في سنة ١٩٢٥ ، من ان هذا الاخير يحرج الوزارات ، بل ويعطــل

الدستور ، اذن فعبارة الاحراج لا تنصرف الى جلالة الملك بـل ولا يليـق توجيهها اليه • ورد الاستاذ على ملحوظـة النيابة الخاصـة بأذناب الرجعية وقال ان العبارة التي وردت في مقال العقـاد عن الرجل المشهور العرض المهتوك السيرة لا تنصرف الى رئيس الوزارة الحاضرة على التعيين كما تقول النيابـة فانه بين الموظفين الذين رفتوا واعيدوا من قد تنطبق عليه هذه العبارة ، ثـم ان الاستاذ العقاد ذكر هذه العبارة من باب التحليل بدليل انه اشار الى الرجل المعتوه الخامل النكرة والمجرم والمحكوم عليه والسارق والاوغـاد والانـذال باعتبار انهم جميعـا اذناب الرجعية ثم قال الاستاذ مكرم •

القســـم الثـــالث

التكييف القانوني للتهمة

يا حضرات المستشارين

اني كمحام يمت الى القانـون بصلة وثيقة شريفـة هي صلة الدفاع عن العدالة مستمدة من نصوصه ، مستنبطـة من احكامه ، اراني في حيرة كيف اوفق بين التهمـة كمـا تفهمها النيابة والقانون كما افهمه •

فلقد ارتكبت النيابة خطأ مزدوجـا فمن حيث التكييف القانوني فانهـا اولا عمدت الى التأويل والتخريج ، ممـا تنبو عنه قواعد قانون العقوبـات العامة ، وثانيا وهـو المهم فان جريمة العيب في الذات الملكية لا تقع من طريق التلميح او من اي طريق غير مباشر •

وهنا تلا الاستاذ صفحة ٩٥٦ من كتاب التشريع السياسي وقال ان مـا كتبه عبدالعزيز باشا فهمي في هذا الصدد اعتبر كأنه مذكرة تفسيريـة في مادة العيب في الذات الملكية ، وعبدالعزيز باشا يقول انه عندمـا كان وزيرا للحقانية طلب اليـه ان يضيف الى المادة ١٥٦ من قانون العقوبات الخاصة بالعيب فـي الذات الملكيـة العبارة الآتيـة وهي : « سواء كان العيب مباشرة او غير مباشرة تصريحـا او تلميحـا » ولكنه اعترض علـى ذلـك بشدة وانتهى الامر بأن عدل عـن هذه الاضافـة •

فما معنى هـذا العدول • لا معنى له الا ان المادة بنصهـا الحالي تنفي بتاتا ان العيب من باب التلميح او من طريق غير مباشر ، فاذن ما كـان يصـح للنيابة قانونا ان ترفع هذه الدعوى ، لانه ما كـان يصح لهـا ان تلجـأ الى التفسير والتأويل في مادة العيب التي يجب ان يكون فيهـا العيب صريحـا ومباشرا •

وفوق ذلك فان العيب على صراحته يجب ان يكون موجها لذات الملك، وهنـا استشهد الاستاذ مكرم بكتاب باديه فقرة ٣٣٨ صفحة ٣٤٢ وبكتـاب احمد بـك امين صفحة ١١١ •

كلمـة ختاميـة

يا حضرات المستشارين :

لقد شاءت النيابة وشاء لهـا فهمها الخاطـىء للاوضاع الدستوريـة والقانونية واللغوية ان تجعل من الدفاع تهمـة ، ومن الحق جريمـة ، فساقت الى المحكمـة رجـلا اراد ان يدفع غائلة الاذى عن حقوق بني قومه ، فكـان مثلها في ذلك مثل من يترك الجاني مليـا بجريمته ، ويأخذ المجني عليـه ان استصرخ القوم لنجدتـه • لقـد تبين لكم صراحة ان عباس العقاد الكاتب وعباس العقاد النائب لـم يعب ، وما كـان لـه ان يعيب في الذات الملكية التي هي ذات مصونـة طبقـا لاحكام الدستور الذي كان يقاتل في سبيله ، وفوق ذلـك فان المقالات التـي كتبهـا في كوكب الشرق تدلكم على مقدار اجلال العقاد لذلك المقام السامي •

ولقد عانى العقاد كثيرا في سجنه حتى ساءت صحته الى حد خطير • وعبثا شكـا امره الى النيابة فمـا كـان لشاكيه ان ينتصف لشكواه او يرق لبلواه، ولكـن مثل العقاد يقع ولا يضرع ، ويتألم ولا يجزع ، ولذلك صبر وتأسى وكأنـه يقول لنفسه :

كل شيء لضده يتحول   فالزم الصبر اذ عليه المعول

والحمد لله فقد انتهى صبره اليكم ، وسينتهي الظلم على ايديكم فقولوا كلمة العدالة فانا لهـا لمرتقبون ومنتظرون •

رواية تروى عن احد القضاة انه سمع مرافعة احد المحامين وكانت خارجة عن الموضوع ، فانتهى بأن قاطعه وقال : حكمت المحكمة ببراءة المتهم لغير الاسباب التي بينها الدفاع .

واني لاضيق ذرعا بالمرافعة ، بل اقول اني اطلب البراءة للاسباب التي ارتكنت عليها النيابة واؤكد ايضا فيما تقوله النيابة انه غير معقول فانا اقول ايضا انه غير معقول ، وان كانت النيابة قد ارتكنت على الاسباب التي جاءت بها فنحن نلاحظ اولا ان النيابة قد اتجهت الى القضية اتجاها جديدا ، او ان القضية اتجهت بالنيابة الى جهة لم تكن في الحسبان ،واني اخشى ان السفينة التي تتقاذفها الامواج وزجتها النيابة بين تيارات متعارضة قد صارت من غير ربان ، فان النيابة في مرافعتها الاولى كانت ترتكن على تأويل وتعسف في التأويل ، اما الان فقد انتقلت من تعسف في التأويل الى تعمق في التفصيل ، الى حد ان السفينة كادت تغرق في بحر من التفصيلات .

ان التهمة لا تؤخذ من سطر او كلمة او نهر ، بل تستخرج من مجموع المقالات ، وباب التخريج مفتوح على مصراعيه فاذا دخلنا من مدخل خرجنا من مخرج ، ويظهر ان النيابة قد افسحت لنفسها المجال ، حتى تجد امامها سبيلا الى الاتهام .

ما الذي استجد في القضية عرض للمحكمة ان تطلع على جريدتين اشير اليهما في مقالات العقاد احداهما جريدة الوادي والثانية جريدة الاحرار .

وقال الاستاذ من تلقاء نفسه ولم يكن هذا معلوما للمحكمة ولا للنيابة .. هذا الحديث وضع تحت عنوان معين ، وانا اعترضت عليه ، وطلب استدعاء الشاهد ، كل هذا حصل بطريقة جدلية طبيعية لا محل للريب فيها ، ثم جاء الشاهد واطلعنا على المقالات فما الذي تريد ان توصلنا النيابة اليه اليوم فانتا قد ازلقنا فعلا من البحث في نية الزحلاوي وعبدالحميد حمدي وانتقلناالى البت في مقالات اخرى .

واغرب من هذا وصلنا بطريق ملتو معوج الى الكلام في مسألة اكبر رأس التي استبعدتها المحكمة استبعادا وهو غير معقول وليس محلا للبحث .

ولكن هنـاك عنايـة تلحظ الابرياء من السماء ، هنـاك عين ساهـرة على مصير الابرياء ، وهي التي الهمتكم ان تطلبوا جريدة العقـاد ، والهمت العقاد ان يطلب الجريدة ، ولكني سأتقدم اليكم بالدليل المادي على صـدق الزحـلاوي •

اريـد ان اختصر الطريق عليكم وان اجابه الاتهام وجهـا لوجـه وان اناقشهم على اسوأ الفروض حتـى تنتهي • نفرض ان الزحلاوي على اسـوأ فرض اساء فهم اقوال العقاد ، وانـه فهم ان العقاد يقصد جلالة الملك ، فهـل يعتبر الزحلاوي حكمـا بيننا وبين النيابـة • هـل هنـاك خبراء فنيون يا حضرات القضاة •

ولكني لما قلت لحضراتكم ان العنايـة الربانية ساقت لنـا هذا الدليل من حيث لا ندري كنت انتظـر ان الحديث سيكون قاصرا على ما جاء بالمؤيد الجديد ، وقد فسره كل حسب مصلحته ، ولكنه تبين في الحديث ما يفسر معنى الرجعيـة وما لـم يأت في جريدة المؤيـد نفسها مرت عليه النيابة وتركته ، ولو قرأ النائب هذا الكلام بامعـان لتبين ان المقصود بالرجعيـة هـي الوزارة ، وتبين ان العقـاد خصم عنيد للوزارة •

وما جاء في الحديث ان الازمة ستنتهى حالا وان الوزارة الحاليـة لا ولن تعتدي على حكم البلاد ولا سيمـا بعد ان فشلت الوزارة فشلاً كاملا فـي سياستها الاقتصادية ، فاذن هـذا معنـاه ان العقـاد يقصـد بالرجعيـة الوزارة دون غيرهـا •

ثم تكلم عن التعليق والعنوان فقال :

اما العنوان فهـو من عمل الجريدة لهـا خطـة معينة في العناويـن النحاس باشا يكشف عن صدره ويقول للبوليس اطعنوني بحرابكـم فهـذا عمل صحفي يقصد بـه لفت النظر ، فاذا كـان زحلاوي وضعه فلا ينتظر ان يستشار العقـاد في اختيار العنوان :

ثم يعود الى التعليق : ما الذي عناه هـذا الشاهـد لو ان هـذا طعـن في جلالة الملـك •

هل تكون اشياء جديرة بالنشر ولكن الامور مرهونـة باوقاتها • ويريد تشويش القارىء ولفت النظر • واقص عليكم من ذلـك ان الجرائد كانت

تكتب عناويـن مهولة ودعوت لذلـك بعض الصحفيين وافهمتهم فقال احدهم ان الاستاذ مكرم يبتسم وان ابتسامته هذه تخفي معنى وقال آخـر انه اطال في الحديث ، وكل يفسر على هواه ما يريد ، ولكل جريدة عقليتهـا ونفسيتها، ومسألـة الدكتور حامـد عاد لان السيدة والدته مريضة ، ويريد القـدر ان تنتقل الى رحمة مولاها • ولكن الجرائد ذات الغرض لا يهمها ذلـك فلماذا تنصرف تلك الكلمة كلمة اكبر رأس الى جلالـة الملك • ولكـن سنقـدم لحضراتكم الدليل القاطع وبعـد الاطلاع عليه ستقولون كلمتكم الحازمـة ببراءة هـذا المتهـم •

ثم نعود الى ما قاله الشاهـد اولا انه قال انـه ارسـل تكذيبا بلسان العقاد لما نشر في المقطم ، وثانيا طلب منه ان يعترض على هـذا العنوان وفعلا ارسل للجريدة بذلك ، ولنقدم اليكم التكذيب وهو منشور في عـدد ٢٠٥ يونيـو • وقالت المقطم عن السياسـة ان العقـاد قال في مجلس النواب ان المجلس مستعد لسحق اكبر رأس في البلاد •• الخ •

وبتاريخ ٢٤ يونيو وهو الموعد الذي نشرت فيه الاحرار مقـالا تحت عنوان ماذا يقول العقاد واليكم ما جاء فيه . تجاوزت في احدى رسائلي السابقة عن ذكر ما جاء ببعض الخطب الناريـة وعمدت الى محاضر مجلس النواب ، فقد انفردت جريدة السياسـة بذكر كلمة « اكبر رأس » وقد علقت عليهـا الجريدة بنزعتهـا الحزبيـة وهي تقصـد بذلـك الايقـاع بين الوزارة والعرش •

وقد صدرت كوكب الشرق صباحا وهي تحمل في صدرهـا مقالا بقلم الاستاذ العقاد جاء فيه ان البلاد مستعدة ان تسحق كل رأس في البلاد •

واظن لا يمكن ان يكون تكذيب من مراسل جريدة ونشر التكذيب بعد ان علق على مـا نشرته السياسـة •

اذن ثبت بالدليل القاطع ان الزحلاوي لم يكـن كاذبا في قولـه : انه ارسل لجريدة تكذيبـا وهو يفسر مـا جاء في جريدة السياسة بانه خـاص ينفي امرا آخر وهو انه بعد نشر الحديث اعترض الاستاذ العقاد علـى بعض ما جاء بـه وجاء الشاهـد هنـا وقال ان العقـاد اعترض فعـلا بعـد نشر الحديث وكلفه بتبليـغ جريدته هذا التكذيب •

وقد يقال ما معنى انه كذب حديث المقطم ؟ ثم يعود وينشر هذا المقال بهذا العنوان ، فردا على ذلك نقول ان هذا فقط من طريق التشويق واحببت لكي ادلل لحضراتكم على ان المراسل بطبيعته او بطبيعة عمله يضع بعض الرتوش في الخبر الذي يرسله واقول لحضراتكم ايضا رواية غريبة نشرها هذا المراسل نفسه بجريدة خاصة بهذه المحاكمة ايضا . وهي تبين نفسية هذا المراسل الغريبة .. وقرأ الاستاذ مكرم الفقرة الخاصة بمحاكمة الاستاذ العقاد وهي تتضمن ان العقاد لما دخل قاعة المحكمة وقف الناس اجلالا له ولما امرهم رئيس المحكمة بالجلوس امتنعوا وقالوا حتى يجلس العقاد . وحدث اثناء قراءة هذه الفقرات ضحك من الجمهور وهذا دليل على نفسية المراسل .

وقد ارسلنا تلغرافا الى مراد بك الصلح ونفس التلغراف الى صاحب جريدة الاحرار البيروتية هذا نصه :

نشرت جريدة الاحرار البيروتية حديثا للاستاذ عباس العقاد بتاريخ ١٢ آب عام ١٩٣٠ عنوانه « الرجل الذي هدد بسحق اكبر رأس في مصر » والعقاد يقرر ان القضية مرفوعة ضده الآن وانه بعد اطلاعه على هذا الحديث اعترض على العنوان وعلى تعليق المراسل وطلب من الزحلاوي افندي مراسل الجريدة الذي اجرت معه الحديث المذكور نشر اعتراضه بنفس الجريدة . وشهد زحلاوي امام المحكمة اول امس بصحة ما قرره العقاد لنشره في الاحرار ولكنه لا يعلم هل نشرته الجريدة ام لا لمنع دخولها مصر . والمحكمة مهتمة بمعرفة هل نشر الاعتراض والمرجو تحري الامر والتفضل بارسال تلغراف اليوم باسمنا بالنادي السعدي وافادتنا هل نشرت الجريدة هذا الاعتراض وما نصه وتاريخه فان لم تكن نشرته فهل وصلتها رسالة من مراسلها عن هذا الاعتراض والضرورة تقضي بارسال الرد تلغرافيا حيث يصلنا اليوم لان آخر جلسة غدا صباحا واني على كل حال انتظر ردا من حضراتكم وتفضلوا بقبول عظيم شكري واجلالي . مكرم عبيد المحامي انتهت المرافعة .

الثورة الفرنسية :

كـان شعار الثورة الفرنسية هذه الكلمات الثلاث : « الحريـة والاخاء والمساواة » . وهي كلمـات منغومة على قافيـة واحدة في اللغـة الفرنسية. يحسب الكثيرون ممن يسمعون الهتاف بهـا انهـا قد اختيرت لحسن وقوعها في الاسماع وسهولة مجراها على الالسنة ، ويظنون ان كل (الفاظ ثلاثة) من قبيلها تغني غناءها، وتستهوي الاسماع استهواءها ، ولكنها في الواقع كانـت كلمات الثورة الفرنسية التي لا تصلح لهـا كلمات سواها ، وكانت كل كلمة منها مدروسة لغاية مقصودة لا تغني عنهـا غاية اخرى ــ لانهـا كانـت محور الخلاف القديم بين الانصار والخصوم . كانت (الحريـة) غرضا مقصودا ومبدأ مختلفا عليـه ، اذ كـان الملكيـون يزعمون ان الملك يحكـم بالحق الالهي ، وان سلطانه مستمد من سلطـان السماء فليس للرعية حرية مع راعيها لان مشيئته من مشيئة الله ، فمن خرج عليه فهـو خارج على خالقـه ومولاه، اما الثائرون فكانت مشيئة الشعب عندهم هي قوام الحكم وسنده الذي لا سند له غيره فمشيئة الشعب من مشيئة الله ، وعلى الملوك ان تطيع شعوبها ، وتعمل على رضاها . والا فهم الخارجون على سلطان الارض والسماء . كذلك كانت كلمة الاخاء مبدأ مختلفـا عليـه اشد الاختلاف ، او كـان الاختلاف عليـه مجزرة قضي فيها على اكثر من مائة الف فرنسي قبل جيلين ، واوجبت هجـرة الملايين الى غير بلادهم قبل عصر الثورات بسنوات اذ كانت العقيدة الغالبة ان الخلاف بين المذهب الكاثوليكي والمذهب البروتستانتي خـلاف بين الابـرار والاشرار ، وانه لا هوادة بين الفريقين الا كمـا تكون الهوادة بين حزب الله وحزب الشيطـان وفي سبيل ذلـك سالت الدماء بين الفريقين وصدرت الاوامر الصريحـة بنفي كل فرنسي يديـن بنحلـة غيـر النحلـة التـي ارتضاهـا ولاة الامور .

اما دعاة الثورة الفرنسية فقد كانوا ينكرون هذا الخلاف وينادون بشريعة الاخاء في الوطـن الواحد . فـلا عداء بين ابناء الوطـن لان (الوطن) ابو الجميع وكل ابنائه متحابون ومن هنـا تقرر مبدأ الاخاء . وكذلك كانت كلمة

(المساواة) محل خلاف ونزاع ومحاولات ومناظرات يشترك فيهـا المفكرون كما يشترك فيهـا المؤمنون المتدينون . فـلا مساواة بين النبلاء والسوقة ، ولا بين الموسريـن والمعسريـن في رأي اعداء الثورة ، ولا تفاوت بينهم في رأي دعاتهـا والمطالبين باصلاح المجتمـع على اساسهـا . ولقد كان النزاع ملحوظـا معترفا بـه في تكويـن المجالس النيابيـة الاولى . فكـان النواب يحضرونهـا على حسب ما بينهم من التفاوت في الدرجات والطبقات .

الثورة التركية :

والمعروف ان جماعـة (تركيا الفتاة) كانت تقتدي بجماعة ايطاليا الفتاة وان رئيسهـا الفيلسوف احمد رضا كان كثير الاطـلاع علـى كتب ماتزيني وفلسفة اوجست كونت وكان مشهورا بدقته في اختيار كل كلمة من كلماته . لا سيمـا الكلمـات التي ترتسم بها الخطط وبرامج الاصلاح . فلما اختارت هـذه الجماعـة شعارهـا للثورة التركيـة لـم تذكـر كلمـة الاخـاء . وذكرت في مكانهـا كلمة العدالة ولم يكـن قصارى ما فـي الامر ابـدال كلمة بكلمة او ايثار نغمة على نغمة في نشيد الثورة بل كان هـذا الابـدال مقصدا اساسيا في برنامج النهضـة يدل على تفصيلات واسعة في سياسة الحكم الحديث . فلم يكـن هنـاك معنى لوضع كلمة الاخاء في شعار ثورة تركيا. فان الامة التركيـة قد فرغت من تقرير الاخوة بين المسلمين في بلادها وغيـر بلادهـا و « انما المسلمون اخوة » حقيقة من حقائق الايمـان بالديـن جرت على لسان الطفل الصغير والشيخ الكبير . فاذا نظر المصلح التركي الى الاقوام الآخريـن في الدولة فمبدأ المساواة يشملهـا جميعهـا على اختلاف الاجناس والاديـان .

اما النص على مبدأ العدالة بين المبادىء التي يرددها شعار الثورة فقد كـان لازمـا لبيـان خطتهـا في الداخل والخارج كان لازما لبيان خطتها في مسألة الامتيازات الاجنبية . وهي ظلم واقـع على ابناء البلاد تشير المطالبـة بالعدالة الى ضرورة رفعـه ومعاملة الاجنبي معاملة الوطني في بلاده . وكان لازما لبيان خطة الثورة في مسألة الاحوال الشخصيـة التي كانت ترجع فـي كل هيئة دينيـة الى سنة تخالف غيرهـا في شؤون الزواج والطلاق والميراث.

وكان لازما لبيان القواعد التي يقوم عليها التشريع في القوانين الوضعية والقوانين الدينية او العرفية . فكانت كلمة (العدالة) مبدأ لا يغني عنه مبدأ آخر في مكانه . ولم تكن مجرد نغمة في النشيد تعادل غيرها من النغمات .

الثورة الصينية :

وجاءت الثورة الصينية فلم تذكر كلمة واحدة من كلمات الثورة الفرنسية الثلاث . لم تذكر الحرية ولا الاخاء ولا المساواة ولم تهملها لانها تأباها ولا تحبها كما يحبها الفرنسيون ولكنها لم تجد لها معنى يستوجب النص عليه في شعارها لان تاريخ الصين قد اتسع غير مرة لارتقاء آحاد الشعب الى عرش ابن السماء . ولان عبادة الاسلاف عندهم تجعل القرابة المفروضة بينهم كقرابة الدم والسلالة . ولان نظام الرق قد بطل في تاريخهم لاسباب محلية قضت على الفارق التقليدي بين السادة والعبيد . فلهذا لم تكن بهم حاجة الى ثورة للمطالبة بالحرية والاخاء والمساواة . ولم تكن مبادىء الثورات الغربية قبلتهم في القرن العشرين ولا فيما تقدمه من القرون. واختار زعيمهم العظيم مبادىء ثورتهم فحصرها في كلمات ثلاث مقصودة بكل حرف من حروفها وهي مبادىء القومية والديمقراطية والاشتراكية القومية لاحلال الوطن محل الدولة في معاملة المغول والاشوريين والتتار وابناء التيبت المشتركين على الحدود . والديمقراطية يقصد بها غلبة الشعب لا مجرد الحرية الشعبية لان الزعيم العظيم (سن ياتسن) كان يتوسع بديمقراطيته ولا يقنع بتطبيقها في بلاده . كما تطبق في الامم الاوروبية او الامريكية . بل كان يريد ان يتدرج بها حتى تشمل حق الغاء الشرائع من قبل الجماعات الشعبية وحق اقتراح الشرائع من قبل تلك الجماعات وفقا للنظام الدستوري الذي يمنع الفوضى والارتباك في تقرير القوانين ومراجعتها. اما الاشتراكية فكانت لازمة لبيان موقف الامة من الاموال الاجنبية .وكانت السكك والمواصلات والموانىء تدار لحساب الدول وبأموال شركاتها ، وكان الزعيم الصيني لا يرفض الاستعانة بالاموال الاجنبية ولكنه يرفض الاستغلال والتسخير ويرى ان يكون تثمير المال على القواعد الاشتراكية سواء في

معاملــة الاجانب او معاملة ابناء الصين .

وهكذا يبدو لنــا ان مطالب الامم وضروراتهــا تفرض نفسها في شعار كل ثورة من ثوراتهــا . فلا تمتاز كــل ثــورة بشعارهــا الخاص لانه نغمة محبوبة او كلمــات رنانة تغني عنهــا الكلمــات التي تماثلهــا رنة ونغمة . وانما تمتاز بشعارهــا الخاص لانه تعبير عن كيانهــا وعــن وجهتهــا وعــن البواعث التــي تمليهــا .

الثورة المصريــة :

وأوضح ما تتضح هذه الحقيقة في شعار الانقلاب المصري الاخير الذي قضى على حكم فاروق ثم قضى على حكم اسرته بحذافيرها . فــان هـــذا الشعار يقوم على كلمــات ثلاث تجمع اشتات الفوارق التي بين موقف الامة المصريــة ومواقف الامم في ثوراتهــا . وشعار (الاتحاد والنظام والعمل) هو النسخــة المصريــة التي لا تلتبس بنسخــة اخــرى في وجهتهــا ولا في تعبيرهــا . فليس في مصر مبدأ يثور على مبدأ . ولا عقيدة تتمرد علــى عقيدة . ولا مصلحة قومية تناقضها مصلحــة قومية . ولكنــه شعار واحــد ليس فيه من يثور ولا مــن يثار عليه . لان الوجهة واحدة متفق عليهــا ، لن ينكرهــا فريق حين يسلم بهــا فريق .

ويحضرنــا هنا كل احتمــال يحضر في خواطــر المتحذلقين الذيــن يحسبون انهم نفذوا الى سر من الاسرار لا يبــدو على ظاهر الشعار . فقــد يقال ان الشعار قد بدر عفــو الخاطر فلم يدرس على هــذا الاعتبار . وقــد يقال انه يعلــن القليل ولا يعلــن الكثير . وقد يقال غير ذلــك مما يستطيع المتحذلق ان يقوله في كل مقام . ولكــن هذه الخواطر جميعــا لا تقدم ولا تؤخــر كثيرا ولا قليلا في جوهــر الحقيقــة التي يمثلهــا الشعار باختيــار او بغير اختيار . فلو كــان للامة المصريــة مطلب دافع غير مطالب الشعار لمــا استطاع احــد ان يهمله باختياره او بغير اختيــاره لان المطلب الدافع يتمثــل في شعوره وفي دعوته لا محالة ، فلا يتيسر السكوت عليه . ان شعــار الثورة اذن هو شعار المصريين اجمعين بغير فارق في وجهته ولا في دواعيه . كــل المصريــن يؤمنون بدعوة الاتحاد ودعوة النظام ودعوة العمل . كل المصريين

مخلصين وغير مخلصين فمـن لم يخلص منهم لن يقول انه يأبى العمل او يأبى النظـام او يأبى الاتحاد . ولكنه يصطنع العوامل التي تلتبس في ظاهرهـا بالمصلحة العامة ، وتخفى من ورائها مآربـه الشخصية . وهـذا هـو لـب اللباب في موضوع الثورة . هذا هـو الجوهر الاصيل الذي لا تجوز الغفلة عنه طرفة عين .

ليست العقبة في طريق الاصلاح مبدأ من المبادىء الاصيلة يدين به فـرد او طائفة من الامة المصرية ، ويجسر على المجاهرة به بغير مواربة ولا نفـاق . ولكـن العقبة في طريق الاصلاح هي العوامل المصطنعة التي لا تجري مع الحق الواقع في مجراه وهذه العوامل المصطنعـة هي آفـة الآفات . وهي العقبـة الكبرى في كل طريق . فمن امثلتهـا الكبرى اسرة مالكـة يقضي وضعهـا الصحيح ان تكـون (سلطة شرعية) تحارب السلطة الفعلية بقوة الامة ولكنها في الواقع انمـا كانت تعمل عمل الغاصب الذي يحتمي في ثورة الامـة بقـوة الاحتلال . وتحسب انها في امان من الثورة عليهـا ما دام الاحتلال في البلاد . ومن الامثلة الكبرى على العوامل المصطنعـة وزارات الكثرة المزعومة التـي عرفتهـا مصر بعد مفاوضات المعاهدة . فان الوضع الصحيح لوزارات الكثرة ان تقوم بتأييد الامة لمعارضـة المحتلين . ولكنها في الواقع انما كانـت تأتي على الدوام بطلب المحتلين لتسليم البضاعة . وكانت في موقفهـا المتناقض تعجز عـن ارضاء الاحتلال وعـن ارضاء الامة في وقت واحد .

وهناك امثلة دون هذه الامثلة تبرز لنـا العوامل المصطنعـة التي لا بد من تصحيحها بالوضع الحقيقي في غير مواربة ولا اصطناع .

وهناك تلك الغيرة الكاذبة على الفقير باسم المذاهب الهدامة وما هي في حقيقتها غير الدعاية الاجنبية تتستر بالغيرة على الفقير ولا غيرة لها على احد من ابناء البلاد فقيرهم وغنيهم على السواء .

وهناك الدفاع الكاذب عن الاقطاع باسم التاريخ او باسم الديـن . فما كانت في مصر ملكيـة زراعيـة ترجع في العصر الحديث الى أبعـد من القرن التاسع عشر . والاسلام يرحب بتعميم الملكية ، وينكـر كل الانكار ان تنحصر في ايـد معدودات .

وعلى هـذا النحو تنعزل المصالح الوطنية والعوامل المصطنعة كـل

الانعزال •• فلا خلاف على المصلحة الوطنية الخالصة ، وما من عقبة تقوم في وجه الاصلاح الا حين تتستر الحقيقة بالتلفيق والاصطناع •

ان كل حركة تتصدى للاصلاح في مصر لا حاجة بها الى عمل واسع تبتدىء به غير العمل على ازالة العوامل المصطنعة ، وتخليص القوى الطبيعية بجميع طبقات الامة من آفات التزييف والرياء • وليس المطلوب منها ان تنتهي الى اصلاح لا اصلاح بعده• او الى كمال لا نقص فيه• او الى رضى لا تنبعث فيه شكايات • كلا ونزيد فنقول : بل معاذ الله فان الاصلاح الذي لا اصلاح بعده موت • والكمال الذي لا نقص فيه وهم • والرضى الذي تنبعث معه شكايات جمود لا يتعلق به الرجاء •

انما تزول العوامل المصطنعة لتمضي العوامل الطبيعية في طريقها مرحلة بعد مرحلة • وشوطا بعد شوط • وامانة يتولاها جيل في اثر جيل •

فلسفة الثورة المصرية :

وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا وثورات غيرنا • نرى ان التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على الاصول الكبرى •

فقد قرأت الصفحات الثمانين التي كتبها السيد الرئيس جمال عبدالناصر في كتاب « فلسفة الثورة » فخرجت منها وانا اعتقد ان الخلاف عليها اقل خلاف في مثل هذه الصفحات وفي مثل هذا الموضوع • صواب ولا شك ان الحركة المصرية لا توصف بأنها تمرد عسكري ولا توصف بأنها ثورة شعبية • لان التمرد ما كان قط ولن يكون باجماع الاراء واتفاق الاحاد والالوف والملايين • ولان الثورة الشعبية لاسقاط ملك لا يحميه الجيش أمر غير مطلوب وغير مفهوم • وصواب لا شك ان الحاضر يعيش ببقية من مساوىء العهود الماضية وهذا هو باب الاسف والاسى • ولكنه كذلك باب الامل والعزاء • لانه يدفع اليأس من النفوس اذا عولج • فلم يذهب به العلاج بين عشية وضحاها اذ لم يكن يمكن في غمضة عين ان تزول رواسب قرون• وصواب كذلك ان الشك آفة معطلة للجهود معطلة للافكار والاراء ، فليس الانصاف وحده بالذي يشفع لاصحاب الشكوك ويعفيهم من عقاب لم

يستحقوه وحدهم بعد اجيال واجيال . ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ قبل شفيع الانصاف .

يقول السيد الرئيس جمال عبدالناصر : كان من السهل وقتها وما زال سهلا حتى الآن ان نريق دماء عشرة او عشرين او ثلاثين . فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ونرغمها على ان تبتلع شهواتها واحقادها واهواءها .. ثم يقول : « ولكن اي نتيجة كان يمكن ان يؤدي اليها مثل هذا العمل ؟ كان من الظلم ان يفرض حكم الدم علينا دون ان ننظر الى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعا تلك الآثار » نعم .. يكون ذلك ظلما ويكون اكثر من ظلم . لانه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر ويبطل فائدة العلاج وييئس من عقباه .

ونضرب المثل لذلك بالشاهد المحسوس : رجل تكلفه ان يعدو على خط واحد الى مسافة ميل ، فانه ليعدو على ذلك الخط ويعود في مدى ساعة او اقل من ساعة ، ولا يحتاج الى حيز من العرض يزيد على شبرين او ثلاثة اشبار . ثم تكلف ذلك الرجل نفسه ان يعدو فوق جدار يعلو على الارض عدة اشبار ويتسع في عرضه باكثر من ثلاثة اشبار فان لم يسقط بعد خطوات فانه لن يصل الى نهاية الشوط قبل ساعات . وماذا تغير بين الحالتين ؟ لم يتغير الرجل ولم يتغير الحيز ، ولم تتغير المسافة وانما تغيرت (حالة نفسية) فتغير معها كل شيء . هل يفيد ان تقول لذلك الرجل ان حذرك يا هذا غير معقول ؟ انه قد يكون مؤمنا بذلك ، ايمان الناصح له ، او يزيد . ولكنها على هذا نصيحة لا تفيد . وهل نستطيع ان نعلم الرجل رياضة الاعضاء على الحركة حتى يتعلمها ويتعودها ويتحرك فوق الجدار كما يتحرك في الارض الذلول ؟ نعم نستطيع ولكنه اذن جهد في العمل اكبر من نتيجته وأضيع للوقت من تركه والعمل بغيره . وخير لنا الجهد الذي يبذل بمقداره وان عظم المقدار .

على ان الصفحات الثمانين التي تحمل اسم « فلسفة الثورة » لا تنحصر بالقارىء في حدود الافق المصري وان كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية في اوسع حدودها ، فالمصري في عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا

ان لـم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق او عوالم لا انفصال لهـا من وطنه • وهي العالم العربي والعالم الأفريقي والعالم الاسلامي من اقصاه الـى اقصاه • ان مصيبة الاستعمار انه اوقـع في النفوس ان السياسي لا يهتم بامـة اخرى الا ليطمع فيهـا او يبسط سيادته عليهـا • ولكننا حريون ان نذكـر على الدوام اننـا (غير مستعمرين) واننا لا نحتاج الى جهـد كبير او صغير لننفي هـذه الشبهـة عنـا • فليس في وسع احـد ان يتهمنـا بهـا ويجـد مـن ذوي العقل السليم من يستمع اليـه •

أين نحـن من العالم العربي ؟ اين نحن من العالم الافريقي ؟ اين نحـن في قلب كل عالم من هذه العوالم فليس في وسعنا ان نجهل علاقتنـا بـه • ومستقبلنا فيه ، يقول الرئيس جمال ان نصف الاحتياطي المحقق من البتـرول في العالم يرقد تحت ارض المنطقة العربية فنحن اقوياء ليس في علو صوتنـا حين نولول •• وانما اقوياء حين نهدأ او حين نحسب بالارقام مدى قدرتنـا على العمل • ويقول : اننا لن نستطيع بحال من الاحوال ــ حتى لو اردنا ان نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في إعماق افريقيـا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين • اننا في افريقيـا•• والنيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة ويبقى ايضـا ان السودان الشقيق الحبيب ــ تمتد حدوده الى اعماق افريقيا ويرتبط بصـلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها والمؤكد ان افريقيا الان مسرح لفوران عجيب مثير • وان الرجل الابيض الذي يمثل عدة دول اوروبية • يحاول الان اعادة خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الاحوال ان نقف امام الذي يجري في افريقيا وتتصور انه لا يمسنا ولا يعنينا •

ويقول في العالم الاسلامي : « حين اسرح بخيالي الى ثمانين مليونا من المسلمين في اندونيسيا وخمسين مليونا في الصين وبضعة ملايين في الملايـو وسيام وبورما وما يقرب من مائة مليون في الباكستان واكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الاوسط واربعين مليونا داخل الاتحاد السوفياتي وملايين غيرهم في ارجاء الارض المتباعدة • حين اسرح بخيالي الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة اخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التي يمكن ان يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهـم

لاوطانهم الاصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قــوة غير محدودة » .

وهذا كله صحيح في الجملة والتفصيل ، وليس الاهتمام به مــن طموح الشباب كما يتخيل الوادع في عقر داره ، بل اخشى ان اقول انه من اعبــاء الشيخوخة قبل اوانها بل من همومها في ابانها ان كان حمل الهموم البعيــدة وقفا على الشيوخ ، ماذا نصنع ان جنى البترول على العالم العربي فضيعــــه بدلا من تزويده باسباب القوة والمنعة ؟ وماذا نصنع ان اصبحــت افريقيـــا للمستعمرين او الاوروبيين ولم تصبح في الغد القريب افريقيا للافريقيين، وماذا نصنع ان تهدم معنى الحياة كما تمثله المادية الحيوانية او كما تمثله الحضــارة الحسية ولم تعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة او غمار القنوط والحيرة ؟

فروض جسام :

ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنام ، وليس علينا بالبداهة ان نعمــل كل شيء، ليس علينا ان نعمل لنعفي من يأتي بعدنا من العمل . فاننا ان اعفيناه من العمل اسأنا اليه . ولكننا نترك له واجبه وننهض بواجبنا . وواجب كــل جيل من اجيال الامم ان يبقي لمن بعده امانة . ولا يبقي له قيودا من عمله او اثقالا من جرائر اهماله وتفريطه . واذا استطعنا ان نقول للاجيال المقبلــة ان دينكم لنا اعظم من ديننا لاسلافنا فنحن الاوفياء وهم الرابحون .

ختـــــام

ختـــــــام

والان .. قبل ان اطوي صفحات هذا الكتاب منتهيـا مـن تسجيلها وكتابتها وقبل ان تطويها انت يا عزيزي القارىء .. منتهيا من قراءتها وتأملها .. دعني اذكرك بان هذه الصفحات لم تنتظم دفاعا عن فكر العقاد السياسـي .. بقدر ما كانت تسجيلا ـ ما امكن ـ لكل مواقفه في معاركه السياسية.. هذه الصفحات حاولت قدر المستطاع ان تبتعد عن مجالي التهوين بفكر العقاد او التهويل بفكره . فلم تكن ظالمة له بالحب الاعمى او بالكراهية القاسية .

هذه الصفحات حاولت ان تتجرد من الاهواء .. فلم تذهب مذهب حماس الاصدقاء المتهورين المتهوسين ولا مذهب الخصوم المشوهين المبتورين .. وانما هدفت الى بيان موقف العقاد السياسي ما له وما عليه لا اكثر ولا اقل .

فلم تكتف مثلا بتلك الخلاصة التي يلوح بها البعض والتي تقـول لقـد كان العقاد موقفا خالدا .. من مجرد اعلانه من تحت قبة البرلمان وقال : ان هذا البلد قادر على سحق اكبر رأس يعتدي على الدستور .

بل اضافت الى هذا الموقف العظيم مواقف اخرى .. ربما يفسرها البعض بأنها ادانة للعقاد وتاريخه .. ذلك لان الصفحات تؤمن بان العقـاد بشر اولا واخيرا .. وانه قد يصيب وقد يخطىء ..

هو بشر عادي ربما يكون معصوما من الصواب وليس نبيا مرسلا معصوما من الخطأ •• لهذا طمحت هذه الصفحات الى خطة مؤداها ان تعطيه حقه وتأخذ منه ما يزيد على حقه •

ارادت هذه الصفحات ان تقول رسالة من خلال تسجيل وتأمل مواقف رجل عاش حياته كلها صانعا للكلمة •

هل تعلم يا عزيزي القارىء ماذا تقول هذه الرسالة وماذا تعني ؟

انها تقول : ان الكلمة وثيقة آدميتنا ، وان الكلمة فرقان بين نبي وبغي، وبأنها هي الحد الفاصل بين الحق والباطل •• وبان الكلمة ــ وهذا يكفي تشريفا لها ــ ان ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز حين اقسم بها فقال : « نون والقلم وما يسطرون » •

لكن الكلمة لا تكون كلمة اسما وفعلا بغير حرية •• فالكلمة بلا حرية كجسد بلا روح •• وهذا ما آمن به العقاد في كل مواقفه •

لقد آمن العقاد ان حرية الكلمة حق مطلق لا يخضع لاي اعتبار • ولا يملك اي قانون حق تقييده ولا يملك اي عرف حق تحديده ••

لهذا عانى العقاد العديد من الازمات ولاقى الكثير من شظف العيش طوال حياته •• ويكفي انه عاش ومات ولم يترك مالا ولا بنين وانما اكتفى ان تكون زينة حياته هي تلك الكلمة وحريتها •

اخيرا •• هذه الصفحات تضع فوق راحة يديك مفكرا عظيما •• استطاع ان يقول «انا» عن حق وجدارة •• دون ان يكون هناك جاه او سلطان او مال يسنده •• وانما كان جاهه وسلطانه وماله هو موقفه •

تحية لهذا الموقف وصاحبه •

القاهرة في ٣١ مارس ١٩٧٩ « سامح كريم »

المصـــــــادر

مؤلفـــات العقـــــاد	
مـــــع العقـــــاد	د. شوقي ضيف
العقاد معاركه في السياسة والادب	عامر العقـاد
لمحات من حياة العقـــاد المجهولة	عامر العقاد
اخر كلمات العقـاد	عامر العقاد
العقاد بين اليمين واليســار	رجاء النقاش
ادباء ومواقف	رجاء النقاش
من ذكرياتي في صحبة العقـــاد	محمد طاهر الجبلاوي
يسقط الحائط الرابع	انيس منصور
الجمال والحرية الشخصية الانسانية فـي ادب العقاد	د. نعمات فؤاد
قمـم اديبـــة	نعمـات فؤاد
نظرات فكر العقاد	د. عثمان امين
عبقرية العقاد	د. عبد الفتاح الديدي
النقد والجمال عنـــد العقـــاد	د. عبد الفتاح الديدي
عصر ورجـــال	فتحي رضوان

عمالقة الصحافة — حافظ محمود
عباس العقاد ناقدا — د.عبد الحي دياب
فصول في النقد عند العقاد — محمد خليفة التونسي
في اعقاب ثورة ١٩١٩ — عبد الرحمن الرافعي
المذاهب السياسية المعاصرة — علي ادهم
العقاد دراسة وتحية — لتلاميذ العقاد
عدد خاص عن العقاد — الهلال ابريل ١٩٦٧
دراسة عن العقاد — الاداب يونيو ١٩٦٧
دراسة عن العقاد — المجلة ابريل ١٩٦٦
ملزمة عن العقاد لانيس منصور — اخر ساعة
اعداد من مجلة الخرطوم
اعداد من العربي
اعداد من مجلة الثقافة
اعداد من مجلة الجديد
اعداد من جريدة الاهرام
اعداد من جريدة الاخبار
اعداد من جريدة الجمهورية
اعداد من مجلة الجبل
اعداد من مجلة حواء
اعداد من مجلة الاثنين
اعداد من مجلة المصور
الموسوعة العربية الميسرة
دائرة المعارف الاسلامية
العقاد اعمال ومواقف — سامح كريم
طه حسين في معاركه الفكرية والادبية — سامح كريم
ماذا يبقى من طه حسين — سامح كريم

الفهرس

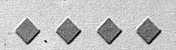
الموضوع	الصفحة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٩٥٢/٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6869 - 6





هـذا هـو العام السابع من عمـر «مكتبـة الأسـرة» .. ومنذ سنوات طـوال لم يلتف النـاس حـول مشـروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنـا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمـانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعـادة صيـاغة وتشكيـل وجدان الأمـة واستعـادة دورهـا الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبـة الأسـرة» .. أن تعيـد الـروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالـدًا للثقافـة فى زمـن الإبهـارات التكنـولوچيـة المعاصـرة.. وهـا نحـن نحتفـل ببـدء العـام السابـع من عُمـر هـذه المكتبـة التـى أصـدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر مـن «٣٠ مليـون نسخة» تحتضنهـا الأسـرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتـراثًا لايبلى مـن أجـل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطـن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





٢٠٠
قرش